

ابراهيم الكوني

المجنوس



رواية

الجزء الثاني



(١)

من فم الجدة نزَّد بالأساطير عن «واو»:

في تلك السنوات تنقلوا مع القبيلة في الصحراء، عانوا الجوع وقساوة الجدب ولكنهم لم يتوقفوا عن التنقل والعبور والبحث عن الكلأ. وكلما تذَكَّر تلك الطفولة الشفقة ابتسم آده بمرارة وقارن في نفسه طلب القبيلة العنيد للربيع المستحيل بتقليد الصحراويين القدم في بحثهم المستمر، المكابر، الوحشي، عن الوطن الصائغ. وكلما عاد إلى الماضي وحاول أن يسترجع ذكري الهجرة استولى عليه انطباع البهجة والفرح. انطباع مستمد من يقين غامض ومدهش يقول له الآن، بلغة العقل والوضوح، إن «واو»، التي يفني الصحراوي عمره بحثاً عنها، هي بين يديه، هي هذه الدنيا الصحراوية التي لا يذكر لها، في طفولته، أول من آخر. بل ولا يذكر أنه وقف على بدايتها أو نهايتها حتى الآن بعد ما قضى عشرات السنين من الطواف. رافق القوافل التجارية وزاول الرعي واشترك في الغزوات وعبر إلى غدامس وأهمجـار وأـيـر وأـطـرافـ الأـدـغالـ، ولكن العراء استمر يمتد ويتـبعـ، ليـشـبـكـ في قوسـ الأـفـقـ. فيـ الأـفـقـ يـلـعـبـ سـرـابـ يـذـكـرـ أـعـنـدـ الـمـاهـجـرـينـ بـالـهـزـيمـةـ والـعـجزـ.

يتوقفون في العراء القاسي، العاري، الملتهب، في أمسيات الصيف. تحرق الحجارة قدميه الحافيتين فيزحف على ركبتيه ومرفقيه، أو يحتضن

قدميه بيديه. وفي إحدى المرات اشتكتي من الحريق وبكى بصوت عالٍ ولكن لم يلتفت إليه أحد. انشغلت أمه بقطيع الماعز وأبوه انهمك في نزع الأحمال عن الجمال، والجدة صارت الركائز وتولّت نصب الخباء بمساعدة امرأه أحد الأقرباء. آلمه الإهمال. أغاظه أن يواجه الناس نداءه بالقصوة واللامبالاة فمزق ثوبه الفضفاض بأسنانه ولفه حول قدميه الحافتين ومشي بين المضارب عارياً.

في الليل عاقبته الأم بالفلفل. وضعت رأسه بين ركبتيها وصبت السائل الناري في فتحة أنفه

هرب إلى خباء الجدة. يهرب إلى الجدة كلما نشب مع الأم عراك، فستقبله العجوز في مدخل الخباء وتقوده إلى موقد النار. تعطيه الحليب أو بعض حبات من التمر ل تسترضيه وتواصل عملها في مخض الحليب، ولكن كسب رضائه ليس السبب الوحيد لسعادة الجدة. كانت العجوز البائسة تخاف الجن وتعاني من مطاردة الأشباح. تروي قصصاً شيقه عن العمالقة الذين يطleurون لها كلما اختلت إلى نفسها واعتزلت الناس. وكثيراً ما تأتي إلى خبائهم في قلب الليل وتوقظ أمه طالبة منها أن تسمح لها بـ«استعارة» الحفيد، لأن الجن منعوا عنها النوم، وكانت تظن أن الولد سيؤنس وحدتها ويفزع الأشباح. في بعض الأحيان توقظه أمه وتقوده لتسليمها في يد العجوز التي تقف في خارج الخباء ترطن بالتعاويذ بلغة مجهلة عرف فيما بعد أنها لغة «الهوسا»، لأن أهل الصحراء على يقين أن الهوسا هي اللغة الخفية التي يفهمها الجن، وهي اللغة الرسمية الشائعة بين السحرة والعرافين في كانو وأمير. وإذا احتاج على الإزعاج وبكى أو عارك، تأخذه أمه بين يديها وتسلمه إلى الجدة وتعود هي لتواصل النوم. في هذه الحالات كانت الجدة ترشوه بقطعة سكر أو حبة تمر، أو.. أو أسطورة جديدة عن «واو». وكثيراً ما سهرا معاً في العراء، خارج الخباء، تحت ضوء القمر، حتى يطلع الصباح. يستلقي على ظهره، يحدّق في القمر. يتمتع بالسكر، ويستمع إلى القصص الشيقه عن الوطن المجهول. وهي تسرد الأساطير، تقصر من

عمر الليل، تقرب الصباح، لتبعه شبح الجن. يسرح معها في الصحراء، يغيب في الواحة الخفية التي تفتح أبوابها ل تستقبل الأبطال الأشقياء، يدخلون ليقروا هناك إلى الأبد. لاحظ أن هؤلاء المحظوظين ينسون أنفسهم ويؤثرون البقاء هناك، عكس ما سمعه عن الأبطال الآخرين في قصص أولاد الجيران، فسأل العجوز مرة: «لماذا لا يعود المسافر إلى الصحراء ويفضل أن يبقى في واو؟». تبسم بحزن وتقول: «وما حاجتهم إلى العودة؟ المهاجر إذا دخل «واو» نسي الصحراء». يتحجّج ويعرض: «الأولاد يحكون قصصاً أخرى تؤكد أن المسافر يمكن أن يعود من الرحلة. سمعت أمس أن شيخاً وقوراً يعيش في النجع سبق له أن زار «واو». إذا لم تقنعني فسوف أذهب وأسئلته عن السلطان وعن البستان ولقمة الحرام». تبسم وترفع رأسها إلى الأفق البعيد دون أن توقف عن مخض الحليب. تجد المخرج بسرعة: «شهود العيان في النجع لم يدخلوا «واو». الشيخ الوقور زار مدينة الجن وظن أنها الواحة الموعودة، فلا تصدق أولاد الجيران». يفكر قليلاً. يهرب شعره الذي يشطر رأسه إلى نصفين مثل عرف الديك قبل أن يتسلّل: «حدثيني عن مدن الجن. دخلنا «واو» مرات كثيرة ولكننا لم ندخل مدن الجن مرة واحدة». تختفي الابتسامة ويحلّ في عيني العجوز الفزع. تبدأ في قراءة تعاوذ الهوسا في حين يضحك بشقاوة. يضحك في النهار ولكنه يختلس البكاء في الليل شفقة عليها. يخفى وجهه تحت الغطاء ويستعيد تعبير الفزع على وجهها فيكفر عن إساءته وشقاوته بالحزن والبكاء. هي تخشى سيرة الجن وهو يعرف ذلك فيتزّها ويستبدل قطعة سكر مقابل أن يتنازل ويضحي بأساطير الظلمات والفزع وقصص الجن.

طاردهم الجدب وتسقطوا أخبار المطر وتنقلوا في الصحراء الأبدية دون توقف. ينزلون الوديان الشاحبة، يزبحون الأنفال عن الجمال ويطلقون سراح الأنعام في الأشجار الميتة. في الليل تزورهم الذئاب. تحوم حول النجع بأصوات فاجعة فيتبادل رجال القبيلة حراسة قطعان الماشية، وينتهز العرافون والحكماء الفرصة فيقرأون في النساء أخبار الجدب وأنباء المجائعة. في الصباح تقع الطبول وبدأ رحلة البحث من جديد.

الجدة أسعد الناس بالتنقل. وتقول إن الترحال يرهق الجن فيختلف ويعسكر في رماد النجع المهاجر. وحذرته كثيراً من رماد النجوع المهاجرة وقالت إنها الوطن المفضل لقبائل الجن. ولكن أهل الخفاء لم يتبعوا في الرحلات الأخيرة واستمатаوا في المطاردة على غير عادتهم. فأصبحت لغة الهوسا، لغة السحر والجن والتلائم، لغة يومية لا تفارق شفتي العجوز. ترطن بها في الفجر قبل الصلة، وترطن بها بجوار النار وخلال النهار وطوال الليل بعد أن كانت تتمم بها مرة واحدة في الماضي، قبل أن تأوي إلى فراشها. زارت الفقيه في خيمته وعادت منه بحجاب قرآني جديد أضافته إلى القلادة الكثيفة من التعاويد المدسوسة في الجلد، ثم ذهبت إلى العرافة الزنجية وجاءت منها بثلاث حبات من النوى. أخلفتها في حفرة تحت الركبة. أهداها لها جارتها العجوز حفنة من الشيح وقالت لها إن لكل داء دواء والجن والشيح لا يمكن أن يجتمعوا في نجع واحد. عادت إلى البيت بقامتها الفرعاء التي حطم الزمان كبراءها وأجبرها على الانحناء، تستعين بعكازها الأملس المصقول بيد، وتمسك اللحاف الأسود الكثيف حول وجهها الحزين الغائر ذي الوجتتين العظيمتين البارزتين. من صدغها تدلّت خصلة جليلة من الشعر الذي توجه الزمان أيضاً وكلله بالبياض.

أوقدت نار المساء وانتظرت حتى هدا اللهب وتوهّج الجمر. ألقت بشر العشبة السحرية في الأتون وانحنت برأسها فوق الموقد وكتمت بخار الشيح بأن غطت الموقد بلحافها. أخذته أيضاً ودست رأسه داخل اللحاف. كتم بخار الشيح أنفاسه فاختنق وسعل طويلاً. تناولت نثراً من العشبة وأخلفتها في خرقة سوداء وصنعت له حجاباً من الشيح. ثبته في معصمه بخيط من الجلد وقالت إنه سيقيه من الجن. ولا يعرف لماذا وجدت في نفسها الشجاعة في تلك الليلة لتحدّثه عن قوم حُرّمت على نفسها أن تأتي حتى على ذكرهم، بل وحرّمت على أفراد القبيلة أن يأتوا على ذكرهم في حضورها. ربما استنصرت بالشيح. السرّ في العشبة السحرية.

أطعّمته فطيرة على العشاء وأودعته فراشه. توضّأت وصلّت وتمتّت

بتعاويذ الهوسا. أنهت طقوس الليل ونَكَّوْت بجواره تعثُّت بحباب المسبحة وتعغم بتسابيح آخر الليل. أنهت الأوراد وکُورٌت المسبحة في كفها. فركتها بين يديها وسألت:

- هل غلبك النوم؟

أجاب ببرود وهو يزير الغطاء ويضع رجله على ركبته الأخرى متابعاً
النحوم:

- لن يغلبني قبل أن أسمع القصة التالية.

- إذن اسمع ما يحدث للمعاندين الذين يخالفون نصائح الأمهات والجادات. لو لم أخالف ما نهتني عنه العجائز لما عشت اليوم مطاردة من العمالقة وأهل الخفاء. خالفت فتسكعَت في الرماد القديم المهجور الذي تركته النجوع المهاجرة. هناك وجدت حلقة معدنية ظلتها من النحاس. غفلت عن تحذير الحكيمات مرة أخرى وأخذت الحلقة. كانت واسعة الدائرة، في حجم القرط، تلمع تحت شمس الغروب. عقدتها في طرف اللحاف ونسيיתה أياماً. لفنت نظر راعي الإبل فطلبتها كي يستخدمها لسنان الجدُع الذي رَوَضَه ولجمَه منذ أيام. سافر الراعي إلى المراعي الشمالية البعيدة حيث بشر رجال الاستطلاع باكتشاف وديان خضراء خلفتها سحب عابرة في فصل الشتاء. بعدها لم أَرَ الراعي، كما لم أَرْ جدَعه أيضاً. ضاع الراعي ومات بالظلمَ قبل أن يصل إلى أرض البشارَة. والجدُع تاه وهام في الصحراء الغربية. ويُقال إن قطاع الطرق اخْتَلَوا به ونحرُوه جنوب غدامس. قبل وصول خبر الراعي زارتني الحسناء بذيل الثعبان. نعم. لا تقاطعني. حسناء فرعاء لم أَرَ لها نظيرة في الصحراء ولكنها تجُرُّ ذيلها بشعاً أثراً شمئراً. ولو رأيتها منذ البداية لعرفت طينة الزائفة ولأجرت نفسي من ورطة التحدث معها. ولكنني لم أشهد الذيل إلاً عندما انصرفت. وقالت لي العَرَافَة فيما بعد، وهي تحدثني عن سلوك الجن، أن هذه عادة شائعة بين أهل الخفاء. يرُوق لفريق آخر أن يمشي بحوارِ حمار، وفريق ثالث يعتمد أن يخفى وجهه ويطلع للناس بلا رأس. وجماعة رابعة تخرق الفضاء

وتغيب بقاماتها في السماوات. وسوف أحذّتك عن الفريق الأخير بعد قليل. حدثني العرافة طويلاً عن غرام الجن بالتنكر ووضع الأقنعة، وقالت إنه لا أحد يستطيع أن يعرف لماذا لم ينكروا على طريقة أهل الصحراء، وهي تظن، وأنا أوافقها في هذا الظن، أن أهل الصحراء تفوقوا حتى على الجن، بعد أن تفوقوا على الإنس، بهذا الاختراع التكاري الأصيل المسمى : اللثام.

وتساءلت العرافة: مَنْ مِنَّا لا ي يريد أن يخفي وجهه؟ مَنْ مِنَّا لا يتنى أن يستر فمه الذي كان سبباً في طرده من «واو» بعد أن أكل لقمة الحرام؟ مَنْ مِنَّا لا ي يريد أن يمنع عاره عن عيون الفضوليين؟ مَنْ مِنَّا لا يسعى لأن يحجب أفكاره؟ حتى الجن، كما رأينا، يحاولون أن يفعلوا ذلك، ولكن على الصحراوي أن يفخر بأنه سبق بقية المخلوقات في جعل القناع لباسه اليومي، التقليدي، الأبدى. والكبرياء وحدها هي التي تمنع الجن من المجاراة والتشبيه بنا، بعد أن سبقناهم، خاصة وأنهم يتباهون دائماً بقوتهم وتفوقهم ولا يريدون أن يعترفوا بكماءة الإنس. وهذا يدل على أن أهل الصحراء أسبق من أهل الخفاء في دخول الصحراء. هذا ما أقوله أنا. هذا ما تقوله العرافة أيضاً. ولكن هذه خرافة أخرى

دعنا الآن نعود إلى الحورية. جاءتني بعد الغروب، قبل أن يستشهد قبس الشمس في الأفق. سكان الظلمة يحبون هذا الوقت. جاءتني بعد أن أنهيت حلب الماعز وفرغت من آخر ضرع. الفت فوجدت أن شبحاً يقف فوق رأسي، لا أدرى من أين طلع. شبح امرأة، ملتحفة بالسواد، تشد يدها اليمنى للحاف حول وجهها المستطيل. عيناها كبرitan، مرسومتان بالكحل، سوداوان. الحوااجب كثيفة، مقوسة. الرموش طويلة. الأنف طويل مرفوع، متكبر. أمّا الذقن فلم أتبّعه بوضوح لأنها حجبته بالحاف. القد مشدود. القامة فرعاء. الردفان ممتلئان مثل قربة ماء.

قالت: «أنت رفست ولدي، وأخذتني حاجتي». لم أفهم. طبعي أنني لم أفهم هذه التهمة القبيحة. فلا أذكر أنني رفست في حياتي حتى النملة، كما

لم يحدث أن مدت يدي لأخذ حاجة الغير. ويدو أنها رأت الاستنكار في وجهي فأوضحت بيرود: «ألم تأخذني حلقة الذهب من الرماد القديم منذ أيام؟ هل تذكرين أنك تسكت في الأرض المهجورة وتمرأغت في الرماد؟». تذكرت الحلقة النحاسية فقلت بدهشة: «أخذت حلقة نحاس ولم أر هناك أثراً لولد». لم يخطر بالي أن تكون محدثي من أهل الظلمة حتى تلك اللحظة، لأنني رأيت الذيل القبيح عندما استدارت فقط. عقدت حاجبيها الكثيفين وقالت بغضب: «أنتم لا تتصرون. عيونكم كبيرة ولكن كلّكم عميان. لم ترِ الولد ولكنك رأيت الحلقة. تقولين إنه نحاس ولكنه لمّاع وأخذ وإنّا لما امتدت يدك إليه. أنتم تتصرون الأشياء اللامعة فقط. أما المخلوقات المطفأة المعجونة من اللحم والدم فلا ترونها. أنت دهاء لأنّكم لا ترون إلاّ الأشياء التي تريدون رؤيتها». سكتت ثم أكملت بغمة أخرى: «الذهب حجابنا. حصننا. كتابنا. أنتم تتحمّون بيان القرآن وتعاوّذ السحرة ونحن نتّسّر ببريق سيد المعاذن. تعموننا وتتفقون شرنا بالآيات والأحجّة ونعنيكم بالبريق لتنقى شركم. أعيدي حجاب الولد». وعدتها. قلت لها إنني سأعيدي الحلقة بمجرد أن يعود الراعي من الوديان. انصرفت فرأيت في العتمة الذيل البشع. رحّقت على جلدي قشعريرة وأصبت بالرجفة. تذكرت أنا لا نسكن الصحراء وحدهنا. تذكرت أنا ننزل ضيوفاً على قوم يدعون أنهم أقدم من ينزاعوننا حقّنا في الوطن العاري. ينزاعوننا برغم أننا سبقناهم في اختراع القناع. وأدهشني أنني نسيتهم طوال الحوار. أدهشني أن تحدثني العورية عن إيزاء ولد غير مرئي ولا أنتبه إلى أن الولد إذا كان خفياً فلن يكون إلاّ من الأهل الذين ينزاعوننا في امتلاك الصحراء. ثم تذكرت شيئاً آخر أفزعني أكثر: الرماد. الرماد المهجور بيتم المفضل، ولا أحد استطاع أن يجد تفسيراً لهذا الغرام المبهم. تذكرت فصرّعني الحمّى. لزّمت الفراش أياماً كثيرة. ثرثرت بالهذيان ورطنت بالهوسا في الغيبوبة، ورأيت واحات مجهولة في الأحلام. زارتني العجائز والعرافات والإمام. أخفّيت السرّ حتى وقفت على قدمي. في ذلك الوقت جاءت أخبار الوديان بمصرع الراعي. عرفت أنّ وعدي لن يتحقق فذهبت

إلى العِرَافَةِ. أَخْبَرَتْهَا بِسَرِّي وَطَلَبَتْ مِنْهَا الْكَتْمَانَ. حَدَثَنِي طَوِيلًا عَنِ الْأَخْلَاقِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ وَبِنَلَهُمْ أَيْضًا، فَأَفْزَعَنِي أَنَّهُمْ لَا يَغْفِرُونَ الْحَنْتَ بِالْوَعْدِ. لَا أَعْرِفُ كَمْ مَضِيَّ مِنَ الزَّمْنِ عِنْدَمَا عَادُوا لِزِيَارَتِي مَرَّةً أُخْرَى. لَمْ تَعْدِ الْحُورَاءَ بِلِ جَاءَنِي بِعِلْمِهِ الْفَطِيعِ. جَاءَ مَقْطُوْعَ الرَّأْسِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى. وَجَاءَ مَارِدًا فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، غَابَتْ قَامَتِهِ فِي السَّمَاءِ. لَمْ أَذْقِ طَعْمَ الْهَنَاءِ مِنْذَ ذَلِكَ الْيَوْمِ. تَوَالَّتْ زِيَارَاتِهِمْ. أَعْتَرَفُ أَنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمِينَ، رَحِيمِينَ. لَمْ يَهْدُوْهُمْ. لَمْ يَتَابُّوْزُوا بِالْأَلْقَابِ، لَمْ يَضْرِبُوْنِي وَلَمْ يَلْجَأُوْهُمْ إِلَى السَّلَاحِ الْأَذِيِّ. وَلَكِنِي كُنْتُ، فِي كُلِّ زِيَارَةٍ، أَرْتَجَفُ وَأَفْشَعُرُ وَأَتَصْبِبُ الْعَرَقُ وَأَرْقَدُ بِالْحَمْقِيِّ. فِي هِيَتِهِمْ شَيْءٌ خَفِيٌّ، مَجْهُولٌ، جَلِيلٌ وَمُخْيِفٌ. مُخْيِفٌ بِقَدْرِ مَا هُوَ جَلِيلٌ. أَحْسَنْتُ أَنِّي أَخْطَلَتُ فِي حَقِّهِمْ مَرْتَيْنِ: الْأُولَى عِنْدَمَا افْتَحَمْتُ بِدِيَّ الرَّمَادِ وَمَدَدْتُ بِدِيَّ إِلَى الْحَلْقَةِ الْمَلْعُونَةِ، وَالْأُولَى عِنْدَمَا وَعَدْتُ الْأَمَّ الزَّائِرَةَ وَحَتَّى بِوَعْدِي لِسَبِّ خَارِجَ عَنِ إِرَادَتِيِّ. أَحْسَنْتُ أَنِّي أَسْتَحْقَقَ أَنْ أَتَلْقَى مِنْهُمُ الْضَّرِبَاتَ عَلَى قَفَاعَيِّ كَعْقَابٍ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَحْكُمُوْهُمْ إِلَى الْعَصَاصِ. أَدْرَكْتُ أَنَّهُمْ لَيْسُوْا هَمْجَانًا كَمَا خَيَّلُوهُمْ لَنَا الْأَمْهَاتِ وَالْجَدَاتِ. وَلَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يَخْفِ فِي شَعُورِي بِالْإِلَيْمِ. اسْتَمَرَّتِ الْزِيَارَاتِ وَاسْتَمَرَّ الْخُوفُ وَالْخَطِيئَةُ. عَجَزْتُ تَعَاوِيْذُ الْعِرَافَةِ وَأَحْجَبَةُ الْإِيَامِ. سَاعَدَنِي مَسْتَحْضُرَاتُ الْأَعْشَابِ وَهَدَائِنِي فِي نَفْسِي الْخُوفِ الْمَجْهُولِ. تَنَقَّلْنِي بَيْنَ الْمَرَاعِيِّ كَثِيرًا فَوْجَدْتُ أَنَّهُمْ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْوَصْوَلِ بَعْدِ كُلِّ رَحْلَةٍ. يَتَخَلَّفُونَ وَلَكِنَّهُمْ يَصْلُونَ فِي النَّهَايَةِ. يَسْتَغْرِقُ ذَلِكَ بَضْعَةَ أَيَّامٍ وَأَحْيَانًا بَضْعَةَ أَسَابِيعٍ. وَلَا أَفْهَمُ حَتَّى الْآنَ سَرَّاً لِذَلِكَ. وَلَكِنِي عَرَفْتُ سَرَّاً آخَرَ، سَرَّاً أَقْدَمَ مِنَ الصَّحْرَاءِ وَمِنْ «وَوَ». سَرَّاً وَرَثَهُ أَهْلَنَا عَنِ آنِيِّ الْمَفْقُودِ. يَقُولُ: «أَنْ تَقْطَعْ يَدُكَ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ تَدْعُهَا تَمْتَدِّ إِلَى الْكَنْوَزِ». يَدِي هِيَ الَّتِي وَرَطَتْنِي عِنْدَمَا تَرَكَتْهَا تَمْتَدِّ إِلَى الْحَلْقَةِ، كَمَا وَرَطَتْنِي رَجْلِي لَمَّا دَخَلْتُ دِيَّ الرَّمَادِ. وَمَا فَائِدَةُ الْحِكْمَةِ الْآنِ؟ مَا فَائِدَةُ الْدِرْسِ بَعْدَ أَنْ تَقْعُدُ الْوَاقِعَةُ وَيَكْتُرُوْيَ ابْنُ آدَمَ بِنَارِ التَّجْرِيبِ؟ لَا.. أَنْتَ لَا تَدْرِي يَا وَلَدِي، أَنْ نَارَ الشَّقَاءِ فِي الْكَنْوَزِ. وَتَنَلَّكَ الْقَلْةُ الَّتِي عَرَفَتُ السَّرَّ وَرَجَعَتْ عَنِ الْمَجْرِيِّ إِلَى رَحَابِ السَّكِينَةِ هِيَ الْفَتَّةُ الْمُخْتَارَةُ لِلْسَّعَادَةِ. وَبِرَغْمِ أَنِّي لَمْ أَمْدِي إِلَى الْحَلْقَةِ طَمْعًا فِي الْكَنْزِ

إلا أن الجن لا يفرقون بين الطمع وبين الفضول. الفضول أيضاً خطأ. فلا حقوقني في كل مكان ليذكروني بالخطيئة دون أن أتمكن من معرفة ما تعنيه لهم الحلقة المشؤومة.

قالت الحوراء في الزيارة الأولى إنها حجاب ولكن ذلك لم يقنعني ولم يبرر هذا الحماس في المطاردة. وقد أغلق هذا الباب في وجهي بعد أن تثبت كل الزوار بالصمت. لم يكلمني أبداً، مما ضاعف من فزعني. تقول العجائز نفلاً عن الكتاب الضائع أن توالى الأيام مقبرة الآلام، والزمان يستطيع أن يصلح أشد الأطراف عداوة، ولكنني لا أذكر أني سمعت في آنئتي ما يفيد بأن هذا الصلح يمكن أن يشمل الإنس والجن. أردت أن أقول لك إني عجزت عن التعود الذي أوجبته على الأشباح بطلوعها المتكرر. سر الجن أنه يخيفك في كل مرة حتى لو طلع لك ألف مرة. الحالى بنى سداً من الظلمات ليفصل بين الإنس والجان كما بنى سداً من المجهول بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، أو بين الصحراء المكشوفة «وأو» الخفية. هذا السد الأعمى هو الذي أبطل حجاب الزمان، حجاب التعود. آخر... آخر... يا ولدي. هل غلبك سلطان النوم؟.

غليبه. نام مستلقياً على ظهره، مفتوح العينين كأنه لا ي يريد أن يحرم مقلتيه من التحديق في قرص القمر الفضي الصحراوي العابر حتى وهو مغلوب بالنوم. أنصت العجوز لأنفاس الحفيد لحظات، ثم زحفت إليه وفقدت كيس الشيخ المثبت في معصمه. قرأت التعاوين باللغتين: لغة أهل الصحراء، ولغة السحر والهوسا والأدغال.

(٢)

عندما زلزلت الأرض ورقصت أرrix لها الصحراويون بـ «عام الهرزة». وعندما عمّ الجدب وهيمت المجاعة على القارة أرّخوا بذلك الزمان بـ «سنوات الأزمة». وعندما خطف الجن الجدة وجدوا أنفسهم يقولون: «عام اختطف الجن العجوز راتا». وما زال العقلاة، خاصة المعمرون،

يؤرخون لأحداث الصحراء بهذه الجملة التي ورثتها الأجيال اللاحقة ورددتها دون أن تتساءل عن الحدث حتى من باب الفضول. ولكن العفلاء الذين وجدوا في استهتار الأجيال بتاريخ الصحراء تهوراً غفروا للشباب هذا الطيش كما غفر لهم الأجداد والأباء طيشاً آخر من قبلهم. ولكن هل ينسى الحفيد ذلك الوجوم المشبوه الذي رأه على وجه الأم، ثم الأب، ثم قرأه في وجوه العجائز المرسمة بالغضون بعد تلك الليلة التي غلبه فيها النوم وحرمه من الاستماع إلى نهاية قصتها مع الجنية الحوراء؟ عندما تهامت النساء بـ«طارت..» الغامضة كان الرجال يتشارون في كل الصحراء بحثاً عن الجدة الضائعة. فإذا كان الرجال أكثر جسارة في ذكر الجن وتسمية الأشياء الخفية بسمائها العلنية، فإن النساء الصحراويات كن دائماً أكثر حذراً في تجنب سيرة سكان المجهول. ففي الوقت الذي ظلّ الرجال يرددون فيه العبارة التاريخية: «عام اختطف الجن العجوز راتا..» لجأت النساء إلى التورية والإيماء، فاستعملن عبارة خفية تلقي بحلال أهل الخفاء: «في ذلك العام الذي اختفت فيه العجوز راتا..». كان الجدة اختارت أن تختفي بإرادتها، أو الجملة اللثيمة الأخرى: «.. في ذلك العام عندما طارت العجوز راتا..»، لأن الجدة تلقت فجأة أجنحة هدية من نساء الخرافات أو جنيات الأساطير الالائى روت له عنهن أمنع القصص. كل هذه الحيل اخترعتها النساء البارعات في نظم الشعر وإخفاء المعنى خوفاً من إيذاء سكان الظلمات. بهذه الصياغة أرخت الأجيال لحادثة الاختفاء.

ولا يستطيع أن يعرف لماذا حفر الزمان في ذاكرته هذا الوجوم طوال هذا العمر. وجوم غامض، متواتر، يخفي خوفاً وفجيعة واستسلاماً للقدر والمكتوب. وربما يخفي أشياء أخرى لم يفهمها في ذلك الوقت ولا يستطيع أن يستعيدها اليوم. يستطيع أن يراهن على شيء واحد، قرأه في عيون الجميع: كل القبيلة على يقين أن ما ححدث كان سيحدث. كل الناس تعرف أن زيارات الجن لن تنتهي على خير. الكل يتوقع للعجز المسكينة هذا المصير. واستمرت العيون تومئ بهذا التعبير طوال الأيام التي قضاها رجال القبيلة في البحث عن جدته المفقودة. عزّته النساء بنظرات صامتة،

ربت على رأسه العجائز الحكيمات بأيدٍ رحيمة وأصابع كأعمود الحطب وقدمن له العزاء في حبات التمر. قال الصبيان له: إنه لن يسمع قصصاً ليلية بعد اليوم، لأن البحث في البراري لم يسفر عن شيء. بدأ يفهم سر الصمت واللوجوم. عاد بعض الأتباع باللحاف الأسود بعد أيام. أخبروا أن خبراء الاستقصاء ورصد الآثار وجدوه على مسافة تبعد ثلاثة أيام عن النجع. ولكنهم لم يجدوا أثراً للعجزون نفسها. تدخل العراف وأكَّد أن اللحاف إشارة وهم يسرون في الصراط المستقيم. توارى النجع وراء وجومه وانتظر. مرت أيام أخرى. في مساء اليوم الخامس، عند الغسق، تجمَّع الكبار والصغار، ليتفرَّجوا على فارس الشارة وهو يظهر ويغيب في الأفق. ينزل الوديان فيختفي ويغيب، يصعد الروابي والمرتفعات، في العراء الممدد إلى الأبد، فيظهر من جديد مثل الشبح. اقترب فتأكدت النساء أنه ليس شبحاً من الجن أو خيالاً نسجه السراب فرفعن عيونهن إلى السماء وأطلقن ألسنتهن المدرَّبة في زغاريد عاصفة، طويلة، احتفاء بوصول الرسول. يومها حيرَته النساء. سأَلَنَفسه: كيف تجرؤ امرأة أن ترفع صوتها بزغاريد الفرح دون أن تنتظر وتعرف أي بشارة يحملها الرسول؟ ولكنَّه كان صبياً يافعاً فلم يلحظ الإشارة. لم يرَ في عتمة الغسق كيف لَّوح الفارس في الهواء بقطعة شاش بيضاء.

في صباح اليوم التالي، عند الأصيل، جاءت القافلة بالعجزون محمولة على ظهر جمل، ملفوفة في الأردية والبطاطين، ترقد في سرج مستطيل صنعه الرجال من الأغطية والثياب وأوراق الرُّتَم. محمومة. ترتجف. يغزو البياض مقلتيها. عيناهَا تدوران في الفراغ كعيون العميان. نبت الزبد الناصع حول شفتيها المتغضتين، الهرمتين، وهذت ببرطانة هي أقرب إلى لغة الجن. خليط من تماهق والهوسا والتباوية ومفردات أخرى غير مفهومة مما حمل العجائز على الظن بأنها ما زالت غائبة في المخاطبات مع أهل الخفاء.

سهر فوق رأسها مع أمِّه. حاول أن يفكُّ رموز لغتها الجديدة. تمكَّن

التعب من الأم فاستسلمت وأغفت وواصل هو السهر. خاطب النجوم
وتوسل القمر أن يشفيها ويعيدها للناس، وأن يعفيها من ملاحقة الجن
ويعيدها إليه كي تحدثه عن «واو» وتحكى له مطاردة الجنية الحوراء في
ضياء البدر الصحراوي. كي ترشوه بحبات التمر وقطع السكر حتى يؤنس
وحديتها ويقبل قضاة الليالي معها. كانت على يقين أن الجن يخسون الرجال
حتى لو كانوا أطفالاً. يكفي أن يكون ذكرأ. الجن يفزعون من رائحة
الذكور. الذكر مخيف حتى لو كان طفلاً.

بعد أن أغفت الأم أنصت لهممها المهمة ووضع راحته على جبينها ليتحسن الحرارة. أحس بالعرق اللزج الحار في أصابعه فزحف على ركبتيه خارج الخباء. تذكر أنه أغفى في تلك الليلة عندما خاطرت بحياتها وأفشت له سرها. أغفى قبل أن تكمل قصتها فاستهان بمحببها. كيف سمح لنفسه أن يغفو ويستهتر بمصاب العجوز المسكينة؟ الوحيد الذي اختاره وخصته بالسر، فكيف غلبه النوم قبل أن يسمع نهاية الطاردة؟ أفشت السر فعاقبها أهل الظلمات بالخطف والعقاب و.. وبماذا أيضاً؟ لم يعرف أحد تفاصيل رحلتها المجهولة. لم يعرف أحد لأنها نسيت لغة الإنس وتخاطبت بلغة قوم المجهول. حتى هو الذي عاشرها وفهم تتمماتها وهممها وتعاونيدها بلغات الأدغال عجز أن يفهم اللغة الجديدة. ولو فهم جملة واحدة لتوصل إلى الخيط الذي سيقود القبالة لفهم ما دار بينها وبين أعدائها القدامى.

نكايف الزيد على شفتيها وازداد البياض في مقلتيها وغمر الوجه
شحوبـ. ماتت بعد أيامـ. هاجرت إلى السماوات المجهولة وتركته فجأةـ.
بكـى وهـام بين البيوت كالدرويشـ. رفضـ أن يأكلـ ويشرـب لأنـه لم يـصدقـ
أنـ عـجـوزـهـ يمكنـ أنـ تـطـيرـ وـتـرـكـهـ وـحـيدـاـ فيـ الصـحـراءـ. لمـ يـفـهـمـ حتـىـ ذلكـ
اليـومـ أنـ رـحـلـةـ الإـنـسـانـ فيـ الصـحـراءـ لـيـسـتـ خـالـدـةـ، ولـمـ يـفـهـمـ أنهـ جاءـ عـابـراـ.
أـبـوهـ هوـ الـذـيـ قالـ لـهـ ذـلـكـ: «ـكـلـنـاـ عـابـرـونـ إـلـىـ الـجـهـةـ الـأـخـرـىـ. الصـحـراءـ
ليـسـ مـقـامـنـاـ الـأـبـدـىـ». بكـىـ وـفـكـرـ طـوـالـ الـوقـتـ فـيـ الـعـبـورـ.

هذا أول لقاء له بالهجرة. بالعبور. بالموت.

استمر في الصيام. عزّته الأم وأفشت له سرّاً آخر: «كلنا نعرف أنها سترحل. ستعبر. إذا زارك الجن فهذه إشارة إلى بداية الرحلة. لم يحدث أن ظهر جنٌ لإنسني وبقي الأخير على قيد الحياة». هذا أيضاً درس لم ينسه.

ولكن ثمة سرّاً أخفاه عن أمّه وأبيه وكل القبيلة. سرّ لقتته له الجدة قبل أن تعبّر، ويقول إن الجن يجئون كي يستعيدوا قطعة الذهب فإن رفض وعاند أخذوه وملكونه.

(٣)

جفَّ الدمع في عين السماء وهيمن على الصحراء الجفاف. وجد الجلاد الأعلى فرصته فجدها بالنار طوال سبع سنوات. هلكت القطعان. عمت المجاعة. تشتت شمل القبيلة. نزحت العشائر للاحتمام بالواحات. هاجرت عائلات إلى بلاد السود. وعاندت فئة قليلة متنقلة في الحمادة العارية. لم يفت الأوبة أن تأخذ حصتها أيضاً. أمّه أخذها وباء مجهول جاء به القبلي. والأب صرّعه الظّمآن وهو يتقدّم إبله المفقودة غرب الحمادة. ولكن جفاف ينابيع السماء السباعي ليس إلّا بشارة في الغيب لا يعلمها إلا العرافون. فالسبعين العجاف تعقبها سبع سمان، يقول العرف المكتوب في النجوم. ويرغم طعن بعض العقلاة في صحة الرقم السباعي إلّا أن الرواة أرّخوا للسنوات السمان بالرقم السحري ليس من باب الإجلال لعراف القبيلة ولكن لأن المصاب إذا ابتدأ برقم «سبعة» فإن التعميّنة لا بدّ أن تفود إلى الخلاص يوماً.

كل منْ اكتوى بنار السبع العجاف تذَكّر مدى الحياة كيف تجمّع الماء الفقيد في مآقي السماء. وأدَه الذي فقد الأب والأم والأقرباء وبقي هائماً في الحمادة الوحشية يملك الحق في أن يذكره أكثر من كل العشائر التي

تخلّت عن الصحراء وبحثت عن حياة الاستقرار في الواحات. وهو، مثل كل التائبين المبعثرين في دنيا الخلاء، لا يدرى كيف تنادى الندى، وتفنّع وجه السماء بالسحاب. تبلّت المآفی القاسية وانفطرت بالدموع العصي. تهیأت الصحراء الظمایر لتلقي الخصاب وتبادل الدور مع بعل العلا. استعارت السماء دور العروس الصحراوية في ليلة الزفة فبكت بدموع سخية، وتقّمّصت الصحراء البكر جسد السماء ففتحت ذراعيها وساقيها لتحتضن الزوج الأبدى الذي هجرها طوال السبع العجاف. لم يستمر العرس طويلاً، ولكن العناق كان كافياً كي يجعل الوديان تسيل بالماء العطن، المارد، المخلوط بالبلع، والقش، وعظام الموتى، وبحثت الحيوانات والخناص وثياب الأفاغي.

دبّت الحياة في النبات الميت في ضربة سحر. عادت مع حبات المطر الأولى بذوراً اندثرت، وولدت في الصحراء الحياة من رحم الفنان الشامل. أخضر الرّتم في الأودية السفلّي وأزهر بأريح الأسطورة والفروذس. غزا أنوف الصبايا الصحراويات في المراعي فاستدارت نهودهن البولّة وتمرّدت بحثاً عن الحب الذي ضاع منها طوال السبع العجاف. تململ العصفور الخفي في صدر الفتى آده ورفرف للقاء العرائس الظامئة.

قرر أن ينسى الجن والجفاف والسبع العجاف ويعشق بحلول موسم انتظاره الحمادة طويلاً. إذ ما فائدة أن تعود الحياة إلى الصحراء ويحلّ الريع في الزهور إذا لم تتكور نهود العذاري، وتتفتح القلوب البكر لترتوى من ظمآن السبع العجاف، وتلتقي بقلوب الفرسان في حرم العشق؟

(٤)

في الصحراء لا يستطيع الفارس أن يدعى الفروسيّة، أو النبل، أو البطولة، أو حتى الرجولة، إذا لم يبدأ بالعشق. شاعرة القبيلة تسعى بين المضارب. تفتش عن الفتيان الزهاد الذين عزفوا عن الصبايا كي تؤلف موال الهجاء الذي سردد المغنيات في أول ميعاد يسطع فيه البدر.

الفتى آده ورث الخوف من العار، ومن هجاء الشاعرات، فاستجاب له العصفور ورفف في القفص: رقد في المراعي وشاهد السماء العارية. رأى في أسمال السحب العابرة نهوداً مدوراً في حجم جبات الكما، وجدائل فحماء كخيوط اقتطعت من ليلة صحراوية هجرها القمر. راقب الخدود المزوجة بـ«تيفست» الأقحوان، القدوة الممدودة، المشوقة كقوام المها، وغزا أنفه الأريح المستحضر من زهور الرّتّم حتى أغمض عينيه وأحس بالدوار.

ولم يعرف أن شعائر العشق بدأت قبل أن يلتقي بـ «تاناد» في أول ميعاد رتبته العذاري مع البدر.

أ - تناناد الأولى

سمع من الصبيان أنها تنظم الشعر سراً. زادتها الشائعة، في عينيه، سحراً. لم تكن فارعة كما يليق بالحسن الصحاوي النبيل. فكل الصبياً الحسان، في العرف الصحراوي، فارعات. ولكنها عوّضت تواضع القامة بالسحر. سحر اللغة والشعر الخفي، سحر الملامح والعينين. في عينيها جرأة لا تليق بعذراء. وفي الوجه الصبياني المستدير شقاوة وتطاول. رأها في ليلة الميعاد تتّوّسّط حلقة مختلطة من الصبياً والفتّيان. يتبارزون بالأحاجي، ويتبارزون بأبيات الشعر. اقترب وتربيع على خطوطات من الحلقة. تربع «خميدو» بجواره ليتابع معه المباراة. في البداية سرح مع البدر لقتل الصجر، ثم انتبه إلى لغة تناناد في الشعر. لم تكن الأبيات التي تردد بها على أشعار الفتّيان قد سمعها في معجم القبيلة. في أبياتها طراوة، وبكارة، وجسارة. كانت تفتح ثغراً مرصعاً بصفين من الأسنان الدقيقة وترفع رأسها كأنها تهب ابتسامتها للقمر وحده، ثم تجرّ قوس «امزاد» على الوتر الوحيد فينطلق النغم الحزين ليسكت أسئلة الفضوليين الذين يلحّون على الاستفهام عن هوية الأبيات. كانت «تناناد» الداهية تستجبر بالوتر الحزين حتى لا يضطّرها الهواة الخبئاء أن تجيب على أسئلتهم فتكذب. لأنها لم تقرر، حتى الآن، أن تنافس شاعرة القبيلة.

ولكن «خميدو» الثعلب كان يميل بعمامته نحو «آده» عقب كل بيت شعري ليعلق: «هذا من تأليفها. أقسم أن هذا البيت من تأليفها». أو يطلق صيحة إعجاب ليلفت إليه الأنظار ويهمس في آذن آده: «هذا ارتجلته للتو. أقسم أنها ارتجلته الآن» ويدعم القسم بصيحة أخرى. اقترب آده من الحلقة وتحدّها في الشعر.

تنحى الشباب وفتحوا له منفذًا في الحلقة. في عيني «تاناد» شاع الفضول وطغى على السحر. في عيون الأقران شاهد السخرية ونبؤات بالهزيمة. نطق البدر أيضًا بابتسامة خفية ولكنها مشجعة. خلفه أطلق «خميدو» ضحكة مكتومة. الأبله!

قالت بابتسام وتهليل:

- بِمَ سَبَدَ: بِشِعْرِ الْفَرَسَانِ وَالْعَرَاقِ أَمْ بِمَوَالِيِ الصَّحْرَاءِ وَالصَّبْرِ عَلَى
الْعُثُقِ؟

أعقبت سؤالها بضحكة وجرأة على وتر حبس في صدره أحزان الأجيال.

قال آده بمناورة رآها الأقران موفقة:

- وهل يملك الفارس أن يختار بحضور صبية؟

بدأت بيتين زهديين مجھولين. وأعقبتهما بيت ثالث معروف، فكانت الأبيات الثلاثة قصيدة جديدة، مشحونة بحس صوفي، عن طوق لواه القدر في عنق الصحراوي هو: العزلة. وكى تمنع الفتاة قصيدها الماكرة الأصلالة والبعد الشجني الذي تشرطه كل قصائد الصحراء، صنعت لها لحناً على وثيرة «هلي - هلي»، وارتجلتها كاغنية ملحونة.

بدأ آده. وعندما انتهى لم يصدق حتى خميدو أن يفوز بهذه الكفاءة.

فازت القبيلة بأغنية جديدة منذ بداية المبارزة.

... وأضافت إلى معجم الشعر الفروسي نصيًّا أكبر. فلم يعرف أحد من هواة الشعر ولا من محترفيه، سواءً من انتهى إلى فريق الصابايا أم إلى

فريق الصبيان، من أين خرج آده بهذه الذخيرة الشعرية. عجز خميديو نفسه عن إعطاء تفسير للمعجزة. أحاط به الشبان وألحوا في أن يعرفوا شيئاً عن موهاب صديقه الشعرية المغمورة. قالوا له إنهم تعودوا أن يبحثوا عن أسماء الشاعرات السرّيات، ولكنهم لم يتعودوا من الشبان أن يخفوا موهابهم الأدبية. قال خميديو: إنه لا يعرف. وكان يعرف أنهم لم يصدقوه. وما أن تعب البدر وأعياه الوجد فغاب خلف التلال المجاورة حتى ألقى الفت تاناد بوتر الحزن في حضن رفيقتها ودمعت عيناهما قبل أن تستسلم وتسحب. طارد خميديو رفيقه في عتمة العراء وألحّ عليه بالسؤال: من أين لك بكل هذه الأشعار؟

عاد الفتى آده إلى خبائه منفوشاً. ورغم الجهد والإنهال استقبل القبس البكر مفتوح العيني. غرّد في صدره العصفور الظمان ورفع صوتاً بنداء العشق.

في النهار تحدث النجع بالميعاد وبشره أهل الفضول بشائعات النصر. . تفاسير عن رصيده الشعري الخفي .

نقل له خميديو قوله يفيد بأنه ورث الذخيرة النفيسة عن جدته التي قضت نحبها بسب تعاملها مع الجن. أورثته الجنية العجوز هذا السلاح الشيطاني كي يغزو به الحسان ويسلب قلوب العذاري. واختلقوا قصة عاجلة، مثيرة، تعزو وفاة الجدة إلى ارتكاب أخطاء في حساباتها مع أهل الخفاء، فحدث لها ما يحدث لأولئك المغامرين القادمين من مراكش أو بلاد شنقيط عندما يرتكبون أقل خطأ في فك الطلسم عن الكنز المحروس، دوماً، بالمردة والجان: يخسرون بهم الأرض، يزلزلون الصحراء، ويصيرونهم بعاهة كي تكون لهم عبرة أبدية تذكر بالهزلية، وترجمتهم عن التفكير، من جديد، بطلب الكنوز المستحيلة.

اقترفت العجوز أيضاً خطأً مماثلاً، برأي أهل القول والفضول، فاختطفها أهل الخفاء وعذبوها بالجوع والظماء وإرهاب الأفاعي فماتت لـما بلغ بها الفزع مداه .

لم يشغل باله بالخرافات الجديدة. مضى في الليل إلى التلال. راقب قبس البدر كما راقب قبس قرينته الشمس في الصبح، تاركاً للقبيلة متعة اكتشاف تطرد الوحشة لأيام وشهور.

... ثم سافر.

هاجر إلى المراعي الجبلية في صحراء الشمال وجاهاً هناك كي يلفق لها قصيدة حب مكونة من أبيات مختلفة استعارها من الكنز الشعري الذي حفظه طوال السنوات الماضية. عاد إلى القبيلة وقرأها في أول ميعاد تحت ضياء البدر. فازت بإعجاب الصبيان والصبيان، وأجبرت العذراء أن تطأطئ رأسها حياء.

ولكن حدثت مفاجأة.

قفزت شاعرة القبيلة الخلاسية من حلقة الغناء ورمته بالغش. قالت غاصبة:

- هذا شعر ملفق. أنت سرقت الأبيات من القصائد القديمة، المجهولة، ونسجت منها شعرك. أنت شاعر مزيف!

لم يتدخل أحد. أخرست الدهشة الفتى والفتىات. هيمن الصمت وتوارى البدر خلف سحابة شفافة، عابرة. رأى آده أنه إذا لم يدافع عن نفسه فلن يستطيع أحد أن يردع المرأة السليطة.

قال ببرود:

- لو لم تكوني امرأة لقطعت لسانك الأسود الحسود بسيفي.

انطلق لسان الشاعرة:

- تستطيع أن تقطع حتى رأسي بسيفك، ولكنك لن تستطيع أن تمنع تناناد بيًّا واحداً من شعرك. ليس العار أن يعجز الفارس عن صنع الشعر، ولكن العار أن يستعيره من قاموس الأولين ويُدعي أنه من صنعه.

- تقولين هذا لأنك لم تقتلني ثعبان الحسد الذي يتحرك في بطنك.
- كيف تستطيع تناناد أن تبادلك العشق بعد أن علقت في رقبتها شعراً مزيفاً.
- أراهن أنك لن تستطعي إثبات ماتدعين.
- قبلت الرهان. أراهنك بناقة.
- قبلت.
- إشهد يا ميعاد القبيلة. فلنبدأ بالبيت الأول...

أجهشت تناناد ودست رأسها في حضن أقرب فتاة. توارى القمر وراء أسمال السحب وظهر مرة أخرى. بدأت الشاعرة الجنية تفكك أبيات القصيدة الملفقة وتعيد كل بيت إلى أصله. قالت إن المطلع مستعار من قصيدة قديمة تعود إلى شاعر من آير. وهي قصيدة طويلة ويتيمة لم يؤلف غيرها. ولكن هذا لم يمنع الإنقاذه من أن يجعل منها قصيدة خالدة. ولم يتمالك الشبان أنفسهم من التقارب والتهامس عندما لاحظت أن القصيدة منسية حتى في آير نفسها، ويعود الفضل في إنقاذ بعض المقاطع إلى عجائز في آهجار وأزجر وهبن قوة الذاكرة.

علا نشيج تناناد وبدأت الشاعرة تستعيد القصيدة التي استعار منها آده بيته الثاني.

قرأت الأبيات وهي تتمايل كالمجذوبة، إلى أن وصلت إلى المقطع الذي يصف فيه الشاعر الحزن في عيني معشوقته ويشبههما بعيني غزالة هاربة من صياد أصاب ولیدها بسهمه فعادت ووقفت فوق الصغير، تلعق التزيف في رقبته، وترفع عينين معتمدين حزينتين نحو الصياد. وقد أفرد الشاعر هذا المقطع الطويل وأجاد في وصف دمعة انبثقت من عين الأم وأطال حتى أثر في شعراً عصره وشعراء الأجيال التالية، وأصبحت لا غنى عنها لمن أراد من الشعراء أن يعبر عن الحزن. ولم يفت الجنية أن تذكر

الحاضرين بشرع الاستعارة في شعر الصحراء، وقالت إن الإشارة للمصدر الشعري السالف ملزمة للشاعر داخل نسخة القصيدة بحيلة لا تؤثر في الوحدة أو الإيقاع أو الوزن أو التساغم الموسيقي. وهو ما لا يقدر عليه إلا الشعراء المهووبون.

عجزت تناناد عن الاستمرار في الاستماع فهربت إلى البيت.

لم يخسر آده بعملته الحمقاء رهاناً واحداً، ولكنه خسر ثلاثة: الساق، والسمعة و... تناناد.

في الليل زاره «خميدو». تربع ونطق بأول إدانة:

- أهنت الصحراء واعتديت على الناموس.

- لم أدع يوماً أني شاعر، ولكن من حقي أن أجتهد إرضاءً لمن أريد.

- من حرقك أن تحتجد لا أن تلتفق. حتى العقلاً لن يغروا لك إهانة الأشعار.

- هل كلفوك أن تبلغني هذا؟

هز عمامته بالإيجاب. عقب:

- الشيخ أبدى استياءه.

- التقىه صباح اليوم فلم يجد لي شيئاً.

- متى كان الشيخ يبدون استياءهم وجهاً لوجه؟ ما نفع الحكمة إذا لم تحصّن حاملها من العجلة؟

سكت آده فلين خميدو في الكلام:

- أعرف أن الفتى سيعيش شقياً إذا فات عجنة التراب الصحراوي أن تزرع في لسانه الكذب، ولكن الكثيرين وجدوا في أنفسهم الشجاعة لأن يستميلوا قلوب العذارى دون أن يضطروا إلى التلتفيق في الأشعار.

صمت ثم عاد إلى القساوة:

ـ أنت مسكين. الفتاة لن تغفر لك قصيتك المزيفة!

ـ ليس تزيفاً أن أصنع قصيدة حلوة جديدة مستوحاة من مجموعة قصائد جميلة، قديمة. لو لا تدخلنكم لعرفت الطريق إلى إقناعها.

هز خميديو عمامته المهيبة بياس:

ـ ربما عرفت الطريق حقاً إلى عقلها، ولكن خبرتي تؤكد أنك فقدت الطريق إلى قلبها إلى الأبد.

قرر آده أن يقفل الحوار:

ـ لست في حاجة لخبرة أحد.

استمر قرينه يهز عمامته:

ـ ربما. ولكن اليقين أن خبرتك في الكلام الحلو لم تتجاوز عتبة الطفولة. سيمضي وقت طويل حتى تعرف أن المرأة لا تعترف، في النهاية، إلا بالرجل الذي يملأ أذنيها بالكذب.

ـ لست مضطراً أن أكذب أبداً.

ـ ها.. ها.. سوف تكذب. أقسم أنك سوف تكذب إذا كنت جاداً في أن تبني علاقة بأمرأة.

ـ هل تريدين أن تقول إن كل أولئك الذين يحظون بعشق الصبيا هم فرسان مزيفون؟

ـ بل مجرد كذابين غزوا قلوبهن البكر بالكلام الحلو. وهو سلاح أخطر من الشعر الذي نسجت به هديتك لـ «تناناد». لو كانوا فرساناً بحق لما نالوا عشق النساء!

ـ هل تريدين أن تقول إن المرأة لا تعشق الفارس؟

ـ نعم. إذا كان حقيقةً فلن تعشق المرأة أبداً.

- ولكن لماذا؟

- لو كنت أعرف لماذا لكشفت لك، بل ولنفسي، سرّ المرأة بضررية واحدة.

شُقُّ الأفق قبس القمر. قال خميديو بلهجة تتفق مع جلال البدري الوليد:
- لستُ معَمِّراً حتَّى أفهم الحياة. ولكن الفارس النبيل لا ينال من المرأة إلا الاحتقار. ربما لأنها لا تستطيع أن تملِّكه كله كما تفعل مع نقيضه الوضيع الذي لا يملك إلا لسانه. آه لو فهمت الحياة مثل المعمررين الحكماء لعرفت لماذا ينال الأوغاد هذه الحظوة لدى النساء!

ضحك ملقياً بعمامته إلى الوراء:

- ها.. ها.. المعمرُون يجمعون أننا سنعرف ذلك يوماً. سنعرف عندما لن نكون في حاجة لأن نعرف أي شيء. هذا هو ناموس القوقة التي وُجِدنا فيها وُسُمِّيت: صحراء.

قفز آده إلى رجاء آخر:

- عَلِمْنِي الكلام الحلو. أريدك أن تعلمني الكذب.

حدق فيه خميديو قبل أن يسأل:

- هل تعشق الصبايا إلى هذا الحد؟

- وماذا يعجبك في الصحراء غير الصبايا؟

- ألووه. الصحراء. وماذا تعرف يا أبله عن الصحراء؟ لو عرفت الصحراء لسلّمت نفسك إليها وتخليت عن أجمل صبايا الإنس والعجان. ما أدرك ما هي الصحراء؟

- دعني من صحرائك الحسناء وحدثني عن اللغة الحلوة التي تأسر قلوب العذارى. لا أريد من الصحراء إلا أن تتنازل لي عن تناناد. ألم يتعلّق قلبك يوماً بصبية؟

- أنت نسيت أن الكذب هو اللغة الوحيدة التي لا يستطيع أحد أن يعلمها لأحد. يعجز معلم أن يلقنها لمتلئ، لأنها مثل الشعر، موهبة من السماء.

هيمن السكون. عاد آده يسأل نفسه كما سأله مرات كثيرة قبلها: خميدي لا يكبرني إلا بسنوات قليلة فمن أين يجيء بالتدبر؟ لديه جواب لكل سؤال، ورأي في كل مشكلة. والمدهش أنه رأي ليس ككل الآراء: رأيه قاطع كرأي الشيوخ وزعماء القبائل.

اقتراح:

- إذا كنت صديقاً فاذهب إليها رسولًا.

هز خميدي عمامة نفياً:

- أخشى أنني لن أستطيع. لن تفع الوساطة.

بعد أيام ذهب إليها في المساء.

رفضت اللقاء.

خرجت جدتها وجالسته في العراء طويلاً. يئس وانسحب. لم يتأس تماماً لأنه اختلى بنفسه في المرعى وصنع خطة. بحث في أساطير الجدة عن الألفاظ، وفتش في رأسه عن محاورات الباحثين عن «واو» ولغتهم في الطلب والعشق. استعاد مفردات الحب في القصائد القديمة وسطرها جملاً وسحراً. جرب وتدرب ليقول لها «الكلام الحلو». عاد إلى النجع وتسلل إلى مخدعها في ليلة ظلماء وقرأ على رأسها الحمامات. ظل كامناً في الزاوية، يستعين بمرفقه الأيمن ليسند جسمه المنظرج بجوارها مثل كوم أسود. لحن اللفظ، وقوّم المفردات الصحراوية العاصية بالشعر الخفي، وظن أنه يستطيع، بهذه الحيلة الحمقاء، أن ينطق بالكلام العذب، الكذوب، الذي لا تعرف قلوب العذارى بغيره كما أكد خميدي.

في النهاية، بعد أن انتهى من جمله الملفقة، فوجىء بالكوم الأسود

يتحرك فظنَّ أن قلب تناناد قد رقَّ ولان ورضي بكلامه الحلو. تحسَّس يدها في الظلمة وانتظر أن تهمس بالغفران، فتلقى، بدل الغفران، ضربة بالوتد على جبينه. ضربة قوية، قاسية، جعلته ينسى المراسيم ويمسك باليد الهوجاء التي تسدّد له الضربات. يد خشنة، معروقة، ضامرة مثل الوتد نفسه. يد الجدة العجوز.

تخلَّ عن اليد وانسلَّ من الخبراء.

طاردته الجدة بالوتد طويلاً في العراء.

ذهب إلى الخلاء خلف التلال. هَجَّمَ على الحجارة. تفَقد جبينه وتحسَّن الخدمات. أنصت فسمع السكون العظيم الذي سبق الخلق.

ب - تناناد الثانية

هام مع الإبل والرعاة في مراعي الشمال. تذَكَّر خرافة تقول إن الحب إذا فشل غير حال الرجل وصنع به العجب. انتظر في نفسه المعجزة ولكن التحول لم يحدث. لم يلهمه الصدُّ بالكلام الحلو ولم يفجُّر فيه ينابيع الشعر. بل شَعَر بالخواءُ أكثر من أي يوم ونبي حتى الأشعار القديمة. أدهشه أن تعجز أساطير الجدة في إشعال عقله باللغة العذبة والتخيل الجميل مثل باقي الشبان. ولكن راعياً حكيمًا عزَّاه بتفسير قاسٍ :

- ينقسم الناس إلى فريقين. فريق ولد للشعر واللهو، وفريق ولد للعقل والله. والحكمة يا ولدي هي أن تعرف إلى أي الفريقين تنتهي. فقبل أن تدبُّ في الحياة مغمض العينين جدير بك أن تسأل نفسك: منْ أنا؟ هل أنا من فئة الشعر واللهو، أم من فئة مختاره للعقل والله؟ .

شاء القدر أن يمضي وقت طوبل قبل أن يستعيد آده هذا التحذير الغامض، لأن صوت الطيش واللهو، يوم حُدُثَ الراعي، كان أقوى من صوت الحكمة والعقل. ولأن مسيرة الحياة هي التي ستعلّمه التحذير

بالقساوة الضرورية لردع الأولاد الأشقياء. فالعمر الواحد، مهما طالت رحلته، قصير جداً إذا أراد الإنسان أن يسخره ليعرف نفسه.

استدعاه شيخ القبيلة فخاف أن يقرّعه بسبب الإساءة للشعر. وجده يتکيء على وسادة جلدية مرسومة بالقوش والتعاونيد في ظل العشية. تربيع بجوار عبد من زنوجه يلف رأسه بعمامة سوداء فأصبح من الصعب التمييز بين البشرة والقماش.

كان يخلط الشاي ويبتسم بغموض.

رسم الزعيم خطوطاً خفية على الأرض بعکازه السميك، المصفول، المصنوع من جذع سدرة. قال:

- جدتك امرأة فاضلة. فهل تدري أنها تُمثّل بقربة إلى زعيم «إينوغاس»؟

- أعرف.

- هل تعرف أن فريقاً من أشقياء تلك القبيلة أغار على مراعينا وسلب إبلنا؟

- نعم. أعرف.

- وهل تعرف ما يعنيه العدوان على الأنعام ونهب القطعان في شرع الصحراء؟

- نعم. إنه الغزو.

- وهل تدري ما يعنيه الغزو؟

تحنخ آده فأجاب عنه الزعيم:

- الغزو يعني الحرب. وال الحرب نار حطبتها الألم والدم والدموع. والقبائل إذا تحاربت لا تفقد أحسن الرجال فقط، ولا تضاعف من اليتامي والنساء الشكالى فقط ولكنها تورث العداء من جيل إلى جيل.

شطب على رموزه في التراب وواصل بنفس التأني :

- تربية العداء في الأجيال أسوأ من العدوان ومن الأضرار الناتجة عن غزوة واحدة. لأن ميراثاً كهذا يهدد القبيلتين المتعاديتين بالانقراض. هل تعرف لماذا؟

لم يعلق الفتى فتطوّع الزعيم :

- لأن صحراء واحدة تضيق بقبيلتين متعاديتين مهما بدت قارة كبرى كما يسميها تجار القوافل. والكراهية إذا بدأت فإنها قادرة على أن تحول الدنيا إلى خرم إبرة، فيسهل على جيل ورث عداء عن الأسلاف أن يختلي بجيل القبيلة الأخرى في الرقعة الضيقة حتى يبيد أحدهما الآخر. هل تفهمي؟

هزّ آدّه رأسه بالإيجاب وتناول كأس الدور الأول من الشاي. رشف الزعيم فقاعات الرغوة من كأسه وعاد يحرث الأرض بالعكاز المقصوق :

- في مثل هذا الحال فإن الإنصات لصوت العقل أفعى للطرفين. أم أنك تشك؟

- أستغفر الله.

- صوت العقل هو صوت الله.

... -

- لن يخيب منْ تعلم الإنصات لهذا الصوت. فهل تشك؟

... -

- أبلغني الأقران والعقلاء أن ذا الجلال لم يدخل عليك بالنعمة. وهبك هذا الصوت.

رفع آدّه رأسه يريد أن يعرض، أن يناقش، و.. لكن ابتسامة الشيخ الحليل جعلته يتراجع.

استمر الزعيم :

- وإذا أنعم الله على مخلوق بنعمة فما أشقاءه إذا بخل ولم يسخرها
لآخرين. هل تفهم؟

....

- لا شيء مثل رباط الدم يوطد الثقة بين القبائل. والعقل، صوت الله،
يدعونا لضبط النفس الأمارة بالسوء، السباق للشر، إذا أردنا أن نقطع العداء
من مسيرة الأجيال. وقع عليك اختياري لتكون رسولاً إلى زعيم ايفوغاس.
ابداً حوارك برباط الدم وتوقف عند الكراهية كثيراً حتى تحس أن الصوت
البعيد، المقيد بالأوهام، بدأ يستيقظ، فإذا صحا العقل فسوف ترى بنفسك
أن الشيطان الرجيم قد ابتعد. اذهب وعذ بالقطيع.

قال الفتى لنفسه وهو ينصرف: «العشق ليس أهم عمل للرجل في
الصحراء. إيقاظ الله في صدر زعيم ايفوغاس أيضاً عمل جليل».

سرج مهريه عند الفجر.قرأ تعويذة تعلمها من الجدة قبل الانطلاق. قفز
في السرج ومسند رذف الجمل بالسوط. مر أمام خباء تناند راكضاً. قبل أن
يبلغ التلال الغربية الثلاثة سمع وراء ظهره زغرودة صافية، طويلة، كنداء
من ملأك الفردوس. أحس بالوجود كما لم يحسه في أي ميعاد. لم يلتفت
أبداً.

في أطراف غدامس نصب له الزعيم قشعأً خاصاً. زاره الشباب وسلوه
بالأمسيات. عقدوا حلقة سمر عندما سطع البدر واجتمع بـ «تناد» الثانية في
ميعاد سبق الميعاد مع الزعيم.

وتناند الثانية فرعاء كجدع مقطوع من نخلة هيفاء. وهي قامة لم تدهش
آده الذي سمع الأساطير عن جمال نساء هذه القبيلة، وشهرتهن في طول
القذ وسموq القامة. كما أسرته العينان السوداوان الغامضتان اللتان تشبهان
عيني غزالة ذكية، مسكونة بأهل الخفاء. الثغر رشيق، يكشف عن صفين
دقيقين ناصعين من الأسنان كلما تبسم. ولكن العذوبة التي لم يعهدنا في
صبايا قبيلته هي التي أخذته في الحسناء الفوغراسية الفرعاء. العذوبة

المدهشة، البكر، التي يرود للشعراء أن يسموها «الجاذبية»، ويحذّر من سحرها الفقهاء ويقولون إن حواء اخذتها سلحاً لإغواء آدم فتسبيت في طرده من الجنة، وكتبت عليه الشقاء الأبدي.

وكلما سأّل نفسه ما الذي يأخذه في تناناد الفوغاسية: أهو القد الممدود؟ أم غموض العينين السوداويين؟ أم نصاعة الأسنان ودقة تصفيفها؟ تصاعفت دهشته وعجز عن التحديد. فمن أين يأتي شبابه اليافع بخبرة تخبره بأن الجاذبية هي سحر إلهي لا ينطق به عضو أنثوي بمعزل عن العضو الآخر، ولكن الآلهة أنزلته في الروح ليتّورّع ويُسرى مثل دفقة ضوء، من هذا المقام الجليل، فينعكس ضوءه في وضمة العين، أو بسمة التغر، أو امتداد القد، أو طريقة النطق، أو رمية الجدائل على الجيد، أو أي حركة تلقائية أخرى من أي عضو أنثوي؟ فهل جمال الجاذبية في التناغم والانسجام؟ نعم. الحياة ستجعل الفتى العاشق يفهم بعد سنوات طويلة، قاسية، أن جمال الجاذبية ليس كامناً في العضو المعزول بجموده، ولكن هذا الشراء.. هذا السحر الخفي.. ينطق ويأخذ، ويأسر، في تناصه وانسجامه مع باقي أعضاء الأنثى أثناء حركتها العفوية. هذا الدبيب المتعدد، هذه الحيوية المتوجّسة التي تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، هذا الإيحاء المبهم، وكأنه الشقاوة، المستعار من قياع المجهول، من الروح الجليل، هو المبدأ، الخط، الذي يقود، في النهاية، إلى الجاذبية ويصنع السلطان الذي يلوى أعنق أقوى الرجال ويقودهم بسلسلة خرافية طولها سبعون ذراعاً.

حاورها في حلقات الغناء، وسمعها تعزف على وتر السّحّرة أحان الجن وأنقام الفراديس الضّائعة. دامت اللقاءات ليالي متّوالة سطع فيها بدر الصيف. ولم يعرّف كيف استطاع العصفور أن يفلت من القفص ويقع في أسر الجاذبية المفروش في البسمة كنسبيّة العنكبوبت. استجواب وترنّح مع الإيقاع، وفي الصباح التالي ذهب إلى مجلس الشيوخ ليبلغ الرسالة ويوقظ صوت الله في قلب الزعيم الفوغاسي.

ترى في بينهم على الكليم المخطط. تابع خطوط الرزينة كي يغلب حياء

الشباب وتكلم. حاذر أن يلتفت إلى العمamات الجليلة التي جمعها شيخ القبيلة كأنه تعمَّد أن يرعب بها، وغاب في المحنينات والتقاطعات والمثلثات والمربيعات والسلالس التي خطتها أنامل تواتية عاشقة صانعةً أدغالاً مجهولة لتهديها لمعشوقها المهاجر برفقة قافلة تجار إلى تينبكتو. صنع من أدغال التواتية العاشقة حجاباً أخفاه عن عيون شددت حوله الحصار.

بدأ من المنفى الأول وتحدث طويلاً عن تعاسة الصحراوي. استعاد خرافات الجدة عن «واو» فأفرد لها مقطعاً شيئاً من خطابه. ثم قال إن الحياة في الصحراء رحلة أقصر مما يتوقع جلاله الزعيم: يقضي المخلوق شفتها الأول في العراق مع الجديان والجدب والظماء، وينتفق الشق الثاني في رحلة تجارية إلى تينبكتو أو أغاديس أو تامنغوست. وبدأ العد التنازلي قبل أن يتحقق أنيل مشروع يعتقد الفتى الصحراوي أنه لم يخلق لسواه: العشق!

يجدب في حفلات الميعاد ويحطم رأسه على الحجارة كي يتوج المعشوقة بالشعر، وقد يطير الرجد عقله فيقرر أن يلتحق بالغزو ليأتي لها بالسبايا؛ وعندما يفتق يكتشف أن الحياة تحالفت مع الصحراء، وقامتا معاً بتدبير المكيدة الخالدة. يجد نفسه يتوكأ على عكاز السدر، أو يستعين بعصا الطلح. يجلس في ظل العشبة كل يوم، يحتسي الشاي الأخضر و.. يتسلل بالإصغاء للسكون. نعم. الإنصات لللغة الله في السكون العظيم هو كل ما كسبه من الرحلة الخاطفة التي لا يدرى الآن، في غيبة الشيخوخة، عما إذا كانت حقيقة أم وهم؟ فهل يظن العقلاء أن تسميم هذا الحلم الصحراوي القصير بالنزاع والعنف والصراع القبلي عمل العقل أم جنون آخر؟.

بعدها حدثت المعجزة التي لم يصدقها آده إلا بعد مرور زمن طويل. وربما صدقها، فقط، لأنها ترددت في القبيلة، بل وتناقلتها قبائل الصحراء كلها، وضررت بها المثال لعقرية العقل وغباء الحمق.

قفز الزعيم الجليل من عرشه في القش وطوقه بيديه النحيلتين.

عائقه وسط وجوم الشيوخ. دام العناق طويلاً، وعندما حرر الشيخ عنقه وجد آده نفسه يرتجف، والعرق يتدفق تحت لباسه الاحتفالي المنفوش.

هيمن الصمت . . .

في الخباء المجاور زغردت امرأة بالبشرة التي جرحت السكون في القشع فتاطح الشيوخ بالعمامات وتبادلوا الهمميات والتعليقات. وعرف آده أن ما أثارهم ليس قفزة زعيمهم ولا الإعجاب بابن الأغراب، الذي عبر عنه بالعنق الحار، ولكن التخلّي المفاجيء عن الوقار القديم وإلغاء الاستعلاء التقليدي الذي يتحلّى به الكبار نحو الفتى ليصل حد الاحتفار، هو ما صنع إعجازاً استحق زغاريد النساء وخروج الشيوخ من حرم الصمت.

أجلسه الزعيم إلى جواره وظلّ يمسك بيده. عاد الصمت يسود بين الرجال. أخيراً تكلّم الشيخ :

- لا يضير الحكيم أن يعترف بالحق حتى لو كان كبير القبيلة. عندما جئتنا مُرسلاً من زعيمكم وسوس في صدرى الذي يوسموس في صدور الناس: هل بلغ الكبار بيه شيخ منغستان حدّاً ينسنه عرف الأسلاف فيبعث بالفتى اليافع ليتوسّط في نزاع القبيلتين؟ ودعاني الوسموس أيضاً أن أقرأ الإشارة الخفية التي أراد الزعيم أن يومئ إليها بهذا الاستفزاز فقال لي بالحرف الواضح: «إنه يريد الحرب. إذا حجب كبير القبيلة العقلاء ومنعهم من القيام بدور الوسيط فاحذر وتحقق من نواياه، لأنه يدعى طلب السلم في الظاهر في حين يعده للحرب في الخفاء».

وقد صدّقت الوسموس الخبيث فتركتك شهراً في القشع. بعثت سرّاً برجالي للتأكد من صدق نوايا زعيمكم ومعرفة عما إذا كان لا يستخف بي لكسب الوقت في حين يعده للحرب. وأدهشني أن يعود رجالي بما يفيد أن ظني لم يكن سوى إثم. ولكن ماذا تظن يا ولدي: هل كان البرهان كافياً كي يقنع الوسموس و يجعله يتراجع ويكتف عن الوسوسة في صدرى؟ أعلم أن هذا الداهية إذا عرف الطريق إلى قلب الإنسان مرة فإنه يتثبت به

كما يثبت القراد بجلد الجمل. أعرف الآن أمام الجميع بأنه هو الذي اقترح أن أدعو الشيخ للاجتماع كي يقرأوا معي نوايا قبيلتكم في لهجتكم وحركتكم وعينيك. همس الملعون في أذني بالقول: «إذا أردت أن تقرأ نوايا الأدب فخذها باستدراج الآبن». وهي استعارة معدّلة من «أنهي»؛ حيث ورد في الكتاب الصالح أن العجوز يستطيع أن يرى وهو هاجع ما لا يستطيع أن يراه الفتى وهو واقف على رابية. وعندما تكلمت عن آلامنا في الصحراء أحذيت في صدري الصوت الآخر فاستيقظ الضمير وتكلم العقل، وعرفت لماذا اختارك الزعيم رسولًا للوفاق وحقن التزيف. غداً سأعيد الإبل إلى نجوعكم وسائلم المكابر «بابا» كيف يقلع عن عادته الحمقاء في الاستيلاء على قطuan القبائل في المراعي لأنها عادة تصنع الفتى وتهدد الدم والحياة التي وصفتها في خطابك بأنها تبدو، في صحرائنا الواسعة، خاطفة كالورم، أو فلنفلق، كالبرق. غداً ستأخذ الإبل، وستأخذ معها «بابا» مقيداً بحبال المسد لتسليمها إلى شيخكم. وأخبره بأننا نبارك سلفاً الجزاء الذي سيزيله بولدننا الطاش. قل له أيضاً إني كنت أود أن أقوم بنفسي برد القطبيع ولكن ما معنني للقيام بهذا الواجب ليس هموم القبيلة أو مشاغل الدنيا وإنما هو شيء أقوى، وسوف يجد لي العذر عندما يعلم أنه: العجز. فقد مضت سنوات طويلة عندما التقينا آخر مرة في «تامنفست»، وبرغم أنني أتخيل ذلك كأنه حدث البارحة فقط إلا أن مكيدة الصحراء، التي تحدثت عنها منذ قليل، قضت لي بضعف البصر وألام المفاصل ووضعت في يدي قوس السدر ليساعدني في تقويم قوس الظهر. ولا تنس أن تبلغه بأننا فخورون بانتساب فتى مثلك إلى قبيلتنا، وعندما نشجع التزاوج بين قبائل الصحراء فإننا نتبع طريقاً رسمه الأسلاف ووجدناه مسجلاً في «أنهي». وأنا على يقين أنه لو احتملت كل القبائل إلى سلطان العقل كما فعل زعيمكم لما نزفت قطرة دم واحدة في طول الدنيا الصحراوية.

لم يكن صعباً على الفتى آده أن يلحظ في وجوم الشيخ الشعور بالحياة الذي بعثه فيهم معاملة الرعيم له كنداً. وهو إحساس لم يكونوا ليغفروه

لأنفسهم لولا ثقتهم الروحية العميماء في حكمه الشيخ ويقينهم المبهم
بتزكيه عن الخطأ.

عاد إلى القشاع وتربّع في المدخل. راقب الخلاء بسكون منْ يؤدي
شعائر المجدوبيين. في المساء زاره الأقران للتهنئة، وتقرّب منه الكثيرون
وابتدعوا أواصر الدّم التي زعموا أنها تربط جدّاتهم بجده. جاءته الصبايا
أيضاً ليغزّننّ أو يجاهنّ الصحراوية بالقوس المشدود على الوتر الوحيد دوماً،
الحرّين دوماً. جاءت معهن تناناد وحدّثه عن رقصتها في الليلة الأخيرة.

قالت :

- وجدت نفسي في قلب العجاجة. هل تعرف العجاجة السوداء،
الدوارة، التي تقول العجائز إنها تحطف الأولاد المعاندين؟ ماذا تسمونها
في قبيلتكم؟ نحن نسميهما «مطيبة الجن». أخذتني فأحسست أن جسمي
قشة تبن. طرت في الفضاء كذرة وشعرت أن بدني خفيف مثل الشّعرة. هل
هذا ما يسميه الدراويش بنشوة الوجود؟

ثم عرّجت على الشعر فاضطر أن يقاطعها:

- أنا لا أقول الشعر. أنا لا أحسن الكلام الحلو. أنا.. شقي.
سكتت لحظة. رمّقته في ضياء القمر. تمنت وهي تنكس رأسها:
- أنت تحسن ما هو أعدب من الشعر وما هو أجمل من الكلام الحلو.
لولا عقلك لوقع الالتحام، ولن trifف الدّم..

- هل تظنين ذلك حقّاً؟ لم أظن أنه يوجد في الصحراء شيء يمكن أن
يُفوق عذوبة الشعر والكلام الحلو في أذن المرأة.

وذهبته ثقة لم ينلها من امرأة. وقرأ في لغتها، وفي عينيها، وعداً لم تقطعه
له امرأة. أبرم معها ميثاقاً صامتاً، وتعاهداً، باللغة السماوية أيضاً، أن
يخوضا في تفاصيل لقائهما الأبدي عندما يعود من مهمته. و.. اكتشف
عندما عاد، بعد غيبة شهور، أنها تزوجت مطلقاً من قبيلة «اوراغن» قيل إنه
أثري فجأة بعد أن اكتشف كنزًا من الذهب باعه في غدامس لتجار اليهود،
فطلق زوجته الأولى، ليدخل على.. الحسناء، تناناد الفوغاسية.

جـ - تناناد الثالثة :

في ذلك العام هطلت أمطار مبكرة شمال الحمادة.
عاد فرسان الاستطلاع من المرتفعات وأقسموا أنهم ذاقوا ثمار الترvas
بأنواعه الثلاثة .

سافر آده مع خميدو، يصاحبهما عدد من الرعاء، لتجمیع الإبل
والخروج بها إلى صحراء الشمال. بدأ الربع قبل نهاية الشتاء. نما النبات
واخضر الفصیص^(*) مبكراً. في بعض المساحات المستديرة، التي انحبست
فيها المياه كجداول، تشققت الأرض وأواماً قلأع الطین^(**) بميلاد الترvas .
في الشعب المنحدرة من المرتفعات نبت الأعشاب المغذية كالحمیضة
الحمراء و«أکرفال». في السهول ارتفعت «ناناكفایت» والشیح وبعض الزهور
البرية المبكرة. أما الوديان فاحت بأربع الرَّتَم مبكراً أيضاً. تناولت الطيور
في كل الصحراء وعادت الأنواع التي هاجرت إلى الجنوب. في اليوم الأول
لوصولهم إلى الفردوس رأى آده ثلاثة غرانيق. تسکع اثنان منها عبر العراء
المکسو بالعشب. كان سعیهما جلیلاً وهم يتنقلان بسیقانهما الطولیة ،
الریفیعة، الممشوقة، بحثاً عن الدود والغراد^(***). أما الثالث فاعتلى قمة شجرة
میة وراقت قوس الأفق حيث تدفق سراب لعوب. راقبهم آده خفیة عن
رفیقه الذي انشغل مع الرعاء في اعتراض جمل هائج وإعادته إلى القطیع
في بطن الوادي .

في الليالي ، حول موائد النيران، حامت الذئاب وعوَّت بيکائيات تبدو
كالنواح، ولكن الرعاء الحکماء قالوا إنها تحفي الفرح، وتتوقع موسمأً بهیجاً
غینیاً بالضحايا. أما الزواحف الحکیمة، وخاصة الحیات، فاستمرت تعتصم
بجحورها، لأن النجوم حذرتها أن تصدق المزاج المتقلب لمناخ هذا العام ،
فأثرت الاختباء حتى تلتقي الإشارة السماوية الأخيرة بخروج الشتاء وحلول
الدفء والریبع .

(*) الفصیص: شجیرة مثل العتبة ينبت الكما في أصلها.

(**) القلأع: قشر الأرض الذال على الكما.

(***) الغراد: صغار الكما .

هذا موسم الفردوس: نعيم آده. واحته الصائعة. واهه المفقودة. كنزة الأبدى. هذه هي الحمادة في مواسم الأمطار. المساحة البكر. الأرض الأولى التي خصها ذو الجلال لحلوله فيها منذ زمن لا يعرف حتى الأسلاف الأوائل متى بدأ. ولكن آده يؤمن، بل يحس بالحُدُس، أن جلالته حل في المساحة المدهشة، المرفوعة نحو السماء بقرون جبل نقوسة من الشمال، المشيّعة، من جهة الجنوب، بالجبال الأخرى الملفوفة بالعمامات الزرقاء. بسطها وفضّلها من الكائنات ولم يترك سوى الشجر والحجر والنبات. ثم رق قلبه واستجاب للتسلّات فسمح لأول حيوان بالدخول في الحرث. كان غزالاً بريئاً تعنى الفصيص بجماله واستمدّ الرّتم من دمه المعطر بالمسك أريجاً لزهوره. شمه الإنس الرجيم فصعد إلى الحمادة السماوية من صحاري الجنوب. طارد الحيوان الرشيق ليصطاده في الأرض الحرام. سفك دمه فمسخ ذو الجلال المعتمدي فتحول ذلك الإنسان الذي دخل جنته لأول مرة إلى مخلوق عجيب: نصفه السفلي غزال، ورأسه رأس إنسان. ولكن ذلك لم يهدىء من سُورة الغضب التي أثارها عدوان الإنسان في نفس الخالق. فلعنه وهجر البقعة المصطفاة ولم يترك وراءه سوى أنفاسه الجليلة تتردد في سكون الحمادة الأبدى.

ويتّناقل الصحراويون رواية تقول إن الأسلاف الأوائل رأوا جذّهم الأثم برأس إنسان وجسم غزال وتعلّمُوا عليه من خلال أحججته وتمائمه الجلدية التي بقيت معلقة في رقبته وتتدلى حتى تلامس الأرض.

كلما نالت الحمادة أمطاراً في الخريف، وأخرى في الشتاء، يكرّ الربيع بالحضور وأحسّ آده، في هذه البقعة الإلهية، أنه قريب من باب السماء و... . يستطيع أن يقول ما عجز أن يقوله دائمًا: الشعر!

الشعر هاجسه، حاجته منذ الولادة، وغايته إلى يوم الممات. ولكنه، كأي صحراوي بائس، يحسّه ولا يقدر أن يصوغه برموز اللغة. يدركه ويعجز أن يصنعه في الكلمات. غصّة تختنق بها الروح، وتأمّل أن تترحّز مثل عظمة شرسة تتوقف في الحلق وتسد الأنفاس. وهو يحس أن حاجته

إلى الشعر ليست وليدة رغبته في التباهي به على طريقة الأقران، أو امتناعه كالسلاح لخطف قلوب العذارى. ولكنه يريد الشعر كي يغزو به العراء ويعرف ما تخفيه الصحراء. يبحث به عن الله وعن واحته المفقودة «واو». فكان على يقين دائمًا أن هذه الرموز الغامضة التي لا يوح بها إلا الشعر سوف تكشف له الحجاب ليرى سر المطر الذي يحول الأرض القاسية، العارية، الطينية، المفروشة ببساط من الحصى أو الحجارة، إلى جنة حضراء في أيام. يريد أن يتغنى بجمال الغزال، ومعجزة الكما، وفردوس السكون فلا يسعه النطق ويتأئى الشعر أن يأتي. تخنقه الغصة فيختنق ويبكي ويتلوي على الحجارة الحزاء حتى ينزف جسمه بالدم ويتجرد من عمامته فيكتشف أنه يسير حاسر الرأس. ولو لا حرصه أن يستسلم للألم في الخلوة لظنه الناس دروشاً أو أحد المعتوهين البهاء. إنه في موقف الخصيان الذين ظنوا أنهم تخلصوا من الشهوة ولكنهم وجدوا أن الشهوة تحرق أجسادهم بساط الرغبة ولا تجد لها متنفساً لأنهم فقدوا الأداة. نعم. الشعر هو الأداة التي ستكتشف له الستار ليجد المتنفس للإحساس.

سكتت الذئاب الضاحكة عن النواح فراقت النجوم. عنقיד النجوم أيضاً أنصت دون أن توقف عن مشاهدة الصحراء العظمى. لم تنس مهمتها الأبديّة في إنقاذ الضائعينظاميين وتقديم الآثار هدية لمن يستحق. قال آده.

- لا تسيء بي الظن. لا أريد أن أقول الشعر كي أنفُوز بالصبايا. أريد الشعر لحاجة بعيدة في نفسي.

علق خميدو ببرود:

- أصدقك.

- لا أرى أن باستطاعة أي قوة أن تمرق الحجاب الذي يلف الصحراء غير الشعر.

- أصدقك. حاولت مثلك وفشلت.

- حقاً؟ هل تحس أنك ولدت شاعراً ثم كتم الشيطان فمك؟ .
- أنا لا أحس أن شيطاناً كتم فمي . لا يكتم الفم إلا الله .
- الله لا يمكن أن يكتم فم من أراد أن يعرفه .
- ما يدركك؟ كتم فمك عن قول الشعر، وأعطيك شيئاً آخر أهم من الشعر: العقل .
- من قال إن العقل أهم من الشعر. أنا أختلف فلا ينقدني العقل .
- العقلاه قالوا . وأنت لم تبلغ حكمتهم لأن شيطان الصبا ما زال يجري في دمك . ها . ها .
- العقل صخرة والشعر فراشة، عصفور يخرق الفضاء . العقل يدب على الأرض ولا يرى أبعد من أنفه، أما الشعر فيحلق بعيداً في الفضاء .
- ومن قال لك أن الله يريدك أن تحلق بعيداً. لو أراد ذلك لخلقك طيراً .
- ولكنني أحس أنني لن أعرف شيئاً إذا لم أحلق بعيداً .
- هذا هو الوسوس .

هيمن السكون . تصنّتا للاستماع بأنفاس ذي الجلال . أنصت النجوم أيضاً . كانا يستلقيان على ظهريهما فوق الرابية . في الوادي السفلي انتشرت أشباح الإبل . بعضها برئ وانهمك يجتر، وفريق آخر سعى بين الأشجار وواصل التزود بالغذاء لتخزينه لزمن المحنّة، كأنه أدرك سرّ الصحراء التي تخفي الجفاف وتتوعد بالقحط إذا جادت بربيع وفيراً قبل الأوان .

قال آده :

- لا أعرف كيف يولد الفتى صحراوياً ولا يبحث عن سرّ الصحراء . تبدو مكشوفة، عارية، حاسرة الرأس والبدن، ولكنها تخفي دنيا لا تخفيها الأدغال أو المدن . وأنا لا أظن أن شيئاً يمكن أن يذيب حجابها المصنوع

من الصخر أو الحديد غير الشعر. فماذا تظن؟

- السر يكمن في أنها سر. وما تتحدث عنه طبيعة كل سر.

- إنها كالسراب.

- لون الماء من لون الإناء. من أين جاء السراب؟ إنه ظلّها، لعبتها. ابتها الشرعي.

- أراهن أنك حاولت أيضاً أن تقول الشعر؟

- ها.. ها.. ومن مَنْ لم يحاول أن يفعل؟ كل صحراوي يولد من بطن أمّه ظامناً للشعر. ولكن المصير تقرره الأرض. الصحراء. تهُبُّ الشعر للبعض، وتهُبُّ العقل للفئة الأخرى.

- تهُبُّ الشعر للمكابرين كي يقتنصوا به قلوب الصبايا، وتترك مَنْ ي يريد أن يكشف سرها للشقاء.

- تتركك لهذا السبب. لأنها تعرف أنك لا ت يريد أن تلهو به مثل باقي البلياء، لأنها تعرف نواياك. مَنْ قال لك أنها تريد أن تعرف سرها؟.

سكت آده طويلاً. راقب النجوم حتى سمع أنفاس خميدو تنتظم. ظنَّ أنه نعس. انتصف الليل. سأله آده:

- هل نمت؟.

تمتم خميدو بصوت مَنْ يحمل:
- لا.

- الحق أني أردت أن أُحدِّثُك عن شيء آخر. لم أشأ أن أتحدث عن الشعر.

- أعرف أنك كنت ت يريد أن تتحدث عن شيء آخر.

- أنت تعرف كل شيء...

- - - - -
- هل تذكر ما قلته لي عن عبادة المرأة للكذب؟ .
- - - - -
- لقد عرفت سرًا آخر. إنها لا تحتاج من الرجل إلى الكذب وحده وإنما إلى الذهب أيضًا.
- وما هو الذهب إن لم يكن أكبر كذبة في تاريخ الصحراء؟ يلمع كالسراب ولا يجلب سوى النحس.
- تاناد تنازلت عنِي مقابل حفنة من تراب التبر. هل تصدق؟
- ولماذا عليَّ ألا أصدق؟ وضع الشيطان التبر في يد الرجال كي يخطفوا به قلوب النساء. الذهب، مثل الكذب، ابتدع خصيصاً كي يشبع شهوتهن. رفع رأسه مسندًا ظهره على مرفقه، تفَقد الفراغ الليلي المرصع بعناديد النجوم ثم عاد واستلقى وتابع :
- لا أستئني في هذا حتى نساء قبيلتنا. يتزَّين بالمعدن المقطوع من وجه القمر في حين أودعن قلوبهن في المعدن الآخر. معدن الكذب والسراب والغواية. لا تصدق أنهن سلمن في التبر لمجرد أن عهداً قطعه الأسلاف قضى بتحريم التعامل به بين الأحفاد. أنا لن أصدق..
- ما يحيرني أنك تعرف كل شيء، حتى ما يدور في النفوس. ولكن تخميدو مضى يقرأ الرؤيا في النجوم :
- ولولا خوفهن من أشباح الأسلاف (الخوف من أرواح الأموات وليس من الجن ولا من زعيم القبيلة) لقمن بمقايضة أولادهن مقابل الحصول على قطعة واحدة من معدن السراب.
- يا حفيظاً..
- ... برغم التحريم أعرف نساء كثيرات في قبيلتنا قمن بجهد مشبوه للحصول عليه سرًا.

تذكّر آدَه جَدَتَهُ التَّيْ دَفَعَتْ حَيَاتَهَا ثُمَّاً لَخْطَأُ الْخَلْطَ بَيْنَ لَوْنَ الْذَّهَبِ
وَحَلْقَةِ النَّحَاسِ. تَابَعَ نَجْمًا هُوَ غَرْبًا فَقَرَأَ تَعْوِيذَةً قَدِيمَةً.

تَمَتْ كَأَنَّهُ يَذِيعَ سَرًّا عَزِيزًا:

- سَمِعْتُ جَدَتِي تَقُولُ، نَقْلًا عَنْ آنَهِيِّ، أَنَّ الْمَجْوِسِيَّ لَيْسَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ
فِي الْحَجَرِ وَلَكِنْ مِنْ أَشْرَكَ فِي حَبَّهِ الْذَّهَبِ.

- آنَهِيَ كَشَفَ كُلَّ شَيْءٍ، وَقَدْ ضَعَنَا يَوْمَ ضَاعَ.

- مَا زَلْنَا نَسْتَيِّرُ بِمَا بَقِيَّ مِنْهُ فِي صِدْرَ الْمَعْمَرِيْنِ.

بَثُّ خَمِيدُو شَكْوَاهُ لِلنَّجُومِ:

- لَوْلَمْ يَضْعَ لَهُدَانَا إِلَى النَّعِيمِ مُثْلِ أَسْلَافِنَا الْقَدَمَاءِ. وَلَكِنْ يُقَالُ إِنَّ
عَدَوَتَهُ لِمَعْدَنِ إِبْلِيسِ كَانَتْ لَعْنَةً عَلَيْهِ. اشْتَبَهَ عَلَى الْدَّهْمَاءِ وَظَنَّهُ «كِتَابُ
الْكَنُوزِ». تَخَاطَفُوهُ فَمَرَّقُوهُ كَمَا تُمَرَّقُ الْوَحْشُونَ الْجَائِعَةُ ضَحْيَةً طَائِشَةً. قِيلَ
إِنَّ النَّهَمَ بَلْغَ بِعِصْمَهُ حَدَّاً ابْتَلَعَ فِي الصَّفَحَاتِ الْمُخْتَفَفَةِ ظَنَّاً مِنْهُ أَنَّهُ
يُسْتَطِيعُ أَنْ يَتَقَيَّأَهَا عَنْدَمَا يَخْتَلِي بِنَفْسِهِ لِيَنَالْ بِهَا حَصْتَهُ مِنْ كَنُوزِ الْصَّحَرَاءِ.
الْذَّهَبُ أَعْمَاهُمْ فَقَضَى جَشِعَهُمْ عَلَى كِتَابِ الْصَّرَاطِ.

- وَلَكُنِي سَمِعْتُ رَوَايَةً تَقُولُ إِنَّ سِيَّلًا مَارِدًا قَدْ غَدَرَ بِهِ وَجْرَفَهُ.

- لَا تَسْمَعُ الْمُبَرَّاتِ. هَذِهِ رَوَايَاتٌ يَرْدَدُهَا أَحْفَادُ مِنْ فِي نَفْوَسِهِمْ حَنِينٌ
إِلَى الْمَعْدَنِ الْمَشْئُومِ.

- هَلْ تَرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ سَبْبَ شَقَاءِ الصَّحَراوِيِّ إِلَى ضِيَاعِ الْكِتَابِ وَحْدَهُ؟

- الْحَقُّ أَنَّهُ السَّبْبُ الثَّانِيِّ. السَّبْبُ الْأَوَّلُ يَرْجِعُ إِلَى لَقْمَةِ الْحَرَامِ التَّيْ
أَجْبَرَتِ السُّلْطَانَ أَنْ يَطْرُدَ جَدَنَا الْقَدِيمَ مِنْ «وَاوِّ». كَمَا تَرَى إِنَّ الشَّقَاءَ عَائِدٌ
إِلَى سَبَبَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ وَلَكِنَّهُمَا يَتَوَحَّدَانِ فِي الضِّيَاعِ: ضِيَاعُنَا مِنْ «وَاوِّ»،
وَضِيَاعُ كِتَابِ الْهَدَىيَةِ مِنْ أَيْدِينَا. وَالْتَّيْسِيرَةُ تَنْتَهِيَ فِي اِتِّجَاهِيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ تَشَبَّهُ
انْقِطَاعُ حَبْلِ يَانِسَانِ يَهْبِطُ فِي هَاوِيَةٍ بِلَا قَاعٍ: ضَعَنَا فِي الْمَاضِيِّ، وَأَضَعَنَا

المستقبل. كالمسافر الصحراوي تماماً الذي أضاع الصراط ووجد نفسه في المتألهة الخالدة. تستوي السماء والأرض وتلتقيان في الأفق، وليس هناك أي إشارة إلى بداية أو إلى نهاية. هذا حالنا. نحن مسافرون، كلنا مسافرون، أضمننا الطريق إلى الواحة التي جتنا منها، وفقدنا، بسبب حممنا وجشتنا، الطريق إلى الواحة التي نسعى إليها. هذا قدر الصحراوي.

هوى نجم آخر. ولكن آده انشغل بمتابعة المتألهة القاسية التي رسمها خميدو فنسى أن يقرأ التعويذة القديمة. تتمم كالطفل:

- هذا ما كنت أريد أن أصل إليه بالشعر. السبيل الذي لا يبدأ ولا ينتهي. وضع المخلوق الذي يتشبث بحبل مقطوع، يهوي في ظلمة بئر بلا قاع. ماذا يمكن أن يحس هذا الإنسان غير الضياع؟ عيشاً تهوي النجوم لتدلنا على الطريق، أو لتحفر لنا بئراً، لأن ذلك لا يكفي لينقذنا من الضياع الخالد. ما أقسى ألا تعرف، يا خميدو، من أين جئت وإلى أين تذهب؟! هل تظن بالله أن الشعر سوف يعجز عن كسر هذا الباب البشع؟.

- لا أظن أنه يستطيع أن يفعل شيئاً. فليس كل الفتى الذين يقولون الشعر عابثين أو مستهترین بحيث يسخرونه لغزل البنات وتحطم قلوب العذراوات، ولكنني سمعت أن الكثريين حاولوا أن يصنعوا منه بلطة أقبح لكسر الباب البشع، فماذا كانت النتيجة؟ أحدهم شق نفسه في نخلة، وأخر كلف عبده فخنقه، وثالث جنّ وتأه في الخلاء مكسوف الرأس وقد ترك لعابه يتذلّى من شفتيه، وزمالته من رقبته. نصيحتي أن تترك هذا الباب موصداً ولا تقترب منه أبداً لا بالشعر ولا بأي حماقة أخرى.

أنصتا للصمت والصحراء فأنصنت لهما الصمت وانضمت إلى الصحراء.
علّق آده:

- تفعل ذلك مع الزهاد وحدهم لأنهم يعرفون كيف يتحلون بالتأني والصبر، أما الطمّاع فإبها تعده بكل شيء ولا ينال في النهاية شيئاً. يا ربي كم تكره الصحراء كل إنسى طمّاع اندلق السراب تحت قدميه وتغمز له

بالعين اللعوب وتقول: تقدم إذا أردت أن ترتوي من الظماء! ترسم له في الأفق نهاية المطاف وتغمز بعينها وتقول: تقدم إذا أردت أن تبلغ الواحة قبل حلول المغيب! تنشر الغبار في الفضاء وتخرقه بسهام من شعاع مسحور وتغمز بعين الدهاء وتقول للطماع: تقدم إذا أردت أن تناول التبر! ها.. ها... يتقدم ليرتوي فيبتعد السراب. يجري ليبلغ الواحة قبل حلول المغيب فيركض الأفق إلى مala نهاية. يقفز في الهواء ليحصل على التبر فيمسك بالهواء الفارغ وذرات الرمل! .

أكمل آده كأنه يرتل نشيداً من آنهي المفقود:

- . . . وتحنو على زاهد لا يغى من الدنيا إلا العبور. إذا نال شيئاً باليد اليمنى أعطاه باليسرى. إذا بلغ واحة عبرها إلى الناحية الأخرى. إذا وجد شيئاً أكتفى بالارتواء ولم يتزود منه حتى بقربة ماء. يقود جملأً ضامراً من رسن ويمشي متراجلاً وقد نسي أن يتخذه مطية. ولكن العابر ينهار أمام كنز آخر تحسهده فيه الملائكة. فإذا نزل وادياً أزهر فيه الرّتم آناخ جمله وركع أمام شجرة الفردوس. يراقب البرعم الصغير، مثل حبة قمح، الناصع مثل الفقع و.. يبكي.. يبكي لأنه أحس بالوجود ووجد الجنة. يرحل ويعتلي الحمادة ليجد كنزاً آخر: تراسة كامنة، خفية، وقد شقت الأرض الطينية بقلاعها. فإذا كانت جبأة فإن رائحتها وحدها تعده خلف الأسوار، في النقطة التي ابتدأ بها الماضي، في أصل الصراط الأول، وتقوده إلى الأمام، عبر سحب الغيب، ليرى، في ومضة أقصر من ومض برق، نهاية المطاف في المجهول. ولأن الكشف كله لا يدوم سوى لحظة كالوهم فلا بد أن يفيض الحنين في قلب العابر. يسقط على الأرض ويتلوى طويلاً. يبكي طويلاً، ولكن إيماءة البراءة، إشارة البكارة، ومض الحقيقة، يفلت كالضياء، كالروح عندما تحرر من البدن، لتطير، في رحلة العودة إلى الأصل. فهل تشك، يا خمیدو، أن العابر يمكن أن يطلب شيئاً أكثر من تلك اللحظة السماوية؟

لم يجب خميدو. انتظمت أنفاسه مرة أخرى. ولكن آده لم يكرر السؤال.

مضت سنوات أخرى، فوجد آده نفسه يمثل في حضرة الزعيم من جديد، ليجد له قرابة بزعيم «اوراغن» هذه المرة. إذ تقاتل حماة القوافل من القبيلتين، وتبازر اثنان منها بالسيوف وأصيبا بجراح. توترت العلاقة بين القبيلتين وجاء دور صوت الله في صدور الزعماء والعقلاء. حالفه الحظ أن يوقف التزيف مرات كثيرة، ووفقاً لله في نهاية المطاف فاز بفتاة رضيت به زوجاً دون أن يدفع قصائد الشعر مهراً لها. تخلى عن سذاجة الفتى ودرَّب نفسه، بالطبع، فلَفَقَ في أذنيها ما هو أفعع من قصائد الشعر الحمقاء. قال لها أشياء كثيرة، خيالية، منها، على سبيل المثال، أنه سيغزو الأدغال ويقتل الكهنة والمجوس ليعود لها بقالة من السبايا والعيبد ليقوموا على خدمتها، وسيسافر إلى «تينبكتو» ويشتري لها شوالاً من المصوغات الذهبية والفضية. بإمكانها أن تلبس حلٍّ الفضة لتباهى أمام الصبايا، أما الذهب فسوف تخفيه في صندوقها الخشبي المخبأ في الهدوج، عند زاوية الخباء، لتفاخر به أمام الجنينات في الليالي الظلماء. والنوق.. سطَّر أساطير عن النوق مستعيراً أسلوب جدته، ومنافساً للشاعر في نظم قصائد الشعر.

ادعى أن جدَّه أورثه وادياً في تاسيلي يجري فيه الماء بلا توقف، وهناك، على صفتِي هذا الوادي العجيب ترعنِي مائة ناقة يشرف عليها ستة وخمسون عبداً، ولم يُعرف بنفسه لماذا اختار هذا الرقم الميت الحالي من السحر. قال خرافات كثيرة، و... اكتشف لدهشته الشديدة، أن الفتاة كانت قد صدقَت كل حرف نطق به، فهامت، طارت في السموات، وهوت في العشق. وجد نفسه يكذب، ووجد أن جبال الكذب تلتف حول رقبة الصبية لتصر عها أرضاً.

تزوج وجاء الضجر بعد زمن قصير. افترسه الخواه القاتل الذي ذاق موارنه كلَّ منْ بحث عن الأشياء الحقيقة في الصحراء: «واو، آنهي، و...».

الله». الخواء الفطيع الذي ينجم عن معاشرة المرأة بالذات.

ويرغم ما يقوله المعمرون دائمًا من وجوب تثبيت الشباب بتلك الأشياء التي ستنهبها منهم الشيخوخة يوماً، ويرغم يقينه بأنهم يسوسون عن تجاهبهم، إلا أنه أدرك أن الرجل الحقيقي لا بد أن يفرغ، يوماً، من النساء. من أسطورة النساء. وإذا لم يفعل طائعاً اليوم، فإن الشيخوخة، الوحش القادم، سوف تجبره أن يسلم أسلحته. وأن يسلم أسلحته طائعاً الآن، أهون من أن يسلّمها، مجبوراً، في الغد البائس.

ثم إنَّ عقيدة خفية بدأت تتكون في خلال تلك الأيام. عقيدة سماها فيما بعد بـ«التخلّي» و«العبور»، فاستوحي منها أن التخلّي عن الأشياء الحميمة، كالمرأة، في الصبا أحكم وأخف وقعاً من فقدانها، غصباً، بالطبيعة، بغول الشيخوخة. هيأ نفسه لل المصير وقرر أن يبدأ في قطع الجبل الذي يمنعه من التخلّي والعبور. دخل عليها ونفي لها كل الأكاذيب التي لفّقها. انتظر أن تثور وتبكي وتلعن، ولكنه فوجيء بأنها تعرف الكذبة من أساسها.

قالت ساخرة:

- هل ظنتت أنني طفلة؟ إننا أول ما نتعلم من أمهاتنا أن نصدق كذب الرجال. لأن الرجل بلا كذب كييس مسلوق بلا ملح. إننا نحاكي الحياة، وهي كذبة أكبر من أكاذيب كل رجال الصحراء.

غمره عرق الحياة. تسلل من الخبراء ولم يرها، بعد ذلك، أبداً. تخلّى عن المرأة لأنه خاف أن يأخذها منه غول الشيخوخة بالقوّة.

(٥)

.. فهل يستطيع رجل صحراوي تجريد طائعاً من حمى الشهوة في تلك السن المبكرة، ودرّبه جلالة الزعيم نفسه على إيقاظ الضمائر في صدور شيوخ القبائل المتخاصمة، أن ينجو من منصب الرعامة بهذه السهولة؟

عندما توفي الزعيم القديم عن عمر تجاوز المائة بسنوات (البعض حده بسبع سنوات بعد المائة، في حين اتهم بعض العقلاة هذا الفريق بالتساهل في الرقم الحقيقي بسبب الولع بالأرقام السحرية ونفوا، وهو يصررون كفأً بکف، أن يستطيع أحد ممن هم على قيد الحياة أن يعطي الرقم الصحيح لأن الزعيم المتوفى تجاوز المائة والسبعين بعشرات السنين) كان آده يسرح في الحمادة، معتزلًا لا يخالط سوى الإبل والجن ودواه البرية. يصوم عن الطعام أسبوع ليفتر على الأعشاب الصحراوية وثمار الشجر البري. يسكت عن الكلام شهوراً ولا يفتح فمه للنطق إلا إشارة لنهر جمل هائج. أثار النزاع وأراد أن يفتک بأقرانه الضعفاء غيره على الناقة الهيفاء. أما قراءة التعاوين والآيات فلم تدخل يوماً في حساب الكلام. جاء دوره فأصيب بحمى الحنين إلى «واو».

استعاد أساطير الجدة حول الواحة المفقودة. راقب الأشباح وأنصت لهممات عنة الجن في كهوف الجبال المعمرة بالأقنعة الزرقاء. تذكر أيضاً المطاردة المحمومة وراء قطعة النحاس ونهاية الجدة الفاجعة، و.. راقب السراب وهو يشعل ناراً فضية فوق الرابية قبل أن يحترق في مستها رجال الوفد الذين أرسلهم إليه مجلس الشيوخ. أخبروا أن غياب وريث شرعي أدى إلى خلاف في اختيار خليفة للزعيم المرحوم.

وقالوا: «أنت فرت بثقة من الزعيم حجبها حتى عن أعوانه. كلفك بغض الخصومات لما تتمتع به من عقل وتدبر، وقولك للمنصب سيدفن خصومات أسوأ داخل القبيلة الواحدة».

قال: «ومتى كان عرف الصحراء يسمع بأن يقرع طبل الزعامة رجل في سني؟». أجابوا: «أنت فرت بثقة المرحوم وهذه تزكية تكفي». فاضطر أن يستخدم لغة الدراوיש: «وهل يصلح للزعامة من أصيب بمرض العين؟».

مضى في طريقه بحثاً عن «واو»، وتعاركت عشائر القبيلة حول خليفة للزعيم طوال شهور. انتهوا إلى القبول برجل شهوانى في عصمته أربع

زوجات وعدد من الخليلات السبايا الالاتي يترددن على خيمته في الظلمات بمجرد أن يسمعن أن خلافاً نشب بينه وبين إحدى الزوجات. فرضته عشيرته بالتحالف مع عشيرة أخرى. ولم يمض على توليه تسعه أشهر حتى وصل إلى آذه خبر يقول إنه وُجد ميتاً في خيمته. قيل إن إحدى الخليلات دست له السم في الطعام، وفي قول آخر إن ذلك حدث بمكيدة من الزوجات. ولكن لم يفت الحكماء أن يبرئوا ساحة المحظيات وكذلك الزوجات ويعيدوا الأسباب إلى أصلها.

بعثوا في أثره خميدو فعرف كف يهتدى إليه في الجزء الشمالي المقطوع من صحراء الحماده. كان يفكر جدياً في العبور إلى واحات جبل نفوسة لتلقي أصول الدين على أيدي شيخ الطرق الصوفية ظناً منه أن ذلك سيكسر الباب الحجري الذي ظن، في الماضي، أنه يستطيع أن يكسره بالشعر. ولكن الثعلب خميدو عرف كيف يجره إلى ربوع القبيلة مرة أخرى لإنقاذها من الشتات. بدأ من النهاية فقال:

- انقسمت العشيرات إلى ثلاثة أطراف. إذا لم تقبل القيادة فإن الأمر لن ينتهي بها إلى القطيعة فقط وإنما إلى العداوة.

اضطر أن يركع. وعرف، فيما بعد، أن النبل هو أن تتخلى عن السعادة وتتراجع حتى عن الطريق إلى «واو»، استجابة لنداء سماوي آخر اسمه: الواجب.

وجد نفسه، مجبوراً، في موقف منْ يقايض الدين بالدين.

(٦)

المسيرة الطويلة تجبر الإنسان أن يتنازل عن طموحات كثيرة وينسى غايات أخرى، ولا يبقى سوى الإشارات، الإيماءات، العلامات الأولى. الحينين لتلقي أصول الدين، بقي، كما يقى الموقف من الذهب زمن الطفولة. فجيعة الجدة ارتبطت بشيطان التبر، والطريق إلى «واو» ارتبط

بالأمل الفاشل في تلقي علوم الدين على يد دراويش جبل نفوسة. وهذا الحنين القديم هو الذي شجعه على إقناع شيخ الطريقة القادرية في البقاء وتسويغ عقل القبيلة بشاعر الإيمان الصحيح في زمان عانت فيه الصحراء الكبرى كلها من الدراويش المزيفين والفقهاء المرتزقة على حساب الدين إلى حدٍ فقدت فيه قبائل كثيرة الهوية وانحرفت عن الصراط وأصبح الإسلام مهدداً بأن يعود غريباً كما تبا له الرسول ذات يوم.

ولولا الردة التي بدأت في تينبكتو وتحريف التعاليم الذي تعرض له الإسلام بتأثير المجنوس وأذنابهم ممن اتخد من التبر إليها جديداً لما تجرا هؤلاء اللصوص بالدخول إلى الصحراء تحت ستار الفقه حيناً، وبذرعة التحرير، الواجب على كل مسلم، للعودة للأصول والاحتكام إلى المنبع القرآني حيناً آخر. استمر هبوب ريح التحرير من الجنوب مع حركة التجارة وتحرك القبلي، فتضاءل حفظة النصوص القرآنية فتدهر الحكم الديني في حياة الناس. استغلَ الحواوة والمرتزقة الفرصة فاتخذوه وسيلة للتعيش والكسب وغض الصحراويين الباحثين عن الحقيقة. حقيقة الصحراء والحياة والواحة الضائعة. توغلوا في القارة العاربة مرافقين لقوافل الجمال، وجاءوا فرادى أيضاً على ظهور الحمير والبغال، بل إن الميسورين منهم وصلوا يمتطون صهوات الخيول، في حين بلغ القراء، الذين قرروا الانخراط في الارتزاق تواً، متجمعات القبائل مشياً على أقدام حافية، دامية، سلختها حجارة الطريق الطويل. أقبلوا من الجهات الأربع: من فاس ومراكش والقيروان. من زليطن وتوات وببلاد شنقيط. وكذلك من الصحراء الشرقية، عبر زويلة ومرزق. يضربون دفوف الحضرة، يحرقون البخور، يزأرون كسباع الغابات، يطعنون بعضهم بالسلاكين وبيصقون في أنواه البسطاء ليملأوا أرواحهم بالطهر والبركة دون أن يخطر ببال البلهاء أن الصجة كلها مجرد حيلة للفوز في آخر الليل بوليمة فاخرة تحضرها القبيلة على شرف الأولياء. في الصباح يكشف اللصوص عن الوجه البشع ليبدأوا النهب العلني. يأخذون النقق والجديان والزكاة وحلبي النساء الفضية وحتى

لباس النساء وأدوات الحروب. كل ذلك يحدث باسم الرسول والصحابة وسيدي عبد القادر الجيلاني ، مقابل دعاء أو حجاب مزيف مدون في ورقة صفراء متأكلة الأطراف، يدسها الصحراويون في جلد غزال كي يحموها من التلف، ولا يخطر ببال أحد أن فعالية التعويذة مستمدّة من غلاف الجلد وليس من الورقة الصفراء.

أخطر فنات اللصوص في تاريخ الصحراء جاءت متخفيّة في ثياب الزهاد الذين جاؤوا من مراكش وفاس ومكناس. يرتدون الجب الصوفية الخشنة التي تشبه الغرائر في قسوتها وسمكتها وخشونتها. يحملون خرائط سرية مختومة على جلود حيوانات مختلفة: ودان، غزلان، جمال، جاموس بري، . . . حتى الحيات والثعابين. يأتون بخبرة مدحشة بذوق أهل الصحراء. يرفضون الولائم، ولا يأكلون اللحم، ويكتفون بالعيش على خبز الشعير المحمص في الرمل. يقرأون القرآن طوال الليل ويتطوعون في الصباح لتعليم الكبار فروض الصلاة. يكسبون ثقة الأهالي فينصبون لهم خباء خاصاً لتعليم الصبيان، وحتى الصبايا أحياناً، القرآن وأصول الدين دون أن يخطر ببال أحد أن أولئك الدهاء إنما جاؤوا ليبحثوا عن مواقع الكنوز بالخرائط المدسوسة في أحزمتهم، وتطوعوا لتعليم الصغار ليبحثوا في عيونهم البريئة عن تلك النقطة الساحرة التي يرى فيها هؤلاء الوحش إشارة إلهية، أو إيماءة طبعها الجان، تفكّط الظلّم وتحمي الكنز من التفسخ إذا استطاعوا أن يقدموا الولد قرياناً لحماية الكنز. وقد اختفى أولاد كثيرون، واختفت معهم كنوز كثيرة. وكان بالإمكان أن يرجع أهل الصحراء أمر اختفاء الأولاد إلى جيرانهم الجن كما تعودوا أن يفعلوا عبر آلاف السنين، وكان بالإمكان أن تظل عملية نهب الكنوز سراً أبدياً خاصّة وأنهم يهربون من بقايا الأسلاف ورماد الأقدمين كما يهربون من الوباء، ولكن اختفاء الزهاد هو الذي أثار شكوكهم. ولم يكن صعباً أن يكتشفوا آثار القرابين ورم العظام ليعرفوا أن النساء الثقة ما هم إلا أبالسة جاؤوا من جهنم نفسها متذكرين في ثياب الدروشة والزهد.

أما الأحجية فقد حصل آده مرة على ورقة مطوية من فقيه عابر مقابل جدع من سلاله بقاء. صحيح أن الحيوان الصغير لم يرث اللون المبقع الآسر من السلالة ولكن انتماء لهذا الأصل النبيل وحده يكفي كي يرفع من شأنه ليس بين الرعاة والخبراء والأقران وإنما بين صبايا النجوع والقبائل الأخرى أيضاً. جاء الفقيه ووضع اقتناه شرطاً للتعويذة فاضطر آده أن يتنازل عنه. فتح الورقة المطوية فوجد بداخليها خطوطاً مشبوبة لا تشبه الكتابة العربية. حروفها أقرب إلى رموز «تيفيناغ» من آيات القرآن المسطرة في المصاحف. شك في الأمر وعرضها على شيخ يعرفه في واحة «أدرار». فتح الشيخ الطيبة وبسط القرطاس وغرق في الصحف. ضحك هستيري لا يليق بشيخ وقور مثله. ضحك طويلاً حتى دمعت عيناه. اعتدل في جلسته واستغفر الله ولعن شياطين الإنس والجان وقال: «هذه ليست تعويذة ولا كتابة. فقيهك يجهل الكتابة».

منذ ذلك اليوم عرف آده أن الغش لا يقتصر على الكيل والميزان فقط ولكنه يتجاوز أبعد الحدود ليتجاوز على الدين نفسه. تحصن بالحذر في معاملة الفقهاء وشيوخ الطرق طوال السنوات الأولى لتوليه أمر القبيلة ولكن شيخ الطريقة القادرية استطاع أن يخدعه بسلاط بسيط هو: الحرية! ويبدو أنه مكت دهراً وهو يقرأ في نفوس الصحراويين ليصل إلى نقطة الضعف الخفية، ليكتشف الكثر البعيد الذي يفوق كل كنوز الصحراء بعدهاً: عشق الحرية. ويبدو أنه رَصَدَ، في جولاته، أن الحنين المَرَضِي إلى «واو» ما هو إلا مظهر آخر، باطني، من مظاهر العشق، فقرر أن يسدد ضربته، ويبدا من هذه النقطة.

نادى بهذه الفلسفة منذ الأيام الأولى لوصوله وركَّز على العشق الإلهي كنهج وحيد للخلاص. ولم يجد صعوبة في إقناع الناس ليس بسبب ما يتمتع به موهاب في التنكر. ولكن لأن العشق هو حجر الزاوية في كل الطرق الصوفية التي دخلت الصحراء. كما لم يجد صعوبة أيضاً في إرجاع كل الصراعات الروحية والأمراض الوجدانية التي عانى منها الصحراويون على مرّ التاريخ (كالحنين إلى «واو»، وحالات الاعتزال والصيام الطويل،

والجذب الناجم عن جمال الغناء أو الوجود الناتج عن الوله، وحتى عادة الإنصات للسكون) إلى مبدأ العشق.

من هنا بدأ حربه على البدع بالأوراد والمداائح النبوية. حرم إرواء المجنوب الولهان بغناء المعشوقة الأرضية واستبدلها بترانيم العشق السماوي. منع علاج الوجد بالشعر الملحون والرقص ووصف هذه الطريقة بأنها رجس من عمل الشياطين ومجوس الأدغال السوداء. وابتكر العلاج بآيات الله المرتلة. وكان أول من نبه إلى أن الفردوس المفقود ليس في «واو» ولكنه في قلب المؤمن. باختصار فإن ذلك الرجل الوقور، ذو اللحية الكثيفة البيضاء الموسمة بشعرات رقيقة صفراء، بدا للشيخ آده ولغيره من العلاء، مصلحاً دينياً حقيقياً يمكن الاعتماد عليه في تحصين الدين وحماية القبيلة من زحف دين المجوس. وباختصار أيضاً كان يتقن عمله، ويتمتع ببراعة تنافس ثالب الأساطير. ولا يستطيع الزعيم حتى اليوم مقاومة إحساس خفي يosoس له بصدق نواياه، ويضفي الوسواس إلى حد يحدد فيه الحقيقة المؤلمة التي حاول الشيخ أن يتجاهلها دائماً وتقول: «ليس الإنسان الذي يصل إلى زعامة القبيلة فاسداً في أصله، ولكن الفساد يكمن في الكرسي المشيد من تراب، في المكان الذي يجلس عليه». يحاول أن يطرد الهاجس الخفي لأن صوتاً آخر يرتفع قائلاً إنه يحاول، بهذه الحكمة، أن يجد مبرراً لشيخ الطريقة لاجباً للحقيقة ولكن لتبرير الهزيمة التي مُني بها على يديه. وما زال هذان الصوتان المتنافران يتقاذلان في قلبه حتى اليوم.

ولكن انسحابه في تلك السنوات لم يكن هزيمة. ولا يدرى أحد أن ذلك الانسحاب كان أمراً من أقسى الهزائم. لماذا؟ لأنه رأى أن الخيانة لم تكن خيانة شيخ الطريقة، وإنما خيانة الناس الذين أحبهم وضحي في سبيلهم بعزلته في الحمادة الشمالية وبنية في تعلم الحقيقة وأصول الدين. ومضى زمن، بالطبع، قبل أن يعرف أن الناس مجرد قطيع من الأغنام البائسة تمشي خلف الرايعي الذي يستدرجها بحزمة عشب، ولا تكلّف

نفسها عادة عناء التساؤل عن نوايا هذا الراعي ، ولا تعرف أنه لن يقودها، يقيناً، إلى مراعي الكلاً ما دام يتحايل عليها بربطة عشب. الراعي الذي يغوي القطبيع بهذه الحيلة يقوده، عادة، إلى المذبح . ولكن هيهات أن تفهم الأغنام المسكينة قبل أن ترى السكين. وقد قام شيخ القادرية بدور هذا الراعي ، ربما من حيث لا يدرى . لأنه لا يستطيع أن يتهمه بسوء النية طالما كان الفساد كامناً في خباء المشيخة نفسه كما يروق للوسواس أن يحدُّه ساعات الخلرة في ظل العشية . بل إن هذه الغفلة، هذا الفساد المزروع في «المكان»، هو أسوأ ما في الأمر كله . خوفه من هذا الشبح، هذا الغول، غول الفساد المدسوس في بيت الزعامة، هو الذي فرض عليه أن يبحث عن النجاة في الإمساك بالعصا من الوسط ، ظاناً أن العقل وحده يستطيع أن يقهر الطبيعة الخبيثة التي تتحبّ في الحكم .

(٧)

المنفي هو ما لم يغفره لشيخ الطريقة القادرية . رغم أنه انسحب طائعاً إلا أن الوضع الاستفزازي الذي خلقه الشيخ في القبيلة فرض عليه الانسحاب ليس لحفظ ماء الوجه، كما ادعت السنة السوء، وإنما ليعطي للناس حقهم الكامل في ممارسة الاختيار، رغم معارضته العقلاء، من جهة ، ولكي يتمكّن من أن يخلو إلى نفسه بعيداً، في الحمادة، ليتمتع بالاعتزال والسكون، من جهة أخرى . وأغرب ما في الأمر أنه لم يفكر في عبور الحمادة إلى الجبل كي يعيي العلم القديم ويستعيد طلب الحقيقة في تلقي علوم الدين . ربما لأن سنة الحكم حفرت في نفسه انددواً محا كل أثر للجموح المبكر الذي ميز كل صهراوي يافع .

صحيح أن عبئاً أزيح ، وسلسل تحطمت ، ولكن هل يستطيع أن يتمتع بالحرية مخلوق تخلّى عن الأصداف ليراهما تطوق أعناق الغير؟ ليس الغير وإنما قبيلته، أهله؟

فَكَرْ طويلاً في هذا اللغز القدري عندما رحل من النجع ، يرافقه أحد

الأتباع وثلاثة من العبيد. وحتى عندما اقترح عليه بوبو، رفيقه من قبيلة الأتباع، أن ينتهز الفرصة ويجتمع إبله المشتة في شتى البقاع، ورأى أن يمرّوا على «دبابة» ليتفقدوا قطبيعاً من الجمال أخبر عابرون أنهم شاهدوه هناك، طار فكر الشيخ إلى القيد، إلى الملكية، إلى المتعة والأوزار. وقال له الوحي الخفي أن القيد شيطاني بطبيعته، يرود له أن يتسلل من عقال ناقة، ويدخل في عبّ المتعة ليصفع وتداً، وكلما تجمع وتكثر توطّد الوتد وازداد غوصاً في الأرض. الوحي الغامض استعار دور جنّ سليمان الحكيم فرسم له القيمة في رمثة: سيعرج على «دبابة»، وقد يعبر إلى الرملة، لأن الإبل التي شوهدت في موقع منذ شهر سوف تشاهد في موقع آخر يبعد مسافة شهر دون أن يستطيع أي عابر سبيل أن يحدد الوجهة إلى حيث ستتجه الدّابة حتى لو كان خبيراً بسلوك الحيوان. ثم يتجه غرباً، أو شرقاً، لللاحق بقطيع آخر شوهد في تلك النواحي، ثم يضطر لأن يقسم الأدوار. فيكلف اثنين من العبيد بالتجهيز إلى صهاريج «مساك» في الجنوب، في حين يتولى هو، مع بوبو وأحد العبيد، تفقد الإبل المشتة في الحمادة والصحراء الغربية المتاخمة لـ «غدامس». يبدأ استنطاق الرعاعة والرّحل والعابرين عن جمال تائهة، مهملة، طلقة، تحمل سماء القبيلة، الإشارة السحرية القديمة المستوحة من نصوص الكهنة المحفورة على الصخور [+] . تبدأ الرحلة، رحلة البحث والشقاء.

ولكن الرحلة لا تنتهي عند حد العثور على كامل القطيع. بعد العثور يبدأ الجرد، ثم الاعتناء بالرؤوس التي أصابها الجرب. يبدأ بحث آخر عن المراهم وخبراء داء الحيوان، وتبدأ، أيضاً، عناية من نوع آخر. العناية برؤوس أخرى بخلت عليها المراعي بالعشب. فيضطر أن ينزل إلى أقرب الواحات. إلى غدامس، أو أدرار، كي يقايس بعدي من الجمال أحزمة البرسيم المجفف، أو أكياس التبن، ليقيم بها أود الحيوانات المشرفة على الهلاك، حتى يرحم الله وينزل المطر. سينسى نفسه. سيفقد السكينة. وسيجد نفسه في هرجة أكبر من هرجة شيخ الطريقة وهو يتهيأ لاقناع

الحرية الموعودة ليقدمها قرباناً للأهالي وفاءً بالوعد الذي قطعه على نفسه .
و.. سيعاني من الصداع والشقاء ! .

هكذا تحدث وسوسات الوحى .

سدٌ أذنِيه بثامِه كي لا يسمع اقتراح بوبو، وصام عن الكلام حتى عبروا
الشريط الرملِي وتراءت قمم العجَال الملفوفة في العمَامات الزرقاء .

(٨)

المنفي . . .

استمرَّ شهوراً على ظنه الطفولي بأنه هجر النجع طوعاً، حتى كشف له
حديث عارض حقيقة الأمر. فبرغم عشقه القديم للحمدادة واعتقاده السري،
الذى أخفاه حتى عن خميدو، أنها هي الأرض البكر الأولى التي فازت
ببركته تعالى، ففضلاها واحتللي فيها ليungan من طينها قوام السلف الأول، إلا
أن حنينه لأرض الكهوف والجدران الصخرية الموسومة بأساطير الأولين
استيقظ وطفى . قاومه فاشتد، خنقه فاستبد . ولم يكن صعباً على مرافقه أن
يفهموا سرّ صمته الطويل وامتناعه عن تناول خبز الملأ المصنوع من
الشعير، وأرقه في الليالي . كما لم يكن صعباً على بوبو أن يفهم السرّ
قبلهم . لأنَّه تعودَ أن يقرأ لغة الحنين إلى الأرض وميضاً عامضاً في العيون
يفوق الحزن المعروف كثيراً . كما زوَّدته الخبرة الطويلة بهذا الصنف البائس
من الناس في قبيلته المتنقلة بحيث يمكنه أن يقرأ الحنين أيضاً في تفاصيل
آخرِي تبدو تافهة، كتقلب المزاج، والميل إلى العداون، وتصرفات أخرى
تطرأ على سلوك المصاب بهذا المرض البيل .

الحنين قدر الصحراوي الأول . والانتماء المزدوج هو الذي خلق منه
قدراً . في يوم انفصل عن أمه الأرض بقوة الروح السماوية، الإلهية، التي
نفخت من نفسيها في كتلة الطين، كان عليه أن يعاني غربة مزدوجة . فهو
نُفِي من الفردوس السماوي وانفصل عن الله . نزل إلى الأرض ولكنه لم

يتحد بالصحراء، لم يفز بامتدادها وعرائها وحريتها. حل في حفنة الطين قبل أن يبلغ الأصل الآخر، الأكبر، الأرحم، والأعظم: الصحراء. فظل المخلوق كائناً معلقاً بين السماء والأرض. البدن يسعى للعودة إلى وطنه الصحراء، والروح تحنّ عشقاً لأن تتحرر من الجُبْس الأرضي وتطير إلى أصلها السماوي.

هنا قام مأزق الصحراوي. مأزق النزاع بين السماوي، في كيانه، والأرضي. إذا استقرّ بعراء عدة أيام هتف به النداء الغامض لأن يطوي خيمته ويحمل ثقاله ويبدا الرحيل. الرحيل الطويل إليه، إلى الأصل السماوي، إلى الله. فإذا طال السفر، وطارت الروح في الريح، احتَجَ الجسد ونَزَفَ القلب حيناً إلى الوطن، إلى الأم، إلى الأرض. يبدأ نداء الأرض، وتصرُّ الأم أن تأخذ حصتها من ولديها الضال. وحياة الصحراوي كلها هي نزاع بين الأرض والسماء، بين الأم والأب. كلاهما يدعى لنفسه حقاً أكبر في الابن المشترك. الأم تقول إنها أعطت البدن، الوعاء، ولو لاه لما استطاع آدم أن يكون. والأب يحاجج بأن الجزء الآخر، الباطني، الروحي، هو الذي وهب كوز التراب القدرة ويث في النطفة الحياة، ولو لاها لظلّ كُوماً بائساً من طين. يبدأ الشقاء من النزاع، من هذا الازدواج في الانتماء الذي لم يشارك المخلوق في صنعه. تتجاذبه القوتان فيتمزق إلى نصفين، ويتألم ولا يملك الحق في أن يتحجّ أو يلعن قساوة القدر. والصحراوي أكثر أبناء آدم إحساساً بقساوة هذا الازدواج في الخلق. فعموره، وتجواله الحالد هو رحلة أبدية للبحث عن الحرية، والعودة إلى الله. والحنين المَرْضي، الذي يحاول أن يخفف من جذوته بأغاني «أساهغ» الشجانية، هو سعي للوطن الصائغ، استغفار خجول بين يدي أم أضاعته لمجرد أنها ولدته في العراء، في الصحراء. هو، بعبارة شجاعية، حينين إلى الاستقرار. والاستقرار هو الكفن، الممهد الطبيعي للموت.

ويبوسي يرصد الزعيم في تجواله ليرى في عينيه وميض العينين إلى القبيلة، إلى الوطن المزعوم، إلى أرض الإلهات الحجرية وجبال

الأسلاف، لا لأن الشيخ قد تعب، ولكن لأن الإنسان لا بد أن يلبي نداء الأرض يوماً ما حتى لو كان صحراؤياً عابراً يرفض البقاء في أي أرض أكثر من أربعين يوماً. فتولد عن النزاع القديم بين الأب والأم، السماء والأرض، المصطلح القاسي، الجديد، المسمى: المنفي.

ظلَّ مثل السوس ينخر في عظم الرعيم حتى قال في جلسة العشية تحت حماية السدرة:

- إذا كان عليَّ أن أجمع إبلي فعليَّ أن أبدأ بتلك الهوامش النائية التي شوهدت في «مساك ملت».

رمقه بوبو، وصاح أكبر العبيد سناً:

- مساك ملت؟ ما أبعدها!

قال بوجاهة غامضة:

- علِّمتنا الصحراء أن نبدأ بالهدف الأبعد إذا شئنا أن نحقق الحد الأدنى.

رشف جرعة الشاي إلى آخرها. والتفت إلى بوبو ليتفقد ردة الفعل. قال بوبو ببرود:

-رأيي من رأيك الأول. لا أرى ضرورة لتجمیع القطیع. ما نفع أن تصدع رأسك بمشكلة أخرى في هذا الزمان الصعب؟

راقب السراب وهو يتراجع مع انكسار الشمس متکثأً على وسادة من الحصى المخلوط بالتراب وحبات الجل.

سكت فلَّق بوبو مستعيراً لغة القادرية:

- لا شيء في الحياة أثمن من السكينة وهدوء البال يا شيخنا.

أيده الزنجي العجوز بتهيدة عَدْمِيَّة طويلة، وتمايل بعمامته الرمادية وهو يخلط الشاي.

أقلع الشيخ عن الهمِّ الديني ثلثة شهورٍ أخرى. خلالها لاحظ بوبو غياب عينيه في المحجرين، وبروز الوجنتين وشحوبًا في الأجزاء المكشوفة من اللثام خاصة الوجنتين. كما ازداد اعتزالاً وصمتاً وكآبة على غير عادته في الأيام الأولى. فبرغم أن الخروج للحمادة كان جنارة من أساسه إلا أنه لم يسمح للحزن أن يحرمه من مرحة النبيل وروح السخرية خاصة في الأمسيات التي يكتمل فيها البدر وتَهَبُّ النسمات الشمالية المشحونة ببرطوبة البحر. وسمح لنفسه في بعض الليالي بفهمهات عالية. فارجع بوبو هذه الأريحية إلى رغبته في التخلّي بالشجاعة أمام هزيمة سلمية جاءته من حيث لا يدري.

وتذَكَّر، مراراً، ما روي في «آنهي» أن الهزيمة الأقسى هي تلك التي تخفى في ثياب ورطة لا تملك حيلة لتفاديها، وهي حيلة داهية تدبّرها الأقدار لكسر سيف المحارب الشجاع.

في ذلك اليوم، بعد انقضاء ثلاثة شهور تقريباً، أعلن عن قراره قبل الشروق، عندما تجمعوا، منذ الفجر، حول نار الشاي في وادي الرَّتم. قال بقطعية مفاجئة:

- احزموا الأمتعة. سننافر إلى مساك.

فرَّك بوبو يديه وعرضهما لدفء اللهب الصباحي. كان فصل الشتاء يحضر ولكن البرد في الحَمَادَة يتمادي في هذا الموسم، وخاصة في آخر الليل وال ساعات الأولى من الفجر. رفاقت العصافير في أحراش الرَّتم ورسم الفجر قبse البكر في الأنف العاري. علق بوبو ببرود:

- يدهشني أن تفعل ذلك يا شيخنا. ظنت أنك لن تفعل ذلك أبداً. رقمه الشيخ بدهشة. تبادل العيَّد النظرات في العتمة. مضى بوبو في وفاحتنه:

- أقترح أن تتحذ قراراً شجاعاً وتتراجع. لا أنصح أبداً بالرحيل إلى مساك في هذه الظروف.

هيمن صمت. ظلّ الزعيم مشدوهاً لحظات. ثم ابتسم فجأة وسأله:

- ما الذي حدث؟

- أنت تعرف أن شيخ القاديرية يُعدُّ لتأديببني آوى هذه الأيام، وطريقه يمرُّ من مساك. إنها مليئة برجاله، ب الرجال القبيلة، وسوف تُفسّر رحلتك إلى هناك بتحريض الأتباع على التمرّد، والعودة لحكم القبيلة.

- خرّجت من «تارجا»^(*) طائعاً، وقبلها جاء الشيخ إلى السهل واستقرَّ بدعوة مني، بتدبّري، ولست نادماً على ما فعل لأنّه خلّصني من وزرٍ أجيّرت على حمله منذ زمن طویل حماية لهذه القبيلة الشفّية من التشتّت والتقافل.

- هذا ما تقوله أنت، ولكن الناس تقول شيئاً آخر يا شيخنا.

- سبحان الله. وماذا يمكن أن يقول الناس الحمقى؟ الحق حق.

- الحق ليس حقاً في نظر الناس حتى لو جاءهم يدبُّ على قدمين.

- سبحان الله. وماذا ترى؟

- أرى أن ترجح الرحلة إلى وقت آخر، مناسب.

- سبحان الله.

تفحصه الشيخ بفضول وهو يفرّك يديه في فم اللهب محاولاً أن يخفّي عينيه.

جاء العابرون بأخبار انتهاء الحملة. عاد الزعيم يفصح عن نيته في السفر إلى مساك.

في ليلة أضاءها بدر وهاج قال بوبو باستفزاز.

(*) تارجاً: منطقة فزان، أو الصحراء الكبرى الوسطى.

- لم أعهد فيك الحرص على مال الدنيا.

دافم الزعيم عن نيته بحرارة مُنْ يدافع عن شرفه :

- مال الدنيا؟ عجب. هل أترك إبلي تضيع لمجرد وجود افتراء
شيخ القادرية أو بطانته من أمثالك قد يسيئون بي الظنو؟

تجاهل بوبو الإهانة وعقب بنفس البرود:

- الجري وراء الإبل وثيق الصلة بطبع التجار وفئة الفلاحين.

- سبحان الله. اسمعوه يا جماعة. وكأنه فضيلة الشيخ عبد الله الجيلاني نفسه^(٥). ها أنت تتضوّق على معلمك في الطريقة. ها... ها.

الضحكة عصبية، متوتة. التقط بوبو النغمة فاحتدرس لغيبة أشياء

قال الزعيم:

استنجد بالرنجي العجوز بنظرة غاضبة، فهُزَ الرجل عمامته بيؤرثه
بجوابه التقليدي :

الضحكة المخنقة أيضاً تقليدية، تعود العجوز أن يذيل بها حرب التقليدي.

قال بوبو دون أن يرفع رأسه عن خطوط يحرثها على الأرض **خطب**:

(*) عبد القادر الجيلاني . علامة إسلامي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي . يسر الطريقة الصوفية التي عُرفت بالقادرية .

- أستغفر لله أن أدعى قدرة على تلقين الدروس. ولكن الطريقة علمتني أن لاحياء في الدين. وما قلته الآن تحذير أملأه واجبي كرفيق.

- سذهب إلى مساك. حضر المتعاغ غداً يا بركة.

قالها باستفزاز، فعلق بوبو بلين:

- اشتهرت بالتسامع والحلم. تذكر سمعتك التي قطعت كل الصحراء في الإمساك بالعصا من الوسط.

- وهل يستطيع مخلوق أن يلتزم الوسط بينكم؟

- مهما حدث فلا يليق أن تتخاذل قراراً في لحظة غضب.

لعن الزعيم الشيطان الوسوس سرّاً وعاد يقول في العلن:

- ولكن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً. ستسافر إلى مساك. سترزور الكهوف وتتفرق على وصايا الأجداد في التقوش. ستفتك رموز «تيفيناغ»، و..

مسح بوبو خطوطه براحة يده وقال بصوت غريب:

- اقتلني أولاً!

هيمن صمت. تنقل الزعيم بيصره بينهم فلاحظ كيف أشاح الزنوج بوجوههم. أصغرهم سنّاً نهض وذهب ناحية الوادي حيث ترعى الجمال ليداري العرج هناك. اقتنص الزعيم، بحسن الحكم، رائحة مكيدة. فهم في تلك اللحظة معنى كل المناورات السابقة. سأله بلهفة:

- ماذا قلت؟

ردد بوبو ببرود:

- اقتلني أولاً!

- هل تريد أن تقول إن الشيخ أوكل لك مهمة منعي من..

لم يكمل الجملة فأوضح رجل الأتباع بلهجة قاطعة تفوح منها رائحة التطرف الذي اشتهر به المریدون:

- نعم. لن أدعك تذهب إلى مساك ولا إلى أي منطقة في صحراء الجنوب.

حدَّق في الزعيم طويلاً، ففي حين استمرَّ بوبو يداعب التراب البارد براحة يده. عمَّ الصمت. أصغوا جميعهم للسكون الجليل. قال الزعيم:

- ظننت أنك من المؤيدين فحسب. وما دمت مريداً يحرص على تنفيذ التعاليم فسوف تبارز غداً. هل ستبارزني؟

همهم بوبو بصوت مخنوق:

- يحزنني ذلك. ولكن ستجدني رهن مشيئتك.
ضحك الزعيم بسخرية ونهض للنوم.

(٩)

في الصباح بدأت مبارزة السيف التي استمرَّت ثلاثة أيام.

في عيني الزعيم لمع بريق الحنين إلى الوطن، وفي عيني بوبو توهج تعصُّب المریدين. راقبهما الزنوج الثلاثة بعيون حمراء أرهقها السهر.

في اليوم الأول لم يتكلَّم سوى السيف.

بدأ الصدام بعد الإفطار. تناول كلَّ منهما كأس شاي أخضر من الدُّور الأول. لم يتبادلاً كلمة مع العبيد الثلاثة، كما لم يخاططاً حتى بتحية الصباح. جلساً متقابلين، متربيعين، حول موقد النار. تجرَّداً منذ البارحة من اللباس الفضفاض. اكتفى كلَّ منهما بثوب الكتان الداخلي، مشدوداً بحزام من قماش الكتان أيضاً، فبدت بطنهما الصحراوية الضامرة، الخاوية من الأطعمة والدهون أكثر ضموراً. نقل العبيد فيما بعد أنهما ظلاً يحدجان بعضهما، في ذلك الصباح الريعي البارد، بنظرات تفيس بالتصميم

والحزن. في النهاية أشاح بوبو بوجهه وتظاهر بتزويد النار بالحطب، فقام الشيخ، بحركة طفولية طبيعية، يحرث الموقد بالمسعر ليُرْجع جذوتها.

شق شعاع الشمس الأول الأفق فبدا كحيط من نار. نهض الشيخ أولًا وأمسك سيفه الطويل من مقبضه الموشوم بالتعاويذ والرقي. سيف بوبو من نفس الطراز ولكن مقبضه لا يحفل بالتفوش الخرافية مثل سيف الشيخ. تقدم برقة ووقف بينهما. قال بعينين دامعتين:

ـ ماذا يحدث لو أنكم لعنتما الشيطان؟ ربما..

أسدل لثامه الرمادي على وجهه فستر عينيه. التفت نحو بوبو وأكمل بصوت راجف:

ـ كيف تجرؤ على مبارزة الزعيم؟ البارحة ظنت أنك تمزح..

نهره الشيخ آده بنظرة قاسية فتنهج جانبًا. لمع السيفان في الموجة البكر من شعاعات الصباح، والتقيا في أول عنق. تقاطعا في صدمة جرحت سكون الصبح. التقت نظراتهما فتمكن كل منهما أن يقرأ التصميم في عيني الآخر. انتهى عنق السيفين فتواصل صليل لسانين شرهين من النحاس. تقاتلا في العراء. صعدا الروابي المجاورة. نزلا إلى الوديان. أفرزا الجمال الوديعه فجفلت وراقبت التزّال بعيون حزينة، دامعة، مزعوجة. تصاعد من أقدامهما الغبار، وأصابت ضرباتهما الطائشة الشجر البري المسكين. أسفقا أعراف السدر في الأرض المرتفعة، وفي الوديان السفلية أطاحا بأغصان الرّتم الرقيق، المغطى بعقود من براعم الزهور المهيأة لأن تتفتح نلبية لنداء الربيع. سلخت المساحات الصحراوية المكسوة بالحجارة الحزازة أقدامهما فترفت دمًا ابتلعته الأرض الظماء في رمش العين، ودافت الجروح بطبقة من حبيبات الرمل والطين والملح. وكلما تقدم النهار واشتدّ الحر، ازدادت وحشيتهم وتصميم أحدهما على إبادة الآخر. يدفع أحدهما الحنين المجنون لتلبية نداء الوطن، ويدفع الثاني تطرف المجنوبيين في تنفيذ تعاليم شيخ الطريقة. وروى كبير الزنوج، فيما بعد، أنهما لم يتوقفا حتى اتصف النهار. وبرغم أنهما استطاعا أن يدوسا، في حمّى جنونهما،

المساحات الخضراء واليابسة، وأطاحا بأشجار السهول والوديان، إلا أن أيًّاً منهما لم يتمكن من إصابة خصمه حتى بخدش. وأضاف الرواوى بانحياز: «ولولا فارق السنّ لقضى سيّدي يومها على المريد المجنون». الشيخ تخطى، وقتها، عتبة الستين. وبوبو في العقد الخامس. وعلى عادة الأتباع الأشقياء فإنه لم يفصح يوماً عن عمره الحقيقي خوفاً من مفعول السحر. إذ يروج عنّة هذه الحرفة الخبيثة القادمين من تينبكتو وكانو، أن العمر مفتاح الطلسم والشياطين تكره الدخول في ظلمات الأبدان التي تجهل تاريخ ميلادها.

روى بركة أيضاً أن التعب هو الحَكْمُ الذي فصل بينهما. توقفا يلهثان تحت السدرة نفسها التي انطلقا منها في الصباح. العرق يغسل وجهيهما وكامل الجسدين. انحر اللثامان فانكشف الوجهان المجهدان. الشفاه تغطيها طبقة من الزَّبَد الناصع تشبه تلك التي تترُّز من شفاه الجمال الهائجة. بدياً، في موقفهما وهما يتواجهان متقابلين يسندان جسديهما المنكبين بالسيفين المغروسين في التراب، بظهرين مقوسين إلى الأمام، مثل ذئبين شرسين فشلا في اقسام فريسة.

تقدّم بركة ورشَّ وجه الزعيم بقطرات من ماء القربة البارد. كما تقدّم أحد الزنوج من بوبو ونثر في وجهه الماء أيضاً. تركوهما حتى بردا ثم قدما لهما شراب الحياة الأولى: الماء. استلقى الشيخ في الظلّ وهَجَّعَ على ظهره. في حين ترَّبَّع بوبو قرب النار وراقب بركة وهو يُعدُّ الشاي وخبز الرملة.

أنصتا لأنفاس ذي الجلال في السكون.

لم ينطق أحد بكلمة حتى بدأ الشوط الثاني في العشية.

(١٠)

في اشتباك العشية، قبيل حلول الغسق، أُصيب الزعيم بجرح في

المعصم الأيسر. استسلم لبركة حتى أحكم الرباط حول الجرح. علّق قبل أن يعود للقتال:

ـ لولا الغَسْقُ، لولا وقت النحس لما أصبتني أبداً.

تذكّر الشيخ آدَه أن عرَافاً عجوزاً من كانوا أخبره مرةً أن يُحدِّر الغَسْقَ، وقال له إنه الوقت الذي ينزل فيه الجن ليسكن الأشياء في الصحراء. ونبأه ألاً يصطاد الغزلان في هذا الوقت، ويبتعد عن المنازعات، والأفضل أن يبتعد عن الناس ويكثر من قراءة التعلويذ. ومما زاده يقيناً أنه لاحظ كيف يحاول بوبو أن يصدّ الضربات متخدّاً موقف الدفاع، فمن أين جاءت الضربة إن لم تكن من شيطان من أهل الخفاء؟

في الليل امتنع الشيخ عن الطعام مرةً أخرى. وكانت هيئته البائسة في النهار، أثناء المبارزة، قد أزعجت بركة وأحس نحو سيده بقلق شديد. إذ شاهد بعينه كيف التهم صيام الشهور الماضية لحمه حتى بقي جلداً على هيكل عظم. أعدَّ على العشاء فطائر مدهونة بالسمّن خصيصاً كي يمدّ الشيخ بقوّة لمعركة الصبح ولكن الرعيم رفض أن يمسّها. اقترح بركة أن يؤجّل الصدام حتى يلتئم الجرح كما تقتضي قوانين المبارزات فقبل بوبو بسرور ورفض الرعيم بشدة.

ليلتها خرج بوبو إلى العراء لقضاء الحاجة. مكث هناك زمناً وعندما عاد هجم بعيداً عن موقد النار وتغطّى بالبطانية، مخفياً وجهه، حتى الصباح. نهض بعينين حمراوين وجفنين متورمين.

أفاد أحد الزنوج أنه بكى في خروجه إلى العراء، كما سمعه يبكي تحت البطانية في آخر الليل.

(١١)

في اليوم التالي اضطُرَّ الشيخ، تحت تأثير نبوءة العراف القديم، أن يلغى الغَسْقَ من الوقت المخصص للصدام فوافق بوبو بدون شروط. في اليوم

الثاني أيضاً فقد بركة صوابه وانهار تحت قدمي الزعيم. بكى وناح وتوسل:
- لا تبازره، رحمة بنفسك ويناً أن تتوقف. إنه جئي محصن ضد
الحديد. لقد رأيت مرات كثيرة كيف يصيب سيفك لحمه دون أن يصبه
خدش. تحت معصمه حرز... .

قاطعه الزعيم بتصميم:

- ابتعد يا بركة ولا تكون طفلاً. سأحاربه حتى لو كان ملك الجن نفسه.
ابتعد!

رفع سيفه ودخل الحرب.

في اليوم الثالث جاء دور الزنجي العجوز كي يتهمهما معاً بالطفولة
والصَّيْبَةَ. فخلال الأيام الثلاثة التي لم يتوقف فيها النزال، باستثناء ساعات
الليل وقلولة النهار، تعود الجماعة على المعروفة ونسوا، إلى الأبد، أن في
حد السيف يكمن الموت. ويرغم أن بوبو يحاول أن يلتزم جانب الدفاع عن
النفس واتقاء الضربات إلا أن الزنجو أجمعوا أن الزعيم لن يفوت فرصة
طعن خصمه إذا أتيحت له. فكيف نسوا شبح الموت مع إحساسهم بهذا
التصميم؟ ربما فقدوا الإحساس بالخطر بفضل وباء كريه اسمه: العادة.
تعودت آذانهم على عزف السيفين فظنوا أنهما من خشب وأن الوحوشين
الذين يقاتلان أمامهما هما مجرد طفلين صغيرين يتسليان ويلعبان. ويدو
أن هذا الشعور تمكّن حتى من المقاتلين فبدا لهم العراق، في اليوم
الثالث، كأنه مزاح ثقيل. العجوز بركة الذي حرص أن يتبع وقائع المعركة
خطوة خطوة ضرب كفافاً بكف وصاح ضاحكاً معلقاً على حركة بهلوانية بارعة
من الشيّخ:

- ممتع. أقسم بالله أن هذا ممتع. أنتما طفلان صغيران. أنتما الطفلان
ولست أنا.

وأعقب التعليق الجريء بقهقهة عالية لم يكن سيده ليغفرها له لولا
انشغاله، جاداً، بيازحة العقبة التي تعرّض طريق عودته إلى الجنوب.

حلَّ الليل فتجمَّعوا حول موقد النار. بدا مزاج الزعيم رائعاً، برغم التعب، حتى أنه عَقَب على تعليق بركة حول اللعب والطفولة قائلاً:

- وهل كنت تتوقع شيئاً آخر؟ الرجل الحقيقي يقرب من الطفولة كلما تقدم في العمر. والألعاب الطفولية أخطر الألعاب. الموت فيها أقرب من حبل الوريد. يُحسَن بعجز مثلك ألا ينسى هذا.

(١٢)

في اشتباك اليوم الرابع انتقلا إلى نوع آخر من المباريات دون أن يعرف أحد كيف حدث ذلك. فما أن تقابلوا في الصباح لمواصلة المواجهة بالسيوف حتى تفقد آده العراء. من الجهات الأربع امتدَّت الصحراء بقسوة. نَكَسَ بصره ممسكاً بمقبض السيف لحظات. تابع بوبو وجومه في جلال. و... فجأة طعن الأرض بالسيف وتركه مغروساً في بطنها وانتظر يجري. اتجه إلى الجنوب، حيث يحجب الأفق الجبال الملتمة بالعمائم الزرقاء التي تفصل صحراء الجنوب عن الحمادة الحمراء. صعد أول رابية فوجد بوبو نفسه يلقي بسيفه أيضاً وينطلق خلفه في أطراف مطاردة شهدتها الصحراء. دُهش الزنوج وكذلك الجمال. وقفوا طويلاً يرقبونهما وهم يتحولان إلى شبحين تلعب بهما أمواج السراب الذي تدفق في الخلاء منذ الصباح الباكر. ثم أفاق بركة وهرول وهو يتمتم «لم أقسم حانثاً عندم أقسمت أمس أن ما يحدث هنا هو لعب أطفال». انحرف بوبو يميناً ودار حول الرابية ذات القمة المربعة ثم انعطف يساراً ليقطع الطريق على خصمه. تعرَّ بأحجار حَزَازة، شرسة، وانقطع خيط الجلد الذي يشدَّ مداداً في طوق حول الرسغ، ولكنه واصل يعدو بتعلٍ واحد، حتى وجد نفسه بين أحضان الشيخ المنهك، المغسول بالعرق. ظلَّا متعاقنين، يلهثان، تحت أشعة الشمس الصباحية. تمت بوبو مستمراً في تطويق آده بذراعيه:

- ماذا يفيدك أن تقطع الحمادة جرياً إذا كنت ستموت ظمماً قبل أن تبلغ

الجبل الأزرق؟ أرى أن تلتفت إلى «أنهي» عسى تجد في لسان الأجداد حكمة تلهمك الرجلة والصبر.

همهم الزعيم بصوت متعب، مخنوقي:

ـ ما عدت أستطيع. النداء غلبني. النداء حار كالنار. لماذا لم تقتلني بالأمس؟ أنا أعرف أن الفرص قد واتتك أكثر من مرّة، فلماذا أهتني؟ لماذا عاملتني كطفل؟

ـ لأنك طفل الآن يا سيدنا الشيخ. طفل حقيقي. لأنني على قناعة أن الأطفال الحقيقيين هم رجال حقيقيون. وهذا المرض لا يصيب إلا الرجال الحقيقيين.

ـ ولكنك تعرف أنني لن أتراجع عن قتلك إذا ساعدني القدر ومكنّتني منك.

ـ أعرف.

ـ لماذا ترفض أن تعاملني بالمثل؟

ـ لأنني جئت كي أمنعك من العودة إلى القبيلة لا لكي أقتلك.

ـ ولماذا تخافون من عودتي إلى القبيلة؟ خبرني بالله.

ـ لأننا نعرف، والكل يعرف، أن الطريقة لن تستقيم، ولن يذهب الناس وراء المذهب ما دمت تدب في السهل. حاولت أن تربى الناس على العربية طوال السنوات الماضية ونجحت في ذلك.

ـ ولماذا تريدون أن ترجعوهم عن صراط الحرية؟

ـ لأننا نرىكم هم أشقياء في هذا الطريق.

ـ منْ قال إنهم أشقياء؟ هذا وهم في رؤوسكم.

ـ لا. ليس وهماً. لا يقدر كل الناس أن يحملوا هذا الوزر. إنهم بؤساء.

- المؤس في رؤوسكم. في مذهبكم.

.....

- ولكنني سأعود. سأقتلك وأعود.

- أنا أعرفك. لن تستطيع أن تقتلني إلا بالغدر. ولن تغدر لأنه عمل يخالف طبيعتك. يخالف مبدأ النبل.

- سأقتلك بالسلاح. بالسيف أو الرمح.

- لن تستطيع. لم تتقن يوماً فنون الحرب كما لم تتقن فنون الحب وإطراء النساء.

- هيَا نتصارع. لماذا لا نجرب المصارعة؟

جرى الحوار كله أثناء العناق. راقبهما برقة من المرتفع وهما يتمايلان ويتهامسان، فاستمرّ يضرب كفًا بكفٍ ويردد: «أطفال. أقسم بأمناي أنهم أطفال». وفي كل مرة تلا النطق بالقسم، يسارع لوضع يده الخشنة على فمه خوفاً من أن يصل القسم ياله المجروس إلى الآذان.

مسح كل منهما الدموع خفية عن الآخر، ثم.. اشتبكا في المصارعة.

(١٣)

استغرقت المصارعة الأولى النصف الأول من النهار. وفي اليوم الثاني استمرّ النهار كاملاً بتصفيه مع التزام بالقليولة وراحة قصيرة تناولاً فيها غداء خفيفاً صنعه برقة من حسأ الشعير، للتواصل المشادة مع العشية. لا يعرف الزنوج، ولا بوبو نفسه، من أين كان الزعيم الذي تجاوز الستين، يستمد قوّة تمكنه من المقاومة وهو الذي يصوم عن الطعام ولا يكاد يقتات شيئاً. كان يطوق خصمه بيديه الهزيلتين ويطوّح به بيميناً ثم شماليّاً، ثم يرفعه عن الأرض ويلقي به عالياً في الهواء معززاً نفسه بصيحات بطولية تشجيعية. ولكن بوبو كان يعود إلى الأرض واقفاً على قدميه في كل مرة مثل

هرة. ومع نهاية كل شوط ينفّس الشّيخ عن نفسه بالشّتائم، فيقول غاضباً:
- أنت جنّي يا بوبو. جنّي من الأتباع. أهلكك الله!

وعبارة «أهلكك الله» شائعة بين سادة القبيلة وموروثة عن الأسلاف الذين تعودوا أن يداعبوا بها أبناء الأتباع. وانتشرت في الصحراء الوسطى شريعة ضمنية تجيز استعمال هذه اللعنة ضد كل من ينتمي إلى قبائل مثل «كيل أوللي» أو «إيمقيرغسن» أو «إيمغاد» وما شابه هذه القبائل. وكان الثعلب بوبو يحس، بحدّق الأتباع وفراستهم، أن قلب الشّيخ يزداد ليناً كلما روح عن نفسه باللعنة التقليدية فيتهجّ ويفرح ويداعب الزعيم:

- قلت لك لن تغلبني. لا أنكر أني رضعت حليب الجنّيات في الكهوف ولكن سرّ قوتي ليس هنا.

يرمق الشّيخ بخث ويفمز برّكة موضحاً:

- السرّ في أمرتين: أولهما أني لم أرفض الامتناع عن طعام شهي أبداً، وثانيهما أني أبكي دعوات الحسان وقد تزوجت حتى الآن ثلاث عشرة امرأة! أهلكك الله!

- هيء... هيء... شرطان تعجيزيان كما ترى، لن تستطيع تلبيتهم.

- أهلكك الله!

أصبحت الأيام التالية مسرحاً للدعابات وتبادل النكات برغم استمرار المصارعة. ولكن بوبو اطمأن إلى انحسار موجة الحنين في قلب الشّيخ. حاول أن يلهمه لكي ينسيه و يجعله يسلّم بقدره. ولمّا كان «أنهي» قد نبه إلى قدرة اللسان على الانطلاق إذا تعطل الإنسان وأجهد الجسد فقد قرر بوبو أن يستعمل هذه الحكمة الذهبية في علاقته بالشّيخ.

وحتى بعد انقضاء شهور، في ذلك الزمن الذي شهدت فيه صحة الزعيم تحسناً روحياً ملحوظاً، فإنه لم يتوقف عن تكرار لعنته: «أهلكك الله»

ويعقبها بجملة دمودية كأن يقول: «سأقتلك يوماً ما. ستموت على يدي. سوف ترى. إذا عجزت عن ذلك بالقوة فسوف أتركك تناه ثم اذبحك أو أسلط عليك بركة كي يخنقك بيديه الخشتين، وأنت تعرف أنه لا يجيد إلا الخنق!». فيرد بوبو على الدعاية بعبارة الفاسية: «هذا اسمه غدر في شرع الصحراء، وأنت لن تستطيع أن تغدر قبل أن تتجزأ من النبل». يستسلم آده ويكلّم نفسه بحزن:

«نعم. النبل قاتل. قتلتني. النبل سُمّ السادة».

في إحدى الأمسيات الرائعة التي يتكامل فيها البدر وبهب النسم البحري من الشمال البعيد سُل الزعيم وهو يستلقي في العراء ويراقب القمر والنجوم:

- إلى أين تنوون أن تقودوا القبيلة بطريقكم؟

أجاب بوبو بلا تردد:

- إلى الله.

- ولكن الطريق إلى الله يمر من باب الحرية.

- أنا أتحدث عن خاتمة المطاف وليس عن الخلاص الديني. الخلاص الديني، أو ما تسميه الحرية، ما هو إلا حلقة في الطريق.

- وهل يتحمل الناس مشقة الطريق وأنت تشفقون عليهم من وزر أرآه أخف عبئاً وهو الحرية؟

- الناس أغلبهم ذهماء، غوغاء، لا يرون أبعد من أنوفهم، ولن تصل بهم إلى أي مكان إذا ظللت تستشيرهم وتحاول أن تعاملهم كعقلاء. عندها يغترّون، ويعطون لأنفسهم حجماً أكبر من حجمهم الحقيقي فتحاجّون، ويتجحّون، ويتطاولون ويعتدي بعضهم على بعض وعلى حامل لواء المسيرة نفسه قبل أن يبلغوا منتصف الطريق. وحتى لا يضيّعوا أنفسهم

وجب الإبقاء على السر سراً والخفيف عنهم بأرغفة خبز الشعير قبل بلوغ
واو الميعاد.

- هل تدعونهم، في الطريقة، أيضاً بـ «واو»؟.

سكت بوبو لحظة قبل أن يجيب:

- وما هي «واو» إذا لم تكن رحاب الله تعالى؟ لقد رأيتها في الوجود
دائماً.

- حقاً؟ هل تظن أن هذا الصراط سيفضي إلى «واو» حقاً؟.

- «واو» ليست في السماء يا شيخنا، وليس في الأرض أيضاً. إنها هنا
في هذا القفص البائس. أنت لا تستطيع أن تخيل كم في هذا القفص من
كنوز.

- أرى أنك تعلمت أشياء كثيرة في سردىس.

- تعلمت من الصحراء أكثر مما تعلمت من سردىس.

سكت؛ فهَمِّنَ صمت. عاد بوبو:

- أردت أن أسألك: ألم يصرعك الغناء أبداً؟ أقصد ألم تقع في الوجود؟

- كنت أستطيع أن أدعى الحالة كما يفعل أكثر الحمقى في الصحراء
ولكنني لم أفعل خجلاً.

- أنا لا أعني الوجود المزيف. أنا أعني الوجود الحقيقي، وجد المجانين
والدراوיש والمعزلة.

- لا أخفي عليك. الله حرمني من الكشف كما حرمني من قول الشعر.
رأسي بارد مثل حجر الكهوف.

- حرمت شيئاً لن يعوضه العقل البارد. لن تعوضه الحكمة. حرمت قبس
السعادة.

- هرّتني أغنية آيرية مرة وأحسست بقلبي يحترق ورأسي يفسور. نزفت عرقاً كثيراً ولكنني لم أقع ...

- لو وقعت. لو تركت جسدي يسبح لطرت في السماء ورأيت «واو» في القفص.

- هل رأيت الله أيضاً؟

سكت بوبو، التفت نحوه الشيخ استعداداً لتلقي الإجابة فرأى كيف لمعت الدموع في عينيه تحت ضياء القمر. تتمم بتعويذة غامضة. تعويذة الطريقة :

- منْ أذاع سرَّه عوقب بالخسران، ووْجَد نفْسَه في الجَبَّ. كنت أتحَدَّث عن «واو».

- وكيف هي؟

- وكيف تكون أرض ذي الجلال؟ ليست بستانًا فقط وليس الصمت لغتها الوحيدة، كما أن الذهب ليس كنزها الوحيد. هذه «واو» الغوغاء.

- حدَثَني عنها.

- يعجز البيان عن الوصف. كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة^(*).

- هل كنت سعيداً؟

- إلى حد أني تمنيت ألاً أعود أبداً.

- تمنيت أن تحطم القفص؟

- نعم. تمنيت أن تتكسر قضبان القفص ليتحرر طائر النور ويعود إلى أصله.

تنفس بعمق وقال ببطء:

- ها أنت تتكلّم لغتنا. العقل أيضاً بحر كبير.

(*) كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة: موضعية محمد التفري الشهيرة.

ـ ولكنه أبد من حجارة الحمادة في ليالي الشتاء. علينا ألا ننسى أن قوته في بروده.

هيمن الصمت. أنصتا للسكون الجليل. نام الزنوج وتوقفت الجمال عن الاجترار. ولكن الرفيقين استمرا يراقبان زحف القمر وحركة النجوم.

(١٤)

استسلم الرعيم للأسر كما سلم قبلها بالمنفى. داوم بوبو على ملاطفته وتسليته وإلهائه بالمداعبات كي ينسى، ولكن العنين ظل نارا حية تحت جثمان الرماد. يشتد حيناً فيعتزل في خلاء مقطوع ويصوم عن الطعام والكلام، ويختبئ حيناً آخر فيعود إلى مرحه ومشاكسته لبوبو مردداً: «أهللك الله». توقفا، في ذلك الأوان، عن التلامح والاشتباك الجسدي، واقتصر الخلاف على لغة الكلام. وذهبا في إحدى المرات إلى «دبابة» حيث تبدأ حدود المتأهله الرملية التي تقع القبيلة على حدّها في الطرف الآخر. ورأى الزنوج في بادرة بوبو مرونة ولينا عن الموقف القديم حتى أنه داعبه ذات مساء:

ـ أنفاس القبلي التي تزفر بها الصحراء تكفي لامتصاص آخر قطرة ماء من جسم كل كائن حي يدب على قدمين كما تكفي لإبادة كل نبات الأرض، فلماذا، يا شيخنا، تنسى، بل تصر، على العودة إلى منابع الصهد؟ تجد نفسك في الحمادة مرفوعاً إلى السماوات بأعمدة الجبال، تهب عليك أنفاس البحري وتأكل الترvas والجرجير والحمضة وتستنشق زهور الرّتم، تهجم في ظلال السدر وتعيش السكينة وتمد يدك لتنقطف النجوم التي تتكاثر في غيبة القمر في الأمسيات. وبعد كل هذا تلوى العصا في يد ذي الجلال وتبارزني لأنك تريد أن تيمم شطر جهنم. فلماذا، بالله، تقاد إلى الجنة بالسلالس؟ لماذا يقاد الناس إلى الجنات بالسلالس؟ لماذا يقاتل الإنسان للهروب من الفردوس إذا كان عليه أن يشقى، بعد الخروج، ويملا الدنيا عوياً ونواحاً كي يفتحوا له الباب؟

أجاب الشيخ :

- في البداية أراد الخروج من باب الفضول. صَعَبَ عليه أن يعيش معصوب العينين غافلاً عما يدور خارج الأسوار. واستغل الوسوس الرجيم هذا الضعف فهمس له، عن طريق امرأته، بأن الجنة معتقل، و«واو» سجن كبير لن يفوز بالسعادة إلا إذا خرج وتحرر منه. لقد خرج جدنا الأول من «واو» الفردوس سعيًا وراء الحرية. وعندما خرج وعرف وضاع ووجد نفسه في الصحراء القاسية عاد على عقيبه ودق على بوابة السور، ولكن الباب كان قد أغلق في وجهه إلى الأبد.

هَبْ بُوبُو وَاقْفَاً :

- ياربِّي؟ هل تظن حقاً أنه خرج بحثاً عن الحرية؟

- نعم .

- ولماذا اعتبره السلطان الأكبر عصياناً إذا اتفقنا أن الحرية هدف نبيل؟

- وماذا يمكن أن تسميه؟ إنه تمرد على الإرادة السامية التي شاءت أن تحبسه في صدفة سماوية بلا هموم، ولكنه أراد أن يكسر الصدفة وينفذ إلى الخارج، إلى العراء الأرضي، ليعرف ويرى ويجرّب ويأخذ الأمر على عاتقه، فكان العصيان، وكانت، هنا، الخطية الأولى. وعرف ذلك عندما أراد أن يعود إلى البيت من رحلته الاستطلاعية. غضب رب البيت وأغلق الباب في وجهه، فعاش ضائعاً، باحثاً، شقياً، ممزقاً بين السماء والأرض، بين البدن والروح، بين الصحراء و«واو».

ابتهج بُوبُو وَقَالَ مَأْخُوذًا :

- إذا كان الأمر كذلك فإن الخروج ليس لعنة. إذا خرج بحثاً عن الحرية فلا بد أن يكون هناك خطأ ما. لا بد أن يكون خروجاً نبيلاً وشجاعاً. أليس كذلك يا شيخنا؟ .

أجاب الشيخ بخيبة :

- ولكن لا تنس أنه عصيان. تمرد على إرادة رب البيت. هذا سبب ازداج الجنين. وهذا سبب تزايد أولئك الذين يُقادون إلى الجنات بالسلسل. إذا دخلوا الجحيم ركضوا إلى الخارج وبحثوا عن الفردوس. وإذا دخلوا إلى الفردوس حنوا إلى الخروج من القوقة والعبور إلى العراء الفسيح.

تمتم بوبو بدهشة طفولية:

- سبحان الله. هل الجحيم ضروري إلى هذا الحد؟

- أليس هو الصحراء؟ كيف تتصور الحياة بدون صحراء؟ هل كنت تستطيع أن تنفس إذا جسوك وحجبوك عن الصحراء؟ أنا لا أستطيع.

همس بوبو لنفسه بعد لحظة تأمل:

- أنا أيضاً. أعترف أنني لا أستطيع.

سكت زمناً ثم رفع رأسه بسؤال شرس:

- هل الحرية هي الجحيم؟

أجاب الشيخ بلا تردد:

- نعم. منْ أراد أن يعيش حراً عليه أن يقبل بالحياة في الجحيم، في الصحراء. الصحراء جحيم جميل لأنّه جحيم الحرية. فهنا فقط عليك أن تدفع ثمن الحرية القاسي: عليك أن تحمل المسؤولية كلّها وتتولى الأمر بنفسك. تواجه الموت في كل لحظة لأنك لا تنتظر إحساناً من أحد. تنتقل لوحشك، وتقاتل مع الوحش لطعم نفسك، وتدافع عن نفسك بنفسك، وتواجه الخطر لوحشك، و... تموت لوحشك. كل هذا لأنك اخترت الصراط الصعب الذي يهرب منه كل الناس. صراط العزلة والحرية!

- هل تشتق للسهل وتتوّب للعودة إلى الصحراء الوسطى لهذا السبب؟

- نعم. لا أنكر أن الحماده نعيم، ولكن نداء الصحراء الحقيقة أقوى

لأنه نداء الحرية، والحنين هو الذي يحول هذا الجحيم إلى نعيم، لأن حريرتك تتضاعف كلما توغلت في الصحراء.

ردد بوبو بروح مأمونة:

- أقسم أن الخروج لن يكون كفراً إذا كان في سبيل الحرية. الجد أراد أن يعرف فوجد نفسه في الصحراء.

- إننا ندفع ثمن الضياع. ثمن التمزق القديم. الاغتراب الأول.
في «دبابة» زفر الجحيم، وتحرّكت الرملة بأنفاس القبلي.

(١٥)

وطّدت روح التسامح علاقتهما فجاءت أنباء المذبحة في «تيمونوكالين». في ذلك العام لقي بركة حتفه متأثراً بلدغة أفعى، واختفى من الصحراء، كما اختفى قبله خميدو في أدغال «كانو» واصعاً خاتمة غامضة لرحلاته التجارية إلى بلاد السّحرّة.

بعد أيام من توغل أخبار المذبحة في الحمادة اختفى بوبو أيضاً.
التجار أول من جاء بالخبر. قالوا إنه هلك مع جيشه هلاكاً خفياً، على يد قوى مجهولة.

وطبيعي أن أحداً لم يصدق هذه الرواية الأسطورية. ثم أقبلت قافلة أخرى وقال التجار إن أولاد آوى الأشقياء ركبوا عجاجة ماردة وحاصروه في «تيمونوكالين» انتقاماً للفظائع القديمة التي أنزلها في قبيلتهم. ولكن الرّعاة الحكماء قالوا شيئاً آخر. وبدأوا رواياتهم الشيقة من «صندوق النّحس» وأكذّوا أن الجن وراء الغارة. ورووا كيف أن الناس كانوا ينتظرون أن يحدث شيء شبيه بما حدث، وإن قصر خيالهم عن تصوره بهذه الشّاعة، منذ حصل شيخ الطريقة على الصندوق كهدية من أحد التجار. وذكروا ما يُقال من أن العرافة «تيميط» وراء الهدية الخفية. ولا يُستبعد أن يكون التّر

تعويذة سحرية. وقال الرعاء إن الدُّهَاه يقولون إن العِرَافَة ليست في حاجة لأن تنفح فيه من روح السحر والشياطين لأن التَّبر، حسب الميثاق القديم، حَكْرٌ على أهل الخفاء. ويبدو أن العقلاً تعمَّدوا أن يخفوا السرَّ عن الشِّيخ، فوجد الجن أنفسهم مجبرين أن يتولوا الأمر ويتقموا منه جزاء استيلائه على حفنة الغبار المسكون وخيانة العهد.

بعد ثرثرة الرعاء خرج بوبو إلى العراء لاستنشاق زهور الرُّتْم وترك الرعيم يستجوب كيدهم عن مأساة القبيلة وحال الشيوخ.

خرج قبيل المغيب وعاد مع حلول هزيع الليل الأوسط. أنصت لأنفاس الشِّيخ فعرف أنه يرصد النجوم في الظلمة. ذهب إلى الموقد وأشعل النار. ترَّى وأخرج الترَّفاسة. كانت من نوع الجباء الأحمر. قلَّها في ضوء اللهب وتفحصها طويلاً. أزاح لثامه عن أنفه واستنشق الكمة. سحب من عطرها الخرافي نفساً عميقاً، طويلاً، متواصلاً، مسبلاً جفنيه. ثم عاد يقلبها في ضوء النار. قال كأنه يواصل حديثاً لم ينقطع:

- عثرت على جوهرة من كتز كدنا نیأس من العثور عليه هذا العام.

تابعه الشِّيخ من تحت لثامه ولكنه لم يتحرَّك ولم يجُب.

اقترب بوبو دون أن يتوقف عن فحص الجباء:

- سأعد الشاي. أردتك أن تشاركني الاحتفال. عثرت على ترَفاسة قبل نهاية الربيع.

تقلَّب الزعيم في العراء واستمر بوبو:

- لا يطمع الصحراويون بأكل الترَفاس في ربيع لم تسبقه الأمطار في فصل الخريف. والعثور على الترَفاس في موسم لم تسبقه أمطار الخريف كالحصول على كتز دون فك الطليس.

نهض الشِّيخ. عَدَّل من وضع لثامه حول وجهه وزحف نحو النار. مدد يده وتناول الترَفاسة من بوبو. تفحصها بين يديه. متوسطة الحجم. حمراء

تميل إلى اللون الرمادي. موشومة بخطوط غامضة تضاعف من سحرها وجمالها. في قعرها نتوء تعلوه حبيبات من رمل وطين. قربها الشيخ من أنفه واستنشق العبير. أغمض عينيه وردد كالمجذوب:

- الله! الله!

قال مغمضاً عينيه، رافعاً رأسه نحو السماء:

- سحابة عابرة مررت من هنا في الخريف الماضي. سحابة عابرة خصتك بالجوهرة.

وضع بوبو وعاء الشاي فوق النار. قال فجأة:

- الآن لن يوقفك أحد. تستطيع أن تفوز بالجحيم متى شئت. تبادلا نظرة سريعة. الزعيم لم يرد. استمرّ يمتع بالشمرة الخفية مثل طفل حصل على لعبة مثيرة.

استفربَ بوبو:

- تستطيع أن تنتقل حرراً في الجحيم.

ثم اقترب من الشيخ حتى عجز الزعيم أن يتحاشى نظرته المجهولة. قال بوبو بصوت راحف:

- أول ما تعلمناه من الطريقة هو قراءة لغة الإشارة. هل تدرى ما معنى الحصول على ترفة وحيدة في موسم لا يوجد بالترفاس؟

مال برأسه أكثر حتى تلامست العمامتان. همس:

- هذه إشارة الخلاص. الخلاص على طريقتنا نحن الدراوיש. أنت تراه في حياة داخل الجحيم الصحراوي، ونحن...

ابتعد بوجهه قبل أن يكمل جملته.

في الصباح اختفى.

في طريق العودة مرّ على «سردلس». هناك أخبره شيخ الواحة كيف قام بوبو بتحرير الروح من المعتقل في حفلة ذكر تبارز فيها سكارى الوجد بالسلاكين وتراهن المریدون والمجذوبون في تسديد الطعنات إلى القلب لتحريره من الأسر. في تلك الجولة كان بوبو الفائز الوحيد. وروى الشيخ أنه تمكّن، بصرة واحدة، أن يخرج قلبه من صدره دون أن تقطر منه نقطة دم واحدة ويريه لسكارى الوجد في ضوء النار.

رافقه شيخ الواحة إلى الزاوية القادرية. في الواجهة شاهد آده الراية، شعار الزاوية القادرية، منكسة فلم يعرف عما إذا كان ذلك حزناً على المريد بوبو أم على فقيد الطريقة الأكبر.

خرج شيخ الزاوية لاستقبالهما في ساحة فسيحة مظللة بثلاث نخلات ذات سيقان حلقة، رشيقه، باستقمة. دعاهم شيخ الزاوية للجلوس في الظل وجاء أحد المریدين بمنقل النار وعدة الشاي. تحدث شيخ الزاوية طويلاً عن التجارة والمجاجعة والقبلي وغدربني آوى والمحبة وعقائد المجنوس والمنفى و.. الله. ولكنه لم يأت على سيرة المجزرة وتعمّد أن يغفل الموت. وعندما همّ آده بالانصراف استأذن شيخ الزاوية لأخذه على انفراد. انكسر سلطان الجلاد الأبدي وبدأ قرص جهنم يحتضر ليأوي إلى مثواه اليومي. سارا في الخلاء المفروش بسجادة من الحصى، ممتنداً نحو سلسلة الجبال. قال شيخ الزاوية:

- لا يفوز بشعلة النار ويكتب المشوار إلا من صبر على الجمرة في حجره.

رد آده بعد صمت:

- لا أفهم.

فعلق شيخ الزاوية كأنه انتظر الرد على أحججته الغامضة:

- لم أستخدم توريات الدراوיש وألغازهم في لغتي. صدقني. أردت أن
أقول إنك صبرت على البلاء فرد لك الله قبيلتك..

- ردّها.. شتات وخراب، أرامل وأيتام.

- أستغفر الله. في كل مصاب حكمة. في الضّرّ نفع، وفي المكروه خير
وسرّ.

- ولكن.. انتظر. أراك لا تشارك شيخكم الأكبر الرأي برغم أنك شيخ
زاوية قادرية.

ابتسم الشيخ قبل أن يرد:

- في كل طريقة نقىض. والحياة هي التي علمتنا أن لا شيء يستقيم دون
وجود الصّدّ. الله أوجد الحياة بقانون النّقائض، بالذكر والأنثى. وطريقتنا
أيضاً تتمتع بالعافية لأن فيها أصداداً:

- الحقّ أني كفرت بالقادريّة عندما رأيت الشيخ الأكبر الذي عاهدنا على
صراط الحرية ووعدنا بأن يعيدها إلى منابع الدين ينقلب إلى سلطان دنيوي
مثل سلاطين بني عثمان. فهل الفساد، يا ربّي، في الناس أو في
المنصب؟.

- في كلّيّهما. في النّفس وفي المكان. وخلافي مع الشيخ الأكبر ليس
في تعاليمه ولكن في نفسه الأمّارة بالسوء. إعلم، يا شيخ آده، أن المصلح
والحاكم لا يجتمعان في قلب واحد. لأن كفة الحكم أرجح وأقوى. أمام
المصلح الحقيقي طريق واحد: المغاربة. الصحراء. العزلة. فإذا انقاد
للوسوس مرة، وخرج من صحرائه، إلى الناس، فإنه يضيع، لأن الشّيطان
سيستولي على المبادرة ويتولّي الأمر.

- هل ت يريد أن تقول إن إبليس هو الذي قاد شيخ الطريقة؟
- ومنْ غيره؟

أفلتت ضحكة مريمة من آده. همهم في دهشة:

- أقسم أنك أكثر تطرفاً مما ظنت. أنت أكثر تطرفاً مني.

- أنت تواضع ياشيخ آده. سرّ قوتك في هذا التواضع. أنت تعلم أنك لم تكن متطرفاً في يوم من الأيام. ولو حَرَمَكَ الله من عبقرية الاعتدال لفبضت الرياح، كما قبضه كل المتطرفين، ولما حفقت ذرة من نبالة أو صبت مما تغنى به اليوم حتى الصبابا في الصحراء. ولكن دعنا من هذا. فقد دعوتك في أمر آخر.

توقفا. انتظر الرعيم. تبادلا نظرة خاطفة. بدأشيخ الزاوية :

- لماذا تكابر وتخفي فضولك؟ لم تسألني كيف تحرر القادرى الحقيقى من سجن البدن والأرض والناس.

- ببوب؟

- نعم. القادرى الحقيقى.

- تقول عنه حقيقى وهو من أكبر المؤمنين بالشيخ الأكبر؟

- بل هو حقيقى لهذا السبب. حقيقى هنا معناه: بكر، بتوول، طفل. ولذلك آمن بالشيخ الأكبر بعماء. وعندما اكتشف أن إبليس هو الذي يقود تصرفات الشيخ كان قد توغل بعيداً ووجد أن التوبة مستحيلة. هل تعرف لماذا؟ لأنه ارتكب إثماً لم يقدر أن يغفره لنفسه.

توقفشيخ الزاوية عن المشي، وواجه آده بعينين كثيبتين، زحف عليهما البياض بسبب الزهد والاعتزال الطويل.

قال بحرارة مفاجئة :

- الإثم ارتكبه في حبك أنت.

نكس الرعيم رأسه. نزلت غلالة على رؤوس الجبال فأغارت للسهل العتمة.

قالشيخ الزاوية :

- لم يغفر لنفسه أنه حرّمك من الدخول إلى الصحراء الوسطى والعودة للقبيلة طوال هذه السنوات، ولكنه اعترف لي أنه حَرَمَك من العودة للحرية. وليس من سبيل في الدنيا لإصلاح هذا الخطأ.

- إنه يبالغ. بالله رحمة الله. صدقني.

- لم يسدّد الطعنة للقلب إكرااماً لك، وإنما أراد الخلاص هرّباً من بذل ملوّث بالإثم. حدّثني كيف رفع في وجهك السيف حتى لا يدعك تعبّر الجبال الزرق. ثم.. قرأ العلامة في الترفة.

- الترفة؟

- قال إنه عثر على الترفة عقب مصرع الشيخ الأكبر أيامه. ورأى أنه إذنُ إلهي بالخلاص.

- لا حول لله.

- أخبرني أيضاً عن رأيك في الحرية. وقال إنكم اتفقتما أنها لا تتم إلا في الجحيم.

- الجحيم؟

- أقصد في الصحراء. وما هي الصحراء إن لم تكن جحيم؟ هل تستطيع الصحراء أن تؤوي الزهاد وتتصبّح واحة المعتزلة لو كانت بستانًا أخضر؟ عندها ستتصبّح جنة الدّهماء وفردوس المجروس.

وافقه الزعيم بهزة من رأسه وأنصت للسكون.

٢- الشكوة

«عن الإله جسد الإنسان من الطين وصعد إلى السماء كي يعود له بالروح لإحيائه، تاركاً خلفه الكلب لحراسة البدن أثناء غيابه. في هذا الوقت جاء إبليس ونفع في الكلب ريشاً باردة فخدرته. دثراه بقططه من فرو حتى يضعف يقظته، ثم بصر على بدن الإنسان وغمراه بالفاظورات إلى حد جعل الإله يشعر باليأس لاستحالة تطهير الجسد من العفن الشيطاني. من هنا قرر الإله أن يقلب جلد الإنسان و يجعل ظاهره في باطنه. هذا هو سبب عفونة باطن الإنسان».

نقرأ عن جيمس فريزر. «الفنون الذهبيّة»
من أساطير الهنود الحمر
«الفلكلور في التوراة»
المجلد الأول من الموسوعة الثالثة

(١)

لم يزره الشيخ لأنهم رأوا أن مرضه ليس ككل الأمراض. الداء معيب ولا يُعرف به في شريعة النساء. ما أعجب هذا التناقض في سلوك الشيوخ النساء! لا يعترفون بالرجل ولا يسلمون ببنالة الفارس إلا إذا وقع في العشق وعبد النساء، فإذا صرעה العشق، وسقط مريضاً احتقروه وسخروا من آلامه. فالفارس ليس فارساً إذا لم يعشق، وهو يكفي عن أن يكون فارساً أيضاً إذا غلبه العشق. العشق ساحة أهل الصحراء لاختبار الفرسان: من صمد فيها نجا وفاز بالمجد، ومن خر وركع نال الاحتقار وقصائد العار.

عرف أنهم يتلقّطون أخبار حاته، بل إنه لاحظ كيف حام بعضهم حول الخبراء في الليالي الظلماء.

في الأيام الأولى للحُمَى بعثوا له بالشاعرة فعزفت له ألحاناً شجنيّة فزادت الحُمَى واشتعل جسمه بالنار أكثر مما سبق. جاءت فرقة الصبيّا وقمن بعزف الألحان المخصصة لإرواء أهل الوجد والجذب والواقعين في قبضة الجنّ. نام ليتلها بعد انسحاب الصبيّا ولكن لونه ازداد شحوناً وذبولاً في الصباح. عادت الصبيّا مع المعيب فقام آخِماد وطردهن من الخبراء.

ساعتها رأى العقلاء أن يرسلوا الإمام.

أقبل في أمسيّة عتماء، يدحرج الحجارة بنعله القديم، ويحاول، طوال

الوقت، أن يثبت لثامه الأبيض على أربنـة أنـه المـعـقـوفـ. الشـاشـ يـنـزـلـ مـنـ الأـرـبـنـةـ حـتـىـ يـسـتـقـرـ عـلـىـ الشـفـتـيـنـ فـيـ كـلـ مـرـةـ. وـلـكـنـ الإـمـامـ لـاـ يـكـفـ عـزـ المـحـاـوـلـةـ، فـيـعـاـوـدـ شـدـ الطـرـفـ إـلـىـ الـأـنـفـ. اـنـتـهـ جـمـعـ الشـبـانـ الـذـيـنـ تـحـلـقـ فـيـ مـدـخـلـ الـخـبـاءـ، وـأـشـارـ لـأـخـمـادـ أـنـهـ يـرـيدـ أـنـ يـتـحـدـثـ إـلـىـ الـمـرـيـضـ عـلـىـ اـنـفـرـادـ. جـلـسـ فـوـقـ رـأـسـ «ـأـوـخـاـ»ـ بـجـوـارـ الرـكـيـزـةـ وـتـمـ بـأـيـاتـ الـقـرـآنـ. تـسـلـ بـحـيـاتـ الـمـسـبـحـةـ حـتـىـ اـبـتـدـعـ الشـبـانـ عـنـ الـخـبـاءـ. قـالـ فـيـ الـظـلـمـةـ:

ـ يـؤـلـمـنـيـ أـخـبـرـكـ بـأـنـ الشـيـوخـ مـسـتـأـوـنـ وـيـرـوـنـ أـنـ هـذـاـ لـاـ يـلـيقـ.

سـكـتـ أـوـخـاـ طـوـيـلـاـ قـبـلـ أـنـ يـعـلـقـ بـصـوـتـ نـالـ مـنـ الـجـوـعـ:

ـ وـهـلـ يـمـلـكـ الـعـبـدـ اـعـتـرـاـضـاـ أـمـامـ مـصـابـ الـلـهـ؟ـ الـمـرـضـ هـوـ الـمـرـضـ.
رـسـوـلـ رـبـيـ.

ـ مـرـضـكـ لـيـسـ كـكـلـ الـأـمـرـاـضـ.

ـ مـرـضـيـ أـسـوـاـ الـأـمـرـاـضـ!

ـ أـيـنـ أـوـخـاـ؟ـ أـيـنـ إـرـادـتـهـ الـتـيـ نـالـتـ مـنـ مـجـوـسـ الـأـدـغـالـ؟ـ أـيـنـ يـمـيـنـهـ الـتـيـ
كـسـرـتـ شـوـكـةـ بـنـيـ آـوـيـ؟ـ أـيـنـ أـوـخـاـ الـفـارـسـ؟

ـ إـرـادـةـ الـفـارـسـ تـنـفـعـ مـعـ مـجـوـسـ الـأـدـغـالـ وـبـنـيـ آـوـيـ وـلـكـنـ هـلـ تـصـلـحـ،ـ بـاـ
سـيـدـنـاـ الـفـقـيـهـ،ـ مـعـ أـمـيـرـاـ آـيـرـ؟

ـ أـنـتـ سـبـبـ كـلـ مـاـ حـدـثـ.ـ ظـلـلـتـ تـرـاـوـغـ وـتـحـوـمـ حـوـلـهـ حـتـىـ لـعـ بـرـأـسـهـ
وـلـدـ الـأـتـابـعـ وـخـطـفـ قـلـبـهـ مـنـ بـيـنـ يـدـيـكـ،ـ فـحـدـثـ مـعـكـ كـمـاـ حـدـثـ مـعـ الـهـرـةـ
الـتـيـ اـصـطـادـتـ فـأـرـأـ.

ـ تـنـحـنـحـ وـسـعـلـ وـاسـتـمـرـ:

ـ فـيـ أـحـرـاشـ عـيـونـ «ـآـدـارـاـ»ـ رـأـيـتـ كـيـفـ اـصـطـادـتـ هـرـةـ صـغـيـرـةـ سـوـدـاءـ فـأـرـأـ
شـقـيـةـ.ـ وـبـدـلـ أـنـ تـفـرـسـهـاـ وـتـمـزـقـهـاـ بـمـخـالـبـهـاـ رـاقـبـتـهـاـ مـنـ أـعـوـادـ الـدـيـسـ كـيـفـ
بـدـأـتـ الـقـطـةـ الـخـيـثـةـ تـسـلـيـ بـضـحـيـتـهـاـ وـتـقـلـبـهـاـ بـمـخـالـبـهـاـ عـلـىـ بـطـنـهـاـ،ـ ثـمـ تـرـكـهـ

تفلت وتقطع مسافة فتلحقها وتمسك بها مرة أخرى. واستمرت الهرة «تلعب» بالفأرة المسكينة طويلاً، وفي لحظة قرر الفدر أن يقتضي من الهرة فقفرت الفأرة واختبأت في جحر. هل تدري ماذا حصل مع الهرة؟ نزلت الظلمة فقضيت ليلتي هناك، في أطراف الواحة، لأبكي في الغد إلى السوق. ولكن الهرة البلياء لم تتركني أنساً تلك الليلة. ظلت تموء وتبكي وتحوم حول الحفرة حتى الصباح، غير مصدقة أن الفأرة يمكن أن تنجو منها بهذه السهولة. ولكن الفأرة نجت بسبب استهتار الهرة نفسها. هل فهمت؟

.....

- المرأة كالفأرة، إذا وقعت بين يديك فانجُ بها، لأنك إن لم تفعل فستفلت حلاً، لأن ثمة رجلاً دائماً سيسبقك إليها، إذا لم تبادر في الوقت المناسب، ويخطفها من بين يديك.

- الحقّ أني انتظرت معونتك بحرزٍوها أنت تزيد من آلامي !

- المصاب الوحيد الذي لا يفيد فيه حرز. لم يعتدِ عليك جنّ ولا خرج لافزاعك شيج . ولا حيلة للفقهاء في مردّة الأفئدة. بينما وبينها حجاب كثيف يا ولدي . ولكن قلْ لي : ألمْ تجرب طريقة لإبعاد ولد الأتباع عن طريقها؟

- كف؟

- اطلبه للمبارزة. لن يلومك أحد إذا قطعت رأسه في مبارزة.

- بل سيعيرون على مبارزة ابن قبائل الأتباع. الفارس لا يبارز إلا الفارس.

سكت الإمام. تحرك القبلي فرمى في وجهه زوبعة مفاجئة من غبار. همهم بآيات أخرى لتطهير مركبات الريح من فرسان الجنّ، ونطق بأخر اقتراح:

- إذن لم يبق أمامك إلا الرهان.

- الرهان؟

- نعم. أقدم قاضٍ في الصحراء. ولكن انتظر: ماذا ستعطيني إذا
نجحت خطتي؟

نهض أوخا من الفراش. مده الأمل بالحياة وشع في عينيه بريق. قال
بصوت راجف:

- أعطيك. أعطيك ما شئت. اطلب!

- ثلاثة من النوق البيض ومهري و«إيلشان»^(*) جديدة.

- توقعتك أن تطلب أكثر.

- أنا رجل قنوع.

- والآن حدثني عن الرهان. هل هو من اقتراح الشيوخ؟

كُور الإمام المسبيحة في يده وقال بعد صمت:

- راهنه أن يصعد قمة «ايدينان».

هيمن صمت. سمع الإمام أنفاس أوخا المتتابعة، المتوتة. زفر الريح
فخفق الأنفاس. قال أوخا أخيراً:

- ولكنه شيطان الجبال. أنت تعرف أن أوداد^(**) كنيته وليس اسمه. سمه
أوداد بسبب براعته في تسلق الجبال. في هذا الرهان مخاطرة.

- هذا ليس شأنك.

- كيف؟

- في الأمر سر.

- سر؟

- هذا ليس شأنك. لا تثق بي؟

(*) إيلشان: طقم الثياب الزرقاء الاحتفالية.

(**) أوداد: الودان.

- وإذا صعد؟

- لن يصعد.

- إنه ودان يا سيدنا الفقيه. أنت لم تره وهو يصعد الجبل جرياً.

- لست في حاجة لأن أراه. أنا أثق بالله وبالسر.

- السر؟

- نعم.

- وما هو؟

- لن يبقى السر سراً إذا انكشف لاثنين. السر سر ما ظل في رأس مخلوق لوحده.

صمت العاشق. تكلم بعد زفرات:

- أخشى أن أخسر الرهان. سأفقد الأميرة.

قال الإمام بيقين:

- إذا كنت لا تريدين أن تثق بي فتفق بالسر. مَنْ لا يثق بالسر لا يثق بالله.

- أستغفر الله.

(٢)

ولكن قلب العاشق لم يطمئن. إذا خسر الرهان وتمكن الجني أو داد من صعود اللوح الحجري فإنه سيفقد معشوقته إلى الأبد. هكذا حدثه الوسوس في ظلمات تلك الليلة. ثناءب واسترخى حتى ظن أنه أغفى، ولكن الوسوس عاد وقال له قبيل الفجر همساً: «الحياة نفسها قمار. لا يفوز بها إلا مَنْ وجد في نفسه الشجاعة أن يقامر بكل شيء. حتى برأسه. لا ينقدر رأسه إلا مَنْ راهن برأسه».

تحير العاشق وتردد بين الوسواسين. الأول يحدّر وينذر والثاني يشجّر ويدفع.

زاره آخِمَاد فوجده في أسوأ حال. التذبذب في اتخاذ قرار والتردد في حسم أمر مَرَضٌ أسوأ من العشق.

تقدّم وكُم الحطب في الأرة. أشعل النّار في المدخل وجاء بأوانٍ الشاي من زاوية الخباء. قال:

- ظننت أن سلاح الفقيه أقوى من معاقل الجن، ولكنني أرى أن زيارتك لم تحسن الحال.

- قال إن العشق مارد في الفؤاد ولا صلة تربطه بالجن وبباقي المخلوقات الصحراوية الضارة.

- ألم يكتب حجاباً؟

- رفض واقتصر الرهان.

- الرهان؟

- قال لم يبق لي إلا دعوة أوداد لقبول رهان غامض: وضع قمة «ايدينان» قاضياً بيننا. إن صدّعها تخلّيت له عن المرأة وإن فشل انسحب هو من الساحة.

قفز آخِمَاد. هتف:

- هذا جنون. أوداد جنّي يستطيع أن يتسلّق السماء نفسها بدون رهان.

- الوسواس قال ذلك أيضاً.

- الوسواس؟

- النذير الخفي حدثي بأشياء كثيرة البارحة.

- على ذكر النذير. أقترح أن تنتظِر وترى بماذا سيشير. لا أعرف لماذا أشعر بميل إليه أكثر من ميل إلى الفقيه.

سكت أوخا. أرهقته المحاورة فسحب نفساً عميقاً، ثم سأله:
ـ النذير؟

- ـ وافق مجلس الشيوخ على تدخله البارحة.
- ـ وهل تستدعي زيارة النذير موافقة الشيوخ أيضاً.
- ـ لأنه لن يأتي في زيارة للاطمئنان أو المواساة وإنما للفحص والعلاج.
- ـ وهل يستطيع النذير أن يجد لغة مع مارد الفؤاد؟ هل ينجح حيث فشل الفقيه؟

ـ ولم لا؟ كل إنسان معقل فريد. النفس كنز، وفي قلب كل إنسان ينام سرّ كبير.

أسند «أوخا» رأسه بيديه النحيلتين، ومدّ جسده الذابل حتى ركائز الزاوية فتقفلّ قلب آخِماد من الشفقة. كان جسمه هيكلًا من العظام. تلألأ دموع في مقلتيه الغائرتين في محجرين عميقين وردد لنفسه:

ـ آه يا آخِماد. أنت لا تعرف كم افتقدت الزعيم. لو كان الشيخ آده
يبيتنا...

ولكنه لم يكمل. أسدل طرف العمامة العلوى على عينيه وسكت.

(٣)

طلب النذير أيضاً الاحتفاء بالمريض.

أقبل مع الغسق وحيداً. بدون عكاز. يقوده قلبه كما يرودق له أن يقول. يجرّ الرّفيفت^(*) على الأرض، ويبعد في ثنياياه الفضفاضة أكثر نحافة ونحولاً. تربع في المدخل. أخرج تبعاً مطحوناً مدموساً في صرة صغيرة

(*) الرّفيفت: الجلباب الفضفاض الأبيض الذي يلبس في الأيام العادبة.

من الجلد. تناول حفنة برؤوس أصابعه ودَسَّها تحت لسانه. طلب صرف الفضوليين وانتظر.

انتهى آخِمَاد من إبعاد الشَّبَان وعاد يتَرَفَّص في المدخل. راقب النَّذير وهو يتَسَلَّى ويلوك التَّبَغ ويحدِّق بعينيه الفارغتين في حمرة الشَّفَق. طال وجوم النَّذير ففهم آخِمَاد. قام وانسحب.

ابعد آخِمَاد فسمع أوخا صوت النَّذير:

- يقتات ابن آدم أثيل الطعام وأنقاه، وتنقتات البهائم أرذل الأطعمة وأسوأ الأعلاف، ومع ذلك فالغذاء النَّبِيل يتحول في جوف الإنسان إلى فضلات أكثر عفونة من روث البهائم. فهل تعرف لماذا؟

صوته نقى. فيه نبل وجلال ونبرة أخرى خفية. لم يخطئ الزعيم في اختياره نذيرًا للقبيلة وحاملاً للبشرة. تلذذ أوخا بنغم الصوت كما يتمتع بالعناء فغفل عن المعنى فلم يفهم. قال:

- لا أفهم.

- الإثم هو الذي حَوَّل فضلات الإنسان إلى سموم وعفونة وديدان. الإثم هو الذي سَمَّ البدن. فاعلم أنَّ المخلوق الآدمي كائن مشطور إلى جرابين، إلى قربين، أو فلنقل شكتوين. أَفْضَل الشَّكوة. البدن هو شكوة العفن والشهوات. وفي الرَّوح شكوة الإثم والخطيئة.

- يا حفظي!

- فماذا استهواك في الطفلة الآيرية: شكوة العفن أم شكوة الخطيئة؟ انتفض أوخا. عصرت قلبه يد جنَّية حتى نَزَف دمًا. نَزَّ جسمه بالعرق وطفق يرتجف. حاول أن يتكلَّم، أن يفتح، أن يستذكر، ولكنه عجز عن النطق.

نادى الصوت الجميل، كأنه ملاك من السماء أو رسول من الله:

- نعم. أنت لا تعيش حسناً من آير. أميرة فاتنة من أم خلاصية حشية.

أنت وقعت في غرام كتلة من اللحم والدم والشحوم والفضلات والسوائل الكريهة التي تثير الاشمئزاز. شكوة كبيرة من العفن. ها.. ها..

زلزل رأس أوخا الصداع. انكفا بجوار الركiza وبدأ يتقى أمعاءه الخاوية. ولكن الصوت الغنائي، الصافي، الجليل، لم يرحمه:

- ستحايل وستقول لنفسك: «أنا لا أعشق الجسد. أنا أعشق الجوهر النقى. أعشق الروح». هذه خدعة أخرى. هذه أكذوبة أكبر. فالشكوة الأخرى المخفية في شكوة العفن هي أقبح وأبشع. هي أصل البلاء التي أمرت جدنا الأول بالسوء فذهب وذاق الحرام. هي سبب ضياعنا في الصحراء وغريتنا الأبديّة. حسناً. ألم تغوك بنت آير وتستهويك قبل أن تهواها؟ والآن: مَنْ أشاح عنك بوجهه من أجل ذلك الشبح الأخضر الذي يسكن شقوق العجب؟ إن فتاتك الشيطانية تتلقى الوحي من شكوة الغواية والخطيئة.

صرخ أوخا بوحشية غريبة:

- اسكتْ. ابتعدْ. مَنْ أنتْ؟ هل أنتْ وسوس رجم؟

قفز إلى العراء. انحلّت عقدة عمامته فتهاوت إلى الأرض فجرّها وهرول في الخلاء. ثم انتبه إلى العمامة فتوقف فزعاً. غلبه التعب والهمُ فانهار وركع على ركبتيه محاولاً أن يلْفُ اللثام حول رأسه. أدركه النذير. وقف فوق رأسه وقرأ نبوءته القاسية كأنه يقرأ تميمة مجوسية:

- تهرب من الحقيقة فهل تستطيع أن تخرج من نفسك؟ تتعلق بالأوهام وتريد أن تبرأ من الذاء. ت يريد الخلاص بلا ثمن كأي عبد. أنت عبد. إذا أردت أن تشفى من السّقم، إذا أردت أن تستعيد النبل الصائع فاذهب الآن إلى تبشيري وقل لها: «أنت دم. أنت بول. أنت مخاط. أنت قيح. أنت دود. أنت فضلة أعنف من روث البهائم!». أعدُّ الآن وكرر ورأي إن كنت حرّاً...

إنكفا العاشق وعاد يتقى أمعاءه. توسل:

- لا أستطيع. هذا بشع. هذا رجس. ابتعد. إمش من هنا! .

- لن أمشي حتى تصير رجلاً. العشق كالخمر، وهو كذب. إذهب وقل لها: «أنت عفن يا تينيري فكيف أحبك؟». فإن عجزت فاعلم أنك لا ت يريد نفيق من خمر العشق، من الوهم والكذب، وإنما أى حرّ يستطيع أن عشق شكوة من الفضلات، وشكوة أخرى داخلها من الآثام؟ كرّرْ هذا في فسق عشر مرات ثم اذهب وقله في وجهها.

زحف أوكا على الحجارة مستعيناً بيديه. حاول أن ينهض على قدميه ولكن الوهن أعاده إلى الأرض فخرّ من جديد. تلغم بلسان متعرّ:

- ما أحلى صوتك وما أبشع كلامك!

عاد النذير يلاحقه بالنبوة السماوية :

- بل كلامي أحلى من الصوت. أنت لا ت يريد أن تعرف مرضك فكيف تطمع في الشفاء؟ إذا لم تجرب وتعيد: «أنت شكوة عفن وشكوة إثم يا تينيري فكيف أحبك؟» عشر مرات لن تفوز بالشفاء. ستظلّ عبداً لامرأة، ظللاً لشكوة عفن. لن تتحرر ولن تعود نبيلاً.

- أنت أعمى! أنت تقول هذا لأنك أعمى!

- لو لم أكن أعمى لما رأيت الشكوة. رأيتها أنا بال بصيرة وعجزت أنت أن تراها بالبصر. فمنْ منّا الأعمى: أنا أم أنت؟

توجّع أوكا بأنين فاجع ولكن النبوة القاسية بقيت معلقة فوق رأسه كالقدر.

(٤)

بعد الطعام صام عن الكلام.

لم يتبادل مع آخِماد كلمة واحدة طوال ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع تحامل وحاول أن يسرج المهرى بنفسه. هرع إليه آخِماد وعدد من الرفاق

ولكنه قال إنه قرر أن يخرج للمراعي للاستشفاء. اقترح آخmad أن يرافقه ولكنه رفض.

جلس على السرج ابتلع جسمه النحيل. راقبوا، مع الضحى، وهو يتوجه عبر طريق الشرق الذي يمر بين الجبلين القربين ويعبّر إلى تادرارت. بدا، من بعيد، مثل شبح بائس.

في تادرارت تسكّع على السفوح. تنقل بين قبور الأسلاف المستديرة. رأه الرعاء يزبح الصخور عن عظام الموتى ويقف هناك طويلاً خائعاً. وفي بعض الأحيان يختار صخرة مناسبة للجلوس، ويظل يحدّق، كالمعتوه، في فوهة القبر. لم يفت الرعاء الفضوليون أن يتسللوا وراءه ليعرفوا ماذا يراقب هناك. ووجدوا أنه يخرج جمجمة أو عظامه رجل الميت أو معصمه من حفرة القبر وتركها تلمع أمامه تحت الشمس. يراقبها في جلسات طويلة تستمر، أحياناً، من الصباح حتى المساء. وروى أحد هؤلاء الرعاء أنه زاره في ليلة ضحى سطع فيها البدر حاملاً رغيف الشعير وفخذة مشوية من لحم الودان فوجده يقلّب جمجمة مخيفة بين يديه. وعندما أفاق من خشوعه ارتبك ودسّ الجمجمة في كم جلبابه الواسع وزّع شفتيه ولم يبادر الزائر كلمة واحدة طوال الجلسة.

روى رعاء آخر من خرافات أ بشع عن سلوكه هناك. أقسماوا أنهم رأوه يحمل الجيف وبحث الحيوانات العفنة على ظهره ويكتسها أمام كهفه في الجبل ليراقب كيف تتحلل وتتفنن وتتدبّر عليها الديدان والمحشرات. وقالوا إن رائحة العفن أصبحت لا تُطاق خصوصاً إذا هبّ الريح من جهة الغرب. وقيل إنه كان يتسلق القمم ويصطاد الودان لا ليأكله وإنما ليتركه يتن ويتعن أمام كهفه. فوجد الرعاء أنفسهم مضطرين أن يتركوا له تادرارت كلها ويرحلوا إلى وديان متخدوش ومساك ملت.

ولكن ما رواه الدرويش كان أقبح من كل الروايات.

قال إن راعياً حكيمأ أخبره بسرّ شفاء أخوا. وأقسم بتانس وامناي وسيدي

د القادر الجيلاني أنه رأى بعينيه، اللتين سياكلهما الدود، أوخا المكابر ركع على جفنة زرقاء تراکض فوقها الديدان، وتعانها حتى الغربان، قطع منها لحمة بالسكين وياكلها مهمنماً لنفسه بكلام مبهم كأنه تعاويد مجوس.

وقال الدرويش إن الراعي تقىأ أمامه طويلاً بعد روايته الشعنة. تقىأ درويش أيضاً، كما تقىأ واستنكر واستبشع كل منْ سمع بهذه الرواية وحشية.

(٥)

ولكن شفاء أوخا وعودته إلى النجع بعد عودة العافية إليه جعلت الكثرين ؤمنون بالرواية الوحشية وتصدقون السر الذي أذاعه الدرويش.

عاد أوخا بمزاج جديد حقاً. داعب آخِماد وتبادل مع الرفاق والأتباع لكتات والضحكات عند وصوله. أكل الشواء بشهية من الذبيحة التي نحرها على شرفه الشبان، وشرب قدحاً كبيراً من اللبن، وفي الليل رفع صوته ساغنية شجانية من ألحان: «هلي - هلي» دون أن يحزن أو يدُو عليه ما يوميء إلى الانفعال الوجدي. في تلك الأمسيَة أيضاً اقترح المباراة الشعرية. وقد تابعه آخِماد والشبان بدھشة طوال الوقت. وسألوا بعضهم بعضاً بالنظارات عن المعجزة التي نزلت على رأسه في المراعي وأحدثت فيه هذا التحوّل. غادرهم شبحاً من دنيا الموتى وعاد لهم إنساناً نبلاً يجري الدم في وجنتيه وتنائل البهجة والحياة في عينيه. يداعب الأصحاب بالفكاهة ويفني مواويل الفرح في اللبلة الضحاء. ذهب صائماً يمتنع حتى عن شرب الحليب وعاد أكولاً مفتوح الشهية يمتنع بشواء الذبائح.

تهامسوا كثيراً وتساءلوا عن السبب، وانتهوا جميعاً إلى أن في الأمر سراً. لم تقنعهم خرافات الرعاء، كما استبعدوا قصة الدرويش الوحشية عن أكل الجفنة. توافدوا عند زيارة النذير طويلاً، واستعادوا سلوك المريض عقب الزيارة، حيث امتنع عن التعليق وصام عن الكلام، وأجمعوا، في النهاية، على أن السر في الزيارة.

بعد يومين شوهد أوخا يتسلل إلى خباء النذير في عتمة الغروب فرأيهم
الأصحاب أنهم كانوا على حق.

(٦)

لا أحد عرف ما دار بينهما. ولكن القبيلة كلها تحدثت بما دار بينه وبين
الإمام عندما التقى في العراء عقب خروج أوخا من خباء النذير.
بادره الإمام حانقاً:

- أراك ترك شرع السماء وتحتكم إلى نذير السوء والمجوس.
- أستغفر الله. لم يكن نذير سوء يوماً، كما لم يعرفه أحد مجوسياً.
- لم يبشر النذير بنبأ الفرج من يوم دخل القبيلة.
- أعترف أن صوته جليل وسماوي!
- الخزي! صوت إبليس أيضاً جميل ولكنه يستدرج إلى جهنم.
- لماذا يتحامل الفقهاء على المساكين؟ الكل يعرف أنك لا تطبق
الأولى: لا هو ولا الدرويش.
- الخزي! لم نتقاسم ورثة حتى نختلف كما لم أتداعن لا معه ولا مع
الدرويش فمن يرrogen لهذا الكذب؟ من لقنك صدّي؟
- ليس عندي سبب واحد يقلب صداقتنا إلى عداوة.
- سكت الإمام. تمشيا في الخلاء. اجتازا البيوت واتجها إلى الفضا:
المؤدي للجبل. عاد الإمام يقول:
- رحم الله أباك. كان صديقي حقاً. ولكنك أثبتت أنك أقل منه نبلأ
بكثير.
-
- الخوف ليس من طينة البناء.
- الخوف؟

- نعم. أنت لم تراهن بسبب الخوف من الخسران فقط وإنما بسبب لبخل أيضاً.

- البخل؟ لغتك، يا سيدنا الفقيه، لغة رجل ي يريد أن يستفزَ رجلاً كي يدعوه إلى المبارزة. هل يسمع لي العرف أن إبارز الإمام؟
مضي الإمام في الاستفزاز:

- أنت خفت أن تكسب الرهان وتدفع لي الكراء الذي طلبه مقابل السر.

- وهل يملك الكراء وزناً لفارس كسب الحسنة؟ متى كان النبيل يحسب مالاً مقابل الفوز بمعشوقة؟ قل إنك تريد أن تطلبني للمبارزة.

- ها.. ها.. تهرب من الكراء وتحتمي بتعاوذ المجروس. ثم تعود لتحديثي عن النبلة وقلوب المعشوقات والحسان. ها.. ها.. فضلت تمائم المجروس لأنك لا تتفق ثمناً لها إلا أن تبشن قبور أجدادك وتلحس جمامهم وتقنات الجث والجيف!.. ها.. ها.. ها.. قل لي..

مسح الدموع من عينيه وأكمل:

- لا أريد منك اعترافاً يخلبك الآن. ولكن قل لي بحق المرحوم أبيك: هل ذُقت طعم العجيف والدیدان؟ ها.. ها.. بأي حيلة أجبرك الساحر أن تقنات لحم الأموات بحثاً عن الشفاء؟ هيء.. هيء..

ألقى برأسه إلى الوراء وضحك بصوت عالٍ. توقف أولاً وحاول أن يقاوم ناراً اشتعلت في جوفه وصعدت إلى رأسه. كتم غيظه وقال بصوت مخنوق:

- يعيّب رجلاً فقيهاً وحكيماً وعالماً أن يردد تشنيعات الدرويش.

- ولماذا يشنُّ عليك الدرويش؟ لقد اعترفت بنفسك منذ قليل أنه ولـ الله.

- الدرويش لا يحبني. أنت تعرف.

عاد الإمام إلى الاستفزاز:

ـ ليس الدرويش وحده من يردد ذلك. القبيلة كلها تعلم. ارتكبت خطأً كبيراً يوم ظنت أن ثمة سرّاً في الدنيا يمكن أن يظلّ سرّاً إلى الأبد. ها أنت ترى أن الله بعث لك برسول خفي في صحراء جدباء عارية ليذيع سرّ الجيفة بين الناس. هيء.. هيء.. هيء.. تخيل موقف معشوقتك الأميرة وهي تسمع من الخدم والعيدي وهم يتحذّثون بقصة الفارس أوخا وهو يقعي فوق جيفة وينهش لحمها كالكلب ! ها.. ها. البخل جعلك تهرب من دفع الكراء وتقنات الجيفة. الشاعرة بدأت في نظم قصيدة ستحقن بك العار إلى الأبد. هيء.. هيء.. أراهن أن الشاعرة انتهت الآن من القصيدة.

انصرف أوخا. ترك الإمام واقفاً في الظلام، يتلوى من الضحك.

٣ - شرائع الأرض وشرائع السماء

«الخبيث والزيف هو ما نكرهه الآلهة».
برت اميرو - «كتاب الموتى»

(١)

كل القبيلة لاحظت، بدهشة، هذه البهجة.

في يوم خرج النذير ناعياً العرافة، مردداً، بصوته السماوي النبيل، «تيميط سبقتنا»، كان وجهه يزفُّ بشاره. اللسان ينطق بالنعي والوجه يزف البشاره. لم تكن بينهما عداوة تبرر الشماتة، بل لم تكن له عداوة بمخلوق في الصحراء. فما سرّ البهجة يوم الحداد؟

خرج باللبأ في الفجر. طاف البيوت، واقتجم «واو»، ودبَّ في العراء المجاور للجبل المسكون. ارتدى لباس الحداد: لشام أسود، وجلباب فضفاض أسود. السروال الواسع أيضاً أسود. أخفى عينيه الفارغتين باللشام ولكن لا شيء يستطيع أن يخفى ابتهاج الإنسان. الفرح يهتك اللشام عن الوجه ويمزق الطرف من العينين. بهجة السعادة تعرّي القلب وتفضح الصدر. لم يتوقف عن قراءة النداء الجليل: «تيميط سبقتنا»، فاستجابت «واو». خرّجت طائفة من النساء تقدمهن الأميرة. وتبعها رتل من الرجال. تجمّع الرجال في النجع ورفع الإمام صوته بالأذان. تمتّت العجائز بآيات حرفها نطق العجم وجهل الفقهاء بلغة القرآن. تحرّكت الجموع إلى بيت المرحومة. وكانت مفاجأة للجميع عندما عرفوا أنها ماتت مقتولة.

إذاً أعلنت وفاة مفاجئة في الصحراء فإن الأسباب لا بد أن تكون أحد لاثة: أفعى أو عقرب أو ضربة من جن شرير.

ولكن العرافة سبقت إلى المجهول، مذبوحة، بمديتها السرية.

جاء القاضي ببابا وشَّقَ الجموع بمساعدة رجاله. دخل وتفحَّص لضحية: كانت العرافة تستلقي على ظهرها. ممدَّدة على طول قامتها. أسمها ملقي في الزاوية، ورجلها موجهان نحو الركبة. الرأس عار، والخرقة الزرقاء ملقة بجوارها، ملوثة بالدهن ومعفَّرة بالتراب. عيناهَا سبلتان كأنها تنفُّ في نوم عميق. تقسيم الوجه هادئ، ساكنة، باستثناء نور في الجفنين وشحوب عند الوجنتين. ضفائر شعرها الأكتر، الموشأة بالشيب، تنسدل وتعطي العين اليمنى، ولكن قصر الضفائر لم يمكنها من بلوغ الرقبة النحاسية المشطورة بقناة الدَّم التي حفرتها المدية السرية. الجيد النحاسي مطوق بعقد من الخرز المتعدد الألوان، غرق طرفه الأيسر في قناة الدَّم. ويفيد أنَّ الجسد مال إلى الجنب الأيسر لأنَّ نهر الدَّم سال إلى الجهة اليسرى فغمَر طرف الثوب العلوي المنحرس عن الكتف التحيل، وصنع على الرمل بركة صغيرة قاتمة امتصتها الحبيبات الظُّمَّاء فتبيَّست دماء البركة من أطرافها. أما المدية الوحشية فوجدت مغروسة بجوار الأذن اليسرى أعلى البركة، وغاصت في التراب حتى المقبض الممحَّن بالرموز والتعاويذ فوق غلاف محكم من الجلد. اليد اليسرى تسترخي فوق الفخذة مفتوحة الأصابع، في حين تتشبَّث قريتها اليمنى بكوم من التراب بعناد يقدِّم البرهان على وحشية الموت وحرارة النزع الأخير.

تقدَّم القاضي وتناول المدية. تفحَّصها في ضوء المدخل. تتشبَّث ذرات الرمل بالتصل الدامي، وتبيَّس التراب على طول الحد المسعور الذي جرَّه القاتل على الرقبة وحفر به قناة الدَّم في الجيد النحاسي. أشار بابا إلى كبير العسق فتقدَّم مارد من الأتباع وألقى بلحاف أسود على الجثمان. أشار

بسبابته إشارة أخرى للعسس فبدأوا يبعدون الفضوليين عن فم الخبراء. وصل الإمام وعدد من شيوخ القبيلة. في الخارج تحلق جيش الفضوليين وضرب حصاراً حول الخبراء. ارتفعت الشمس قامة وارتفع معها نداء النذير:

- العرافة سبقتنا.

اختلى الإمام بالقاضي في زاوية الخبراء. خرج القاضي بعدها إلى الجموع. بحث عن الأميرة لحظات ثم تقدم منها وتبادل معها الهمسات. عاد إلى الخبراء وأمر كبير العسس ملواحاً بيده المبتورة:

- أقروا على الدرويش!

(٣)

في العشية بدأ الاستجواب.

تربيع القاضي على فرش مغطى بنطع. جلس على يمينه وشماله عدد من وجهاء «واو». في الساحة الفسيحة تجمهر الناس: جاء شيخ القبيلة وبعض رجالها، كما أقبلت بعض النساء الجسورات يجرجن أطفالهن. قاد ثلاثة من العسس الدرويش مشدوداً بحبيلٍ من مسد. يداه ملويتان بوحشية إلى الوراء ومقيدتان إلى ظهره. مثل أمام القاضي برأس حاسر. لثامه أيضاً ملتف حول رقبته كثعبان الأدغال. وجهه معقر بالغبار. الشعر الذي يشطر رأسه إلى نصفين وصُفَّفَ كعرف الديك ملوث أيضاً بالطين والتراب. ازدادت عيناه البائستان غوراً. سال من فمه اللعاب وعلت شفتيه طبقة من الزبد. رفع بابا يده المبتورة في وجهه وسأل بوعيد:

- لماذا قتلت العرافة؟

عن يمينه انحني مساعده ودون كلاماً في قرطاس كبير أصفر اللون. دون السؤال بقلم أصفر أيضاً مستقطع من عود القصب.

أجاب موسى بكلمة قاطعة:

- لم أقتلها.

لَوْح القاضي باليد البتراء مرة أخرى قبل أن يسأل:

- ألم تسرق هذه المدينة؟

أخرج من كمه الواسع المدينة السرية. لَوْح بها في وجه الدرويش بيده
اليسرى.

ارتفعت في الجمْع همْهة مكتومة. قال موسى :

- نعم. لا أنكر أنني سرقت المدينة.

- لأي غرض فعلت ذلك؟

علا الهرج. سكت الدرويش. أعاد القاضي السؤال:

- قلْ: لماذا سرقت المدينة؟

نَزَّ اللعاب من شفتيه. نطقت عينه الحلواء بشقاء. انهار على ركبتيه وقال
منكس الرأس :

- هذا شأنى !

علت أصوات بالاستنكار. انتظر القاضي حتى هدأت موجة الاستنكار،
ثم عاد إلى الاستجواب :

- هل تنكر أن بينك وبينها عداوة قديمة؟

أجاب موسى فوراً :

- لا. لا أنكر.

- حسناً. الاعتراف بالذنب فضيلة في شرع القضاء. ولكن الإنكار..

استبعض عن إكمال الجملة بوعيد من يده المبتورة. التفت إلى الوجاه
وقال بصوت مسموع :

- هل رأيتم؟ الاعتراف بوجود عداوة ركن الأساس في ارتكاب أي

جريمة. والدليل. ها هو في يدنا. المدينة التي اعترف أيضاً بسرقتها. أمامنا اعترافان: الاستيلاء على سلاح الجرم، والاعتراف بالعداوة القديمة. فهل ما زلنا في حاجة لأن نسمع من القاتل اعترافاً حرفياً بالجرائم؟

دون الكاتب النصّ بعد القصب في القرطاس الأصفر. مال شيخ وقور على أذن القاضي وهمس لحظات. عاد بابا يعتدل في جلسته.

هرش مؤخرة عمامته متفكراً ثم قال:

- الاعتراف الكامل يخفف من العقاب، وقد عودنا الدراوיש أن ينطقووا بالصدق ..

قاطعه موسى بحماس مفاجئاً:

- لم أنطق إلا بالصدق. اعترفت بالعداوة القديمة وسرقت المدينة لمأرب أخرى ولكنني لم أقتلها. أقسم.

سكت القاضي. عمّ وجوم في الساحة. تشاور بابا مع الشیوخ مرة أخرى قبل أن يسأل:

- سنعمون بعد قليل لإيضاح الغموض. ولكن أجبني الآن على سؤالي: أين أخفيت الذهب؟

انتقض الدرويش:

- الذهب؟

- نعم. الجميع يعرف أن المرحومة اكتزت من الذهب كثيراً. الذهب بنوعيه: التبر والمصنوع في حلبي الزينة.

قال موسى ببلادة؟

- وماذا أفعل بالمعدن الحرام؟

- أنا هنا من يسأل ولست أنت. إذا سأله القاضي فلا يجب على المتهم أن يرد عليه بسؤال.. أجب: أين أخفيت الذهب؟

نرفت شفتيه زبداً كثيفاً. ازدادت العين الحولاء حولاً وشقاء. تتمت
بكاءة:

- لا يهمني الذهب. أنا أحاف أن المنس الذهب.

اقرب منه بابا بوجهه وحدق في عينيه. غمز عينيه الماكرة وسأل بخث:

- قيل لي أني وقعت في العشق. قررت أن تستميل قلب المحبوبة فلم
تجد إلا الذهب وسيلة. أنفق معك أن الذهب هو أفضل سلاح للاستيلاء
على قلب المنشورة. وأنا لن ألومك كثيراً إذا اعترفت بالحق.

كتم ضحكة ساخرة وغمز عينيه من جديد. انحنى موسى على الأرض
حتى سقط رأسه على صدره.

قال بيس:

- أعرف أن الذهب هو مصيدة النساء. وقد كرهت النساء أيضاً لأنهن
يعشقن الذهب.

- ولكن قيل لي أني وقعت في العشق! ألم تقع في العشق؟

- كان ذلك حماقة. حماقة الدراوיש. ولكنني وعدت الله أني لن أكرر
الحماقة إلى يوم القيمة.

اقرب القاضي برأسه من رأس الدرويش. همس:

- لماذا؟ ماذا ستفعل في الصحراء بدون نساء؟ كيف ستتهر الوحشة؟
كيف ستقتل الفراغ؟ النساء مخلوقات سحرية. حيوانات صغيرة. ابتعها
الله خصيصاً من ضلوعنا كي تسلى بهن وتنعم بوجودهن. كيف تطبق
حياة صحراوية خالية منهن؟

همس له موسى:

- رقيقات حقاً. صغيرات حقاً. ولكنهن قاسيات كالوحش. يقدن الرجل
إلى جهنم بسلسلة طولها سبعون ذراعاً دون أن يدرى. النساء لا يعشقن

الدراوיש لأنهن لا يستطيعن أن يصنعن منهم عبيداً كبقية الرجال البلياء..

بلغ ريقه بصعوبة ثم أكمل بصوت راجف، باكٍ:

ـ إنهن كالأفاعي : ناعمات ، في حين أن لدغتهن قاتلة!

انفجر بابا في ضحكة عاصفة. سقط لثامه المخطط حتى ذفنه ولكن استمرّ يضرب صدره بيده المقطوعة ويقهقه بوحشية لا تناسب الجناد. تبادل الشيخ نظرات دهشة. مال عليه أحدهم وهمس في أذنه باستكفار ولكن القاضي لم يتوقف.

في النهاية توقف. مسح الدموع بظهر يده الأخرى وقال بمرح :

ـ أقسم لكم أنه درويش ظريف. ظريف وحكيم برغم كل شيء !.

سكت ونظر حوله في الساحة. اختفت الشمس خلف الأسوار ولم يبق إلا فض أشعتها الأرجوانية. تقلّل بصره بين الجموع وقال بغموض :

ـ ولكن هذا لن يمنعنا من أن نجرب معه إباغيغان^(*).

(٤)

لوى العسس حول صدغيه عمودين مصقولين من السدر. عادوا وأحكموا توثيق يديه حول ظهره. وضعوا حول عنقه حبلًا وحشياً من مسد أيضاً. حرص كبير العسس أن يعده بنفسه متعمداً أن يصنعه على شكل الوهن الذي يروض به الرعاع الجدعان الباكرة والجمال الهوجاء.

جذبه كبير العسس من حبل المسد فنَّدَت عنه آهة ألمية. في تلك اللحظة تعلّقت أبصار الجموع بعضا العذاب التي لوح بها كبير العسس في الهواء. أحاط رجاله بالسجين من جانبيه. تفقدوا عمودي السدر المثبتين على صدغي الدرويش. في الساحة الواسعة، المزحومة بأهل الصحراء

(*) إباغيغان: من أساليب التعذيب عند الطوارق القدماء.

وسكنان «واو»، هيمن صمت الموتى. حتى الأطفال حبسوا الأنفاس، وانتظروا مع ذويهم لحظة نزول عصا الجزاء على العمودين الوحشيين. خلف الدرويش وقف القاضي مع رجاله. رفع يده المبتورة في الهواء فأنزل الجلاد عصا العذاب على الطرف العلوي من العمود الأيمن. ندت آلة وحشية، أليمة، من صدور المتجمهرين. بكت نساء القبيلة بأصوات مخنقة. أشاحت العجائز بالوجوه وزعن الأطفال بعيون مشيّعة، شاكية، إلى السماء. نزلت الصاعقة على عمود شجرة الجنة. قدحت الشرر وأشعلت النار في عصب الدرويش. لوح الجلاد بعصا الجان في الهواء وأنزلها على الطرف السفلي من العمود الأيسر.

اشتعل رأس الدرويش بالبروق. حرقه المس. قفز عالياً. وثب في الهواء. صرخ بصوت غريب لم يسمعه أحد من حنجرة إنسان:

- آ.. آ.. آ.. و.. و.. و.. و.. و..

هوى على الأرض. تناثر الزبد على شفتيه.
في السماء بكت الملائكة.

شق المعمر «بكّة» جمهرة الفضوليين. مشى بجواره باخي، يسنده بين الحين والأخر. تقدم العجوز من القاضي. رشق عكازه في الأرض ومال إلى الإمام مستنداً على العكاز. قال بصوت هادئ:

- لا خير في أرض يُعذَّب فيها الدرويش. لا يستطيع القاضي أن يهتدى إلى حيلة أخرى غير إيغاغان لإجباره على الاعتراف المزعوم؟

- يؤسفني يا جناب الشيخ أني استندت كل الجيل لأحمله على الاعتراف بجرائم تشير كل الأدلة على أنه هو مرتكبه الوحيد.

- لا يقطع القاضي في أمر حتى يقيم البرهان الذي لا يأته الباطل لا من أمامه ولا من خلفه. هكذا يقول شرع الصحراء وشرع الدين.

- أحكمامي أيضاً مستعارة من الصحراء.

بلغ ريقه. حاول أن يستر فمه بطرف لثامه وأضاف:

- من الصحراء ومن القرآن.
- ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء.
- الشرع لا يرحم لأنَّه دستور أرضي. شريعة الأرض قاسية يا شيخنا.
- ابتر يده. العين بالعين. والسن بالسن. اعترف بسرقة المدينة. عاقبه بيتر اليد. وإذا أردت أن تجازيه أيضاً على عداوته القديمة بالمرحومة فأحرق يده الأخرى بالنَّار. ولكن انزع ايجياغان من صدغيه. انزع النار من رأسه. إنه درويش. مرابط. الشفاعة يا رسول الله!.
- إذا اعترف إنس بوجود عداوة بينه وبين الضحية، واعترف أيضاً بأنه استولى على السلاح الوحيد القادر على إزاحة عدوه من الطريق، فماذا، في رأيك، يمكن أن يعني هذا؟ أليس في هذا نية مُبيَّنة لاقتراف الجرم؟ أليس من حق القاضي، الذي يريد أن يحكم بالعدل، أن يتخذ التدابير لانزعاع الاعتراف الأخير من المتهم الشقي؟
- لو كان الفاعل لا يعترف. إنه طفل. درويش. لا يعرف الخبث. هل تفهم؟
- الحالُ بَيْنَ الْحَرَامِ بَيْنَ.
- أنت تبالغ في العقاب تلبية لرغبة الأميرة. نزولاً عند إرادة السلطان. نحن نعرف أن العَرَافَة صديقة بيت السلطان كما نعرف أنها تقتني معدن النحس والشياطين.
- شيخنا يخطيء التقدير. أنا أحكم بشرع الله ولا أجامل حتى السلطان. ضميري حسيبي. وأنت أول مَنْ يعرف أن القصاص أساس العدل. والعدل عماد المدن الإلهية. كيف نجعل من «واو» واحدة إلهية بدون عدالة.
- ولكن العدالة لا تبيح القساوة. والدراويش أول مَنْ يستأهلون الرأفة.

- لا عدالة بدون قسوة. و «واو» لن تقوم بدون عدالة.
- لا أقام الله قائمة لـ «واو» إذا كان عذاب رجل الله ثمناً لها.
- يُحسن بشيخنا الوقور ألاً يجذف في حق «واو».
- لن يبارك الله أرضاً يُعَاقَب فيها الدرويش باليغايان.
- انتهى اللقاء!

تحرّك القاضي وأشار إلى الجلاد. تعاون العسّس وأوقفوا السجين على قدميه. ترّنح فأستدوه. سقطت قطعة من الزبد على الأرض. صاح بكمّة وراء القاضي :

- لو كان الرعيم معنا لما جرّوت على حرق أعصاب الدرويش.
- لم يجيء بابا. بدأ المسيرة. تحرّك خلفه أعنانه. خلف الأعنان سار كبير العسّس، يجرّ موسى بحبل من مسد. خلف السجين سار العسّس. خلف العسّس سارت الجموع.

خرجوا من باب السور الغربي. في الأفق لاح طرف خجول، باك، من سمس الغروب. أشاحت بوجهها بعد لحظات وقفزت في هاوية، خلف الأفق.

التفت بابا فجأة وأشار للجلاد، كبير العسّس، بيده المقطوعة. رفع الجلاد عصاة جهنّم وهوى بها على عمود السدر. قدحت البروق في رأس موسى، فطار في الهواء زاعقاً بصوت أليم :

- آ.. آ.. آ.. آ.. ي.. ي.. ي..

هوى على الأرض مثل جسد ميت.

(٥)

في العراء انعطفت المسيرة جنوباً. عند الراية أدركهم النذير. جاء

مهرولاً، مهذل اللثام، يتمتم بالتمائم الخفية ويفصل اللعاب. اجتاز الجمْعْ .
اعتراض المسيرة. سقط على ركبتيه أمام القاضي. توسل باكيًّا:

- فليرحم قاضي شنقيط رجل الله. الدرويش لم يقتل. أنا أعرف.

تنقل بابا بين وجوه الأعوان. صاح:

- ماذا تعرف؟

- أعرف أنه لم يقتل. إنه طاهر كالحليب.

- هاتِ الدليل!

- سأريك بالدليل. أمهلني أربعين يوماً وستة. إنه طاهر كالحليب.

رفع بابا صوت الغضب:

- ماذا؟ أسائل الدرويش: «ماذا فعلت بالمديمة» فيجيب: «هذا سريّ»،
وأسأل النذير: «هاتِ دليلك» فيقول: «أمهلني أربعين يوماً، فهل أنت
مجانين؟ ما هذه الإشارات؟ القاضي يريد حقائق وبراهين لا لغاز السحرة
وإشارات المرابطين. هل تسخرون مني؟

زحف النذير على ركبتيه واقترب من القاضي. توسل بيدين مرفوعتين
إلى السماء:

- اعملْ لي معروفاً. أربعون يوماً فقط.

فار الغضب في صدر الشنقطي:

- هل أنت مجنون؟ هل ستضمن لي الحياة حتى الغد؟ مَنْ قال إنني لن
أموت غداً؟ كيف سأقابل ربِّي إذا تباطأت في النطق بالحكم؟ أعلم أن آخر
ميعاد للنطق بالحكم هو الغد!

طوق النذير ساقيه بكلتا يديه. تصرَّعْ:

- لا. لا. أنت تصب القسوة على رأسي وليس على رأس الدرويش
وحده.

لِلْأَسْمَاءِ الْفَاضِيِّ بِيَدِهِ الْأُخْرَى وَصَاحِبِ الْبَخْشُونَةِ :

أَنْدُلْ ! هَذِهِ قَبْيَلَةٌ مُجَانِينَ . أَبْعَدُوكُمْ نَذِيرَ السُّوءِ !

تَقْسِمُ ثَلَاثَةَ مَرْدَةَ مِنَ الْعَسْسِ وَأَزْاحُوكُمُ الْنَّذِيرَ . أَفْلُوْهُ جَانِبًا فَانْكَفَأُ عَلَى
رِجْمِهِ .

دَسَّ رَأْسَهُ فِي التَّرَابِ وَأَكَلَ الرَّمْلَ .

هُوَ الْجَلَادُ بِالْعَصَاصِ فَأَشْعَلَ الْعَمْدَ النَّارَ فِي عَصْبَ الدَّرْوِيشِ .

(٦)

عِنْدَ اشْتِدَادِ الْعَتْمَةِ عَلَقَوْهُ مِنْ يَدِيهِ فِي بَابِ السُّورِ الْفَرَّارِيِّ . انْفَضَّ النَّاسُ
وَلَهُنِّي لِحْرَاسَتِهِ عَسَاسٌ مُخِيفٌ مُجْلَلٌ بِالْسُّوَادِ بِدَأِيَةِ الْعَمَامَةِ وَنِهَايَةِ
بِالسُّرْوَالِ . حَوْلَ السُّورِ حَامٌ شَيْجٌ امْرَأَةٌ . جَاءَتْ مِنْ جَهَةِ آكُوكَاسِ وَهَامَتْ
عَلَى رُؤُسِ الرَّوَابِيِّ الْغَرَبِيِّ . نَزَّلَتْ الْمَرْتَفَعُ وَعَبَرَتِ الْعَرَاءَ . ثُمَّ اخْتَفَتْ
فَجَاءَهَا . أَيْقَنَ الْعَسَاسُ أَنَّهَا مِنْ بَنَاتِ الْجَنِّ فَقَرَأَ آيَةَ الْكَرْسِيِّ وَتَعْوِيذَةَ مِنْ
مُعْجِمِ الْمَجْوِسِ . تَسَكَّعَ بِجَوَارِ السُّورِ . تَفَقَّدَ السَّجِينَ الْمَعْلَقِ فِي الْبَابِ .
وَلَرْقَبَةِ أَكْلِهَا حَبْلُ الْمَسْدِ الْخَشِنِ فَنَزَّفَتْ بِالدَّمِ . اسْتَمَرَ الرَّبَدُ يَتَزَفَّ مِنَ الْفَمِ .
وَلِكُنْ السَّكِينَةُ طَغَتْ عَلَى مَلَامِعِ الْوَجْهِ كَأَنَّ الْبَدْنَ فَازَ بِالْفَرْدَوْسِ بِمَجْرِدِ أَنَّ
تَخْلُصَ الرَّأْسُ مِنْ عَمْدِيِّ السَّدْرِ . أَنْفَاسَهُ اَنْتَظَمْتُ وَعَلَتْ شَفَتِيَّهُ اِبْسَامَة
فَلَامِضَةً . أَحَاطَتْ بِهِ الْمَلَائِمَةُ فِي فَرْدَوْسِ السَّكِينَةِ وَسَلَّتْ بِالْدَعَابَاتِ .

ظَهَرَتِ الْجَنِيَّةُ مَرَةً أُخْرَى .

ظَهَرَتْ فَجَاءَهَا كَمَا اخْتَفَتْ فَجَاءَهَا . تَفَهَّمَ الْعَسَاسُ حَتَّى رَدَهُ جَدَارُ السُّورِ .
سَارَوْلُ أَنْ يَتَمَمَّ بِالْآيَةِ وَلَكِنَّ الْجَنَّ طَيَّرَهَا مِنْ رَأْسِهِ . آهُ . هَذِهِ إِشَارَةُ الْأَذَى .
إِذَا طَارَ الْقُرْآنَ لِحَظَةٍ خَرُوجُ الْجَنِّ فَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ يَنْوِي الشَّرَّ . احْكُمْ إِلَى
تَعْوِيذَةِ الْمَجْوِسِ فَمَاتَتْ عَلَى شَفَتِيَّهِ أَيْضًا . اقْتَرَبَ الشَّيْجُ الْأَسْوَدُ خَطُوطَاتٍ
أُخْرَى . بَدَا الْعَسَاسُ يَرْتَجِفُ . قَالَتِ الْجَنِيَّةُ بِصَوْتِ الْإِنْسِ :

- أريد أن أستقي ماء!

ارتعش البدن. وقف الشّعر. أحسَّ بالدوار. عجز عن الرّد. تركته الجنّة
وانقلّت إلى السجين. أخرجت من ثيابها الواسعة قفّة من السعف. سمعها
تصبُّ الماء في الإناء وتسقي الدرويش. همسَت في أذنه بكلمات من لغة
الجن وخَيَّل له أنها صحيحة أو.. ربما انتحبت. أخرجت أيضاً طعاماً.
غزت أنفه رائحة الفطائر المدهونة بالسّمن. فطائر شهية. فطائر الجن.
انهار العسّاس بجوار الجدار وبدأت الجنّة تطعم الدرويش.

(٧)

خرج من فردوس السكينة وفتح عينيه على ظلمات الأرض. تراجعت
الصاعفة ولكن المسَّ ما زال يزّلزل رأسه بالصداع. في المرة الأخيرة،
عندما نزلت صاعفة الجلاد على العمود قصف في رأسه رعد. شفَّتْ شحنة
من البروق فزّلله الألم. طار الرأس وطار معه الوعي. فيا لいて طار إلى
الآبد. بين أعوداد «ايغافان» فقط يصبح الزوال جنة السجين. يُتمنى أن
يُفتقَّ ويطير مع ذرات العبار. يركب الريح ويلتحق بالمحظوظ في الفناء.
ووَلَّ أحسَّ بالشقاء بمجرد أن عاد إلى الأرض ووجد نفسه مطوقاً يُدَنَّ
بائس، سجن يستجيب للألم ويستذكر صفة تافهة من كف. فما أتَهُ
البدن. ما أَلْعَنْ سجن الجسد. أين السكينة؟ أين طرق الغيبة الذي يحصّن
من حسَّ الوعاء؟ يا لいてي كنت حبة رمل. هبة ريح. ومضة ضياء في عراء
الصحراء. يا لいてي لم أولد في البدن. يا لいてي لم أُوجَد في الأرض.
أحسَّ في أنفه برائحة حادة، وبطعم غريب في لسانه. فتح عينه اليمني.
سؤال:

- مَنْ أَنْتِ؟

انتحبت الجنّة. صاح الدرويش رغم الألم:

- عرفتك. أنت تناهافت!

لم تجب. ظلت تتنفس في كوم أسود تحت قدميه. ثم كتمت دموعها
وقالت برجاء:

- غداً ستعترف أمام القاضي. ستقول له لماذا سرقت المدية.

جاءت كي تجبره أن يكشف السر. السر الذي لا يعرفه أحد سواه. عرفه الزعيم أيضاً، وعرفته زنجيته التي أخذتها الحمّى في العام الماضي. الزنجية توفيت والزعيم يهيم في الحمّادة. العودة إلى الأصل، إلى الفناء، إلى الريح والضياء والفضاء، أهون من كشف السر.

رد برجولة:

- لن أتعترف للقاضي.

- سوف يحكم عليكم بالموت. سيقطع رأسك. هل تفهم؟

- أن يقطع رأسي أهون من إذاعة سري.

ثم أضاف بصوت متهدج:

- في الغيب مسح الملائكة من رأسي من الصاعقة. هناك تبدلت شعلة البرق وغسلني الملائكة من الألم. ما أفظع ايناغيان. ما أفظع الإنسان الذي ابتدع ايناغيان. العودة إلى المجهول أهون من الاعتراف أمام القاضي.

(٨)

في الصباح تربع القاضي الشنقطي بابا بين أعوانه على النطع في ساحة «واوا». تفقد الجموع بنظرة شاملة وقال كأنه يقرأ من قرطاس:

- بسم الله. «ولكم في القصاص حياة»، والقاتل لا بد أن يقتل. هكذا جاء في كل الشرائع: شرائع الأرض وشرائع السماوات. في أسفار اليهود وكتاب الله القرآن. في أناجيل النصارى ومخطبات الكهنة المجرميين.

فَلَيُقْطَعُ رَأْسُ الدَّرْوِيشِ غَدَّاً، فِي الْفَجْرِ. هَذَا قَضَاءُ اللَّهِ وَمَا عَلَى الْعَبْدِ إِلَّا
الْإِمْتَالُ.

فِي السَّاحَةِ هِيمَنْ صَمَتُ الْقُبُورِ.

٤ - الحياة

«فقال رب الإله للحياة: لأنك فعلت هذا، ملعونة أنت من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك. وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبيه»

التكوين (٣)

(١)

راودت الخنسة المقدّسة النذير منذ زمن بعيد، ولكنه لم يأبه لها. كلّما هَجَّيَ عند حذاء الركبة نزلت على رأسه ودبَّت على وجهه وأطرافه. أيقظته من النوم مرات كثيرة وتذكّر أنها لا تتردد بهذا الإلحاد إلا إذا نوت البوح بسرّ. ولكن اهتمامه بالظلمات ألهاه عن كل شيء. فمنذ فقد البصر وهو يعيش في متابهة من الظلمة. الظلام بيته، والسوداد لونه وحياته. فما أن يدخل قبوه ويبدا يجوس في عتمته حتى تستفرّه الخنسة المقدّسة بأرجلها السُّتُّ الخشنة، تنحّس بقروني استشعارها الطوبيلين فيتفضّ ويتقزّز. وبدل أن يأخذها بين يديه ويصفّي لها، يمسك بجسمها المسلح بدرع فاسٍ ويلقّي بها بعيداً.

في المرة الأخيرة، قبل القبض على الدرويش بأيام، زارتة في الفجر. أحسّ بها تدبّ على مucchمه الذي اتّخذه وسادة لرأسه. صعدت ودخلت تحت اللثام. انتابته قشعريرة ولكنّه تركها. تسلّلت إلى الذقن. عبرته وانعطفت إلى الأسفل. بلغت الأذن. دخلت التجويف وهمسَت له:

- أردت من قديم أن أبوح لك بسرّ فلماذا اضطهدتني؟

اقشعرّ البدن فسارعت تكمل:

- هل تريد أن ترى الثور؟

انتفاض. كل جسمه انتفاض وارتجمف عندما أنت على ذكر النور. كل جسمة سَجَّحَتْ وابتَهَلَتْ عندما سمع النور:
- أَرِيدُ أَنْ أَرَى النُّورَ. أَرِيدُ أَنْ أَرَى..

فاطعنه:

- مهلاً. صبراً. إذا أردت أن ترى النور فعليك أن تسمع قصتي مع الحياة.

كل حواسه، كل جسمه تكلم عندما أنت على ذكر الحياة:
- الحياة؟ أنا أيضاً لدى قصة مع الحياة.

فاطعنه:

- مهلاً. أعرف. أنا أعرف أن لك قصة مع الحياة. ولكن أنت لا تعرف قصتي مع الحياة فاصبر واسمع.
صبر النذير واستمع.

بدأت الخنسة المقدسة:

- جاءتنى الحياة بعد أن أغوت سلفكم ابن آدم وأدخلته إلى الحرم الحرام يطاردها الله وتلاحقها اللعنة. كانت إنساناً مارداً برجلين ويدين. ولكن الإله كان قد أنزل بها قصاصاً ونزع بصرها. قالت لي الخبيثة: «أيتها الخنسة المقدسة: تعالى نعقد صفقة، أعطيك أرجمي ويدى فيكون لديك منهم ستة وذراعان للاستشعار. وتعطيني أنت عينيك مقابلتها». قلت: «وماذا ستفعل الحياة بدون أرجل؟ ماذا سأفعل أنا بدون عينين؟» قالت المخلوقة الخبيثة: «ستتعين بست أرجل كاملة فتكون سرعتك مثل الريح، وستكتسبين ذراعين تستكشفين بهما الأرض وتستطلعين الطريق، أما أنا فسأزحف على بطني وأتحفّى من أعدائي في الحفر والجحور. أردت أن أرصد بالبصر أعدائي الكثريين. أنا ملعونة وأعدائي لا حصر لهم. أما أنت فمقدسة ومبركة ولا أعداء لك فما حاجتك إلى البصر؟». فكترت في الأمر فحلا في نظري.

ست أرجل وذراعان. لم تكتب هامة ولا دابة هذا العدد من الأرجل. كما أني مقدسة حقاً ولا أعداء لي : فما حاجتي إلى العينين؟. وافقت. أخذت الأرجل والذراعين وأعطيت الحياة أقوى عينين في تراب الصحراء. فهل تدري ماذا حدث بعد إتمام الصفة؟ أصبحت الحياة عدوي الأول. زفرت في وجهي وأرادت أن تتلعني. أنا فقدت الهوية وأضعت الاتجاه في حين أن الملعونة زحفت على بطنها برشاقة كأنها لم تفقد شيئاً. خسرت المقاومة فطاردني. فررت من وجهها. وما زلت أفرّ حتى اليوم. وقد قصدتك لأنك الوحيد الذي يقدر أن ينتقم لي منها.

صاحب النذير مشدوهاً :

- كيف؟ كيف؟

قالت الخنفسة المقدّسة :

- اسحق بطني وقطّر سائلِي الأبيض في عينيك. ستبصر حالاً ونذهب لقتل الحياة !

صاحب النذير :

- حقاً؟ هل يستطيع سائلك اللّزج أن يداوي عماء استمر أربعين عاماً؟

قالت الخنفسة :

- نعم. وستخلصني من عدوِي الوحيد. وستخلص من عدوِك الوحيد.

ردد النذير كالمحذوب :

- صدقت الخنفسة المباركة : الحياة عدو الإنسان الوحيد. والحكيم هو من استنجد بعدو عدوه.

(٢)

فقد بصره أيضاً بسبب الحياة .

نزل إلى الأرض وفي رأسه أفعى . فجحها المقزز يملاً رأسه منذ عرف الحياة ، وربما قبل أن يعرف الحياة . عندما بدأ يتدرّب على السعي في الأرض ويحبّو ، زاحفًا على يديه وركبته خارج الخباء ، كان ينفجر فجأة في بكاء هستيري ويملاً الصحراء بالصراخ كلما صادف في طريقه جبلًا أو عصا . وكانت أمّه تهرب إليه وتأخذه بين يديها مفروعة . تحرق له البخور والشيح ظنًا منها أنه تلقى صفة من أهل الخفاء . ولم تكتشف فزعه من الأجسام الشبيهة بالحيّات إلاّ بعد مرور سنوات . تم ذلك بالصدفة ككل القوانين السرية التي تحكم الحياة . بلغ السنّة الثالثة فجاءه أبوه بتيمية جديدة من فقيه الواحة . علّقها في سير محبوك من جلد الثعبان وطُوق بها رقبة الطفل . ندّت عنه صرخة كمن لدغته عقرب . تشنجت أطرافه وعضلات وجهه وظل يرتجف كمجذوب باللوجد أو مصاب بنبوة صرع . تبدلت بشرته وتلوّنت . ازرقّت واحمرّت واييّضت واسودّت وحلّت فيها ألوان قوس قزح . شحبت أمّه وفزعّت وهرولت به داخل البيت وفي العراء المجاور وهي تقرأ التعاوين بلغة «الهوسا» المجنوس . اختنق بدموعه فرسته بزهر الرّتم . حل في وجهه قوس قزح فتذكرت العقارب . تذكّرت أنها لم ترضع العقرب من حليّها وحرّمته من التّأخي مع هذه الحشرة الوفية . العقرب ليست كالحية لا تعرف الغدر . إذا تأّحت مع الوليد في حليب الرضاعة أخلصت لأنجها إلى الأبد . ولكنها لم تقطّر حليب ثديها في فم العقرب . فقررت الهامة أن تنتقم من الوليد في عيد ميلاده الثالث . قفزت وفتحت القماط الملفوف حول رجليه . فشّته بيدين مرتّجفين وهي تتمم بالتمائم السحرية وتَعْدُ الآلهة بالندور والقرابين .

لم تجد العقرب .

بدأ الطفل يختنق . شحّب وتلوّن بالموت . بدأ يموت . عندها تذكّرت التيمية . نزعت سير الأفاعي من رقبته وألقته بعيدًا . توقف الطفل عن البكاء واستسلم لنّوم عميق . يكثّ فوق رأسه طويلاً ثم تحاملت على نفسها وذهبت لاستشارة عرّاف القبيلة العائد من كانو . تفحصها بعينيه الفارغتين

وطلب منها أن تأتيه بأركان المحبة الثلاثة: الزوج والمحصن والولد. عادت إلى البيت وجاءت، في المساء، تحمل الطفل. رافقها الزوج حاملاً الحصن. كان الطفل ما يزال نائماً، ملفوقاً في القماط. تأمله العراف في ضوء النار وأشار لها بسبابته أن تتركه نائماً. سأله العراف زوجها:

- هل سألك الفقيه عن اسم أم الوليد؟

تبادل مع زوجته نظرة قبل أن يجيب:

١٣

- هل ضلّلته في الجواب؟

تبادل نظرة أخرى مع زوجته قبل أن يهُز رأسه بالنفي.

سؤال العِمَّاف:

- هل طلب أجر؟

- ۲ -

هل أجزلت له العطاء؟

سكت الزوج. استعاد ما حدث وأجاب بيفين:

- نعم. أعطيته شوالاً من الشعير وحفتين من الشاي الأخضر.

سَكَتُ الْعَرَافَ. تَنَاهَى الْحَصْنُ وَقَبَّلَهُ بَيْنَ يَدِيهِ. أَشَارَ إِلَى جَلْدِ الْعَبَانِ سَأَلَ:

ما هذَا؟

- سير من جلد الثعبان.

٢- حلد الثعان؟

- ۲۷ -

هل كان عطية من الفقه أيضاً؟

ـ لا. استقطعته من جلد قديم تلقيته هدية من أحد التجار.

ـ حَدَّجَهُ الْعَرَافُ بِاسْتِنْكَارٍ وَسَأْلَ :

ـ كيف تستخدم جلود الثعابين دون وصفة من ساحر؟

ـ هَزَ الْزَّوْجَ الْمُسْكِينَ رَأْسَهُ بِبِلَاهَةٍ وَهُمْهُمْ بِحَيَاءٍ :

ـ لا أفهم ..

ـ أَلَا تَعْرِفُ أَنَّهَا تُسْتَخَدَ فِي السُّحْرِ؟

ـ لم أسمع ذلك من أحد قبل اليوم ..

ـ التفت نحو المرأة وأمر :

ـ أَبْقِيْنِي الْطَّفْلَ !

ـ كشفت عن وجهه في ضوء النار. داعبت شفتيه ووجنتيه بأسابيعها ولكنه لم يفق. ضغطت على اذنه بإيمانها في حركة خبيثة ففتح عينيه. حرر العراف حرز الفقيه من خيط الجلد واقترب من الطفل. هَزَ الجلد المرقط في وجهه فرعن الطفل بصوت وحشٍّ وعاد يتشنج ويختضر.

ـ قال العراف :

ـ هل رأيت؟

ـ ثم ألقى بالجلد في النار.

ـ سكت الطفل ونام.

ـ قال العراف الحكيم :

ـ الولد مصاب بوسواس الحياة. سأكتب له حجاباً آخر.

(٣)

ـ لم يعلق في رقبته حجاباً يوازي في الفعالية والحسانة ذلك الحجاب

الذي كتبه له العَرَافُ الحكيم. أمَّه لم تكُفُ عن الإشادة به حتى مات.
الحجاج مسخٌ ضدُ وسواسِ الحياة.

مسح شيخ الأفاعي من رأسه ومدّ يده ولعب بالعصي والجبال. كفَ عن أن يرى فيها ثعابين تسعى وأفاعي رقطاء. قالت أمَّه لجارتها إنَّه أصبح ينام بعمقٍ وتوقف عن انتفاضات الفزع التي كانت تنتابه وتقلق نومه في الماضي. كما لم تصبه عين ولم يتعرَّض لعدوان الجن طوال السنوات السبع التي احتفظ فيها بالحصن. ولكن الحرز ضاع في العاشرة. أضاعه عندما كان يرعى الجديان الشقية مع الصغار. خبَطَت الأم على صدرها فرعاً وهرعت إلى المرعى. بحثت عن الحجاج مع عدد من الجارات. حرثت الخلاء والوديان ولكن الحجاج طار. الجن أخفى الحجاج وترك الولد يواجه مصيرًا شقياً مع الحياة.

في أول ليلة قضاها بدون حرز عادت له الأفعى.

استيقظ في قلب الليل مفروضاً وزعق بأعلى صوته: «الحياة. الحياة. لدغبني الحياة».

هرَعَت إليه الأم وأزاحت عنه الفراش. هبَ الأب من مضجعه وأوقد النَّار. بحثوا عن الحياة فلم يجدوها. قَبَعَ الولد بحوار الركبة يرتعش ويختنق بدموع الخوف.

قال الأب يهدى الأم:

- لا تتعي نفسك بالبحث. الحياة التي يتحدث عنها في رأسه.

وضعت الأم كلتا يديها على رأسها وناحت قائلة:

- يا ويلي ! بدأ كل شيء من جديد !

بدأ الوسواس من جديد حقاً. وتحاشى الولد العجال والعصي وكل الأشياء الملتوية كجسم الأفعى. ضَجَّ رأسه بالفحيم وأصبحت الحياة تلده في عقبه وتلتف حول عنقه كلما ذهب إلى فراشه لينام.

أخذته أمّه إلى فقيه عابر نزل على النّجع في طريقه إلى مراكش. قالت لها الجارات إنه جسور كالسبع ويقضي الليل كله في صراع مع المرددة والجان. ولم يوضح الفقيه سبب عداوته مع أهل الخفاء. ورأى حكماء القبيلة في هذا الصراع عملاً باطلاً لا مبرر له. لأن استفزاز الجنّ من قبل المغامرين كثيراً ما يجرّ الشّؤم على القوم المستوطنين أنفسهم.

حدثته بقصة الولد مع الحيات منذ الميلاد حتى ليلة ضياع الحجاب. وختمت قصتها باكية:

- العرّاف الحكيم هاجر إلى كانوا منذ سنوات. ولا أحد في النّجع يجد في نفسه الشجاعة لمعاداة الحياة الخفية. الله هو الذي أرسلك لي! هبّ الفقيه في وجهها:

- لن تفلحوا يا أهل الصحراء ما دمتم تتلقون الأحجبة من السحرة وتتبعون دين هؤلاء المجنوس! زوريني مع الولد في الغد.

جاءته مع الطفل في اليوم التالي. وجدته يترّبع على الأرض أمام موقد النار. أمسك بالولد من يده وأشار لها أن تخرج وتركهما على انفراد. تمثّلت في العراء المجاور عندما سمعت ولدتها يزعّع بصرخة جنونية. قفز قلها من صدرها وركضت إلى الخباء. وجدته ممدداً على الأرض، بجوار النار، يناظر الموت، في حين زحفت، تحت قدميه، حية حقيقة. شلّها الفزع، وتخلّى عنها العقل. وجدت نفسها تهجم على الفقيه المجرم وتضربه بأعواد الحطب ومسعر النار. تكسر المسرّ وتحطمّت الأعواد فنشبت أظافرها في وجهه وهي تولول:

- قتلت يا فقي النحس. قتلت ولدي بالسمّ لتقديمه قرباناً لكتوز الذهب. أنت طماع شقي باحث عن الذهب. أنت فقيه مزيف ورجل شرير!

هرب الفقيه من وجهها وهو يصيح:

- اتقِ الله يا امرأة! لقد وضعت حساباً لكل شيء. الأفعى لن تلدغ لأنني رتقت فكّها بالخيط والإبرة.

رُتِقَ فِمْهَا بِالْخِيطِ وَالْإِبْرَةِ حَقًاً وَلَكِنَ الصَّدْمَةُ جَعَلَتِ الْوَلَدَ يَفْقَدُ الْبَصَرَ إِلَى الأَبْدِ.

(٤)

اتَّخَذَ مِنَ الظَّلَمَاتِ بَيْتًا مِنْذَ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

وَمِنْ هَذَا الدَّهْلِيزِ بَدأَ يَعْرُفُ طَرِيقَهُ إِلَى الْجَوْفِ الْمُظْلَمِ. فَقَدَ الْوَالِدُ فِي الْوَاحِدِ وَالْعَشْرِينَ. وَتَبَعَّتِهِ الْوَالِدَةُ بَعْدَ ثَلَاثِ سَنِينَ. قَبْلَ أَنْ تَغِيبَ حَاوَلَتْ أَنْ تَرْبِطَ مَصِيرَهُ بِامْرَأَةٍ ظَنَّاً مِنْهَا أَنَّهَا سَتَضْمَنُ لَهُ السَّعَادَةَ. نَظَّمَتْ لَهُ مَعَ الْفَتَاهُ الْمُقْتَرَحَةِ لِقَاءً فَوْجَدَ أَنَّ لَهَا رَائِحَةً كَرِيهَةً، مُفْرَّغَةً، كَرَائِحَةً الظَّرْبَانِ.

تَخَلَّى عَنِ الزَّوْجِ وَأَصْبَحَتْ أَمْعَاؤُهُ تَصْعَدُ إِلَى بَلْعَوْمِهِ كَلَمَا جَالَسَ فَتَاهُ أَوْ اقْتَرَبَتْ مِنْهُ امْرَأَةً. كَانَتْ أَمَّهُ الْمَرْأَةُ الْوَحِيدُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ لَهَا رَائِحَةُ الظَّرْبَانِ!

بَدأَ يَجْلِسُ فِي ظَلِّ الْعُشِيَّةِ يَوْمِيًّا. يَنْصُتُ لِلسُّكُونِ الْجَلِيلِ وَيَدْبُبُ فِي دَهْلِيزِ الظَّلَمَاتِ. أَدْرَكَ أَنَّ الْبَصَرَ هُوَ الَّذِي يُلْبِسُ الْمَرْأَةَ الْبَهَاءَ وَيَجْعَلُهَا شَهِيَّةً فِي نَظَرِ الرَّجُلِ. وَلَكِنَ الظَّلَامُ كَشَفَ لَهُ حَقِيقَتَهَا وَتَعْرَى أَمَامَهُ بَاطِنَهَا الْقَبِيْعِ. أَرْبَاعُونَ عَامًا وَهُوَ يَرْصُدُ فِي أَوْعِيَةِ الْمَرْأَةِ مَصْدَرُ تَلْكَ الرَّائِحَةِ الْبَشْعَةِ. وَيَعْرَفُ الْآنَ أَنَّهُ مُضِى وَقْتٌ طَوِيلٌ مِنَ التَّأْمِلِ قَبْلَ أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَى شَكْوَةِ الْفَضَّلَاتِ الَّتِي تَسْكُنُ الْبَاطِنِ الْخَفِيِّ. يَضْحِكُ فِي سَرَّهُ يَوْمِيًّا وَيَسْخَرُ فِي نَفْسِهِ مِنْ هَوَلَاءِ الْفَرَسَانِ الْأَدْعِيَّاتِ الَّذِينَ يَصْوِرُ لَهُمْ نَظَرَهُمُ الْمَرْيِضُ، نَظَرَهُمُ الْأَعْمَى، الْمَرْأَةُ كَمَلَكُ السَّمَاءِ أَوْ حُورِيَّةُ الْجَنَّةِ. يَتَعَارِكُونَ عَلَى كَسْبِ رِضَاهُنَّ وَيَدْفَعُونَ أَنفُسَهُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ فِي غَزَوَاتِ الْأَدْغَالِ كَيْ يَسْلِبُوا السَّبَايَا الْجَبَشِيَّاتِ أَوْ يَعُودُوا بِالْفَقَيَّاتِ الْزَّنْجِيَّاتِ. يَحْسَبُ الْأَبْلَهُ الَّذِي يَرْمِي بِنَفْسِهِ فِي النَّارِ نَزُولًا عَنْ رَغْبَةِ حَسَنَاءِ أَنَّهُ فَارِسٌ وَنَبِيلٌ وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ مَخْلُوقٌ غَيِّرٌ مَأْخُوذٌ بِوَعَاءِ لَمَاعٍ مَحْشُو بِالنَّجَاسَاتِ. شَكْوَةُ تَفِيْضِ الْبَالْدُودِ وَالْدَّمِ وَالْبَوْلِ وَالْبَرَازِ. وَبِرَغْمِ أَنَّ الرَّجُلَ شَكْوَةً لَا تَخْتَلِفُ كَثِيرًا إِلَّا أَنَّ الرَّائِحَةَ، رَائِحَةُ الْأَنْثَى الْمُقْرَزَةِ، جَعَلَتِهِ يَرَاهَا فِي دَهْلِيزِ الظَّلَمَاتِ، فِي جَوْفِ الْمَرْأَةِ وَحْدَهُ. وَبِلْغَتْ بِهِ الْحَسَاسِيَّةُ حَدًّا جَعَلَهُ يَمْيِّزُ الْذَّكَرَ مِنَ الْأَنْثَى عَلَى مَسَافَةِ بَعِيلَةٍ جَدًّا.

ولكنه أحبَّ الغناءً أيضًا ودرَّب صوته، في كهف الظلمات، على حسن الإلقاء.

(٥)

بعد أربعين عاماً من حبس الظلمات أتته الخنسة المقدسة بنبأ الخلاص، فهل يعقل هذا؟

في زيارتها التالية قال لها:

- متى نبدأ الطقوس؟

قالت:

- في الغد، عند الفجر، تأخذني بين يديك. انزع الرأفة من قلبك واعصرني في عينيك بكل قوتك. لا تخف. فقدان العصارة لن يميتني. بعد ذلك تغمض جفنيك ثم تفتحهما، فإنْ رأيت قَبْسَ الفجر البكر بفصل جسد الليل عن جسد النهار فاعصب عينيك واتركهما في العصارة أربعين يوماً. ستدفع يوماً واحداً مقابل كل سنة قضيتها في حبس الظلمات. في اليوم الأربعين تفتح العصابة وتقتل الحية التي ستتجدها ملتفة في رقبة الركبة. وتكون بذلك قد انتقمت لنفسك ولـي. أربعون يوماً. إياك أن تخطيء الحساب!

في الغد جاءته في الميعاد. مَدَ يده وأخذها من أذنه حيث كانت تخفي. خرج ووقف في فم الخباء. يمْسِ شطر القبلة وانتظر الإشارة. ميلاد القبس الأول. حانت اللحظة فعصر الخنسة المقدسة في عينيه. أغمض جفنيه وألقى بالصَّدفة السوداء فزحفت تجرّ درعها المعصور وتسلل إلى الخباء.

ركع وتربَّع. سكن وحبس الأنفاس. أحس بحريق في المقلتين. العصارة اللزجة، المقرضة، الرجراحة، تحولت إلى سائل من جمر يشعل النار في الحدائق الميتين. أزاح اللثام عن الجبين وضغط على عينيه

براحة اليد. تفاصلت منها العصارة والدموع وسائل آخر نتن مثل القبح. ميز رائحة العفن بأنفه الذي تعود أن يرى امرأة في كهف الظلمات على مسيرة فرسخين. حان الوقت فبدأ يؤدي طقس الإعجاز. بدأ يفتح عينيه. تفاصلت من جبيه العرق. ارتجفت أطرافه. سحب نفساً وتباطأ. توقف وانتظر. أنصت للسكون ثم عاد يفتح بوابة الظلمات. العصارة اللزجة ألصقت الرموش على الرموش بعناد الصمع. ضغطهما من جديد ففتحت الدموع مساراً. انفصل الرموش عن الرمشن. انشق جدار الكهف. مرق التور البكر ستار الأربعين عاماً. رأى القبس البطل يعرى الزوجين العاشقين، يكشف المخدع ويفصل بين الجسدتين. تهض السماء عن الأرض. ويولد من الليل النهار. ففزع قلبه. فاض صدره بالبهجة. زغردت الجيتات في ايدينان . و . فجأة . مر شبح . عبر من الجهة الجنوبية واتجه شمالاً مهرولاً . أنفاسه تتلاحق و . إنـه . نـعـم . هـوـ الإـمـام . خـرـجـ منـ الـبـيـتـ المـجاـورـ . بـيـتـ الـعـرـافـةـ . تـرـىـ ماـذـاـ يـخـفـيـ الإـمـامـ فـيـ عـهـ وـهـوـ يـهـرـولـ ، لـاهـاـ إـلـىـ بـيـتـهـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ الـوقـتـ؟

مرق قطعة من الشاش. أسلل جفنيه حسب الوصيّة. أحكم العصابة حول عينيه وغضي وجهه باللثام. زحف نحو الخباء وهجّع بجوار الركبة. لم يكدر يغفو حتى أيقظته خطوات. نهض فغزت أنفه رائحة امرأة. جارته العجوز جاءته بالبشرارة المشؤومة.

- تيميط سبقتنا !

أذاع للقبيلة الباً المثُوّم ولكنه لم يستطع أن يقتل في صدره بهجة خروجه من كهف الظلمات.

(٦)

في الفجر تجتمع النّاس في الساحة لمشاهدة شعائر القصاص. تقاطرت القبيلة قبل انقشاع الظلمة وعبرت الأسوار. أقبلت النساء

يجرجرن ثيابهن الفضفاضة وأطفالهن السكارى بخدر النوم. بعض أبناء القبيلة قضوا الليل في «واو» خوفاً من أن تفوتهم طقوس حز الرأس، خاصة الشبان الذين لم يهاجروا مع القوافل إلى الواحات الجنوبية البعيدة حيث اعتاد الناس مشاهدة السياf يؤدي شعائر القصاص في مطلع كل صباح.

عجبت الساحة بالأشباح.

ولكن الساحة لم تستأثر وحدها بجمهرة الأشباح. على السطوح صعدت نساء «واو»، كما تسلق أولادها جدران السور من كلا الجانبين، وتدلّت سيقانهم العارية على الجدران الشرسّة المغطاة بالطين والملح. في قلب الساحة وقف سياf زنجي مارد أمام جذع نخلة مستدير، تعرّض لعملية احتزاز وحشية عندما استقطع من أصله واستجلب من الواحة البعيدة، قبل أن يقترب القاضي الشنقيطي أن يُتّخذ مقصّلة لاحتزاز رؤوس العصاة وإعدام الخطة.

وقف القاضي في مواجهة جذع المقصّلة، يلتـف وراءه، في طابور أفقـي، أعوانه ومساعده الذي يتلقـف الأحكـام الحكـيمة من فم القاضـي ليـدونـها بعد القـصبـ في القرطـاسـ الأـصـفـرـ.

جاء العـسـ يـجـرـرـونـ السـجـينـ، يـتـقدـمـهـمـ كـبـيرـ العـسـ. لـاحـظـ القـاضـيـ بهـجـةـ خـفـيـةـ فيـ وجـهـ الدـرـوـشـ. لـاحـظـ بـهـاءـ مـفـاجـئـاـ بـرـغـمـ شـدـةـ العـتـمـةـ. اـخـتـفـيـ منـ الـوـجـهـ الشـحـوبـ وـالـأـلـمـ وـحـلـتـ فـيـ مـلـامـعـ أـخـرـىـ، غـامـضـةـ. الـبـشـرـةـ مـصـقولـةـ كـأـنـهـ دـهـنـتـ بـرـيـتـ الـزـيـتونـ الـفـرـعـونـيـ الـذـيـ يـجـلـبـهـ التـجـارـ منـ جـبـلـ نـفـوسـةـ. وـالـعـيـنـ شـعـتـ بـرـيـقـ خـفـيـ. بـرـيـقـ الـفـرـحـ وـاقـتـرـابـ الـخـلـاـصـ. حـتـىـ الـعـيـنـ الـحـوـلـاءـ نـطـقـتـ بـالـسـعـادـةـ. عـلـىـ شـفـتـيـهـ رـأـيـ القـاضـيـ اـبـتـسـامـةـ مـبـهـمـةـ. اـبـتـسـامـةـ لـيـسـ سـاحـرـةـ، وـلـيـسـ حـاـقـدـةـ. اـبـتـسـامـةـ صـافـيـةـ، بـعـيـدـةـ، غـيرـ مـوـجـهـةـ لـلـكـائـنـاتـ الـدـنـيـوـيـةـ. نـعـمـ. إـنـهـ لـيـسـ اـسـتـفـرـازـيـةـ. لـيـسـ دـنـيـوـيـةـ. وـلـكـنـ القـاضـيـ الـذـيـ لـمـ يـعـرـفـ الـمـرـابـطـيـةـ وـلـاـ الـطـرـقـ الصـوـفـيـةـ، القـاضـيـ الشـنـقـيـطـيـ الـذـيـ لـمـ يـحـتـكـ قـبـلـ الـيـوـمـ بـالـدـرـاوـشـ وـالـمـجـاذـبـ، تـقـدـمـ مـنـ سـجـينـهـ وـسـأـلـ باـسـفـازـ:

- لماذا تبتسم؟

لم يجب الدرويش. ظلَّ يحْدَقُ في باطنِه حيث أودع قلبه واستمرت الابتسامة الغريبة ترسم على شفتيه وتغمر كل وجهه. تابعه القاضي لحظات ولكنَّه لم يكرر السؤال. اقترب منه أحد الأعوان وهو من في أذنه. انصت باهتمام. عاد إلى السجين وسأله:

- كل الشرائع تقضي بأنْ يُسأَلُ المحكوم عن رغبته الدنيوية الأخيرة. ولكنَّ السلطان تعهَّد بأنْ ينفَذَ لك أي رغبة مهما كانت جسمية ومستحيلة. أظنُّ أنه فعل ذلك بتوصية خاصة من صديقتك الأميرة. فأفصح وكنْ على يقين من أن رغبتك ستكون... .

ضاقت ابتسامة الملائكة في وجه الدرويش. تضاءلت حتى اختفت تماماً وحلَّ محلها التوتر الدنوي، عاد الهمُّ الأرضيُّ، فنطقت العين بالشقاء و... الغضب، ثم... فجأة، انفجر موسى في ضحكة هستيرية، استهتارية، شيطانية، تناقض، نهائياً، هيئته الجليلة، الإلهية، التي كانت تتلمسه منذ قليل. عاد الدرويش كائناً أرضياً، دنويَاً، بائساً. ولم يفهم أحد علاقة هذا التحول بالسؤال عن الرغبة الأخيرة. ولم يكن مُقدَّراً لأحد أن يجد الصلة بينهما إلى الأبد.

ثم... توقف.

لحظتها افتحت النذير الجموع، وعبر الحلقة التي تطوق المحكوم في الساحة، حتى وقف أمام القاضي. رکع على ركبتيه فأنصت الأعوان لأنفاسه المتتابعة وتبادلوا مع بابا نظرات في العتمة. قال النذير:

- هاك الدليل: الدرويش لم يقتل تيميط، لأنَّ الإمام هو الذي قتل. هيمن صمت الموتى.

سمع الناس أنفاس بعضهم، سمعوا دقات قلوب بعضهم البعض. وكادوا يسمعون الأفكار التي تدور في رؤوس بعضهم البعض.

جرح صوت القاضي الصمت:

- الإمام؟! .

- نعم.

- هاتِ دليلك!

- رأيته يخرج من بيت المرحومة فجر يوم الجريمة. يهروء إلى بيته يتأطط
في كمّه شيئاً أطلاً أنه صندوق الحلي .

- عجيب. أنت أعمى فهل أبصرته بالبصرة أيضاً؟

سكت النذير لحظة. بلع ريقه. أجاب:

- لا. بالبصر.

- البصر؟

.....

- هل هذا لغز آخر من ألغاز السَّحَرَة؟

تكلّم النذير بصوت أليم:

- عشت في كهف الظلمات أربعين عاماً، وعندما أنزلت السماء النور في
بصري رأيت القاتل. أغمضتهما ثانية لأنفذ وعداً قطعته على نفسي، نذراً
صغيراً للسماء، أن تظللاً في العصابة أربعين يوماً لأكب العانية وأستعيد
البصر. ولكنك رفضت أن تمهلني أربعين يوماً، فقررت أن أقايض الحقيقة
بالبصر، أضئي بالنور في سبيل الدرويش. إذ ما نفع أن أكب البصر إذا
كنت ستحرّ رأس الدرويش في المقصلة؟ ظلمات القبو قاسية يا جناب
القاضي ولكن زوال الدرويش ظلم أقسى.

أزاح اللثام بحركة واحدة. وحلَّ عقدة العصابة بيدين مرتجفين.

نهض حاسر الرأس، مفتوح العينين. تنقل بين الحاضرين كالمحنون
وهو يردد:

- هذا أنت يا جناب القاضي. وهذا ثوبك الأزرق على كتفيك. وهذا

مساعدك المُبَجَّل يحمل القرطاس وعود القصب. وهذا «كريمو» كبير العسس. وهذا الدرويش بثيابه الملؤثة بالدم والدهن والغبار. . . هذه مقصلة التخل أيضاً. فهل تزيد دليلاً آخر على حلول نور الله في بصري؟

علّت الهرجة.

صاح القاضي يأمر العسس:

- اقبضوا على الإمام. هاتوا الإمام مقيداً باغلظ حبل!

تمشى في الحلقة بخطوات عصبية. أحسن أن طعنة سماوية وجهت لضميره القضائي، لشرفه القضائي، لسمعته القضائية. لوح بيده المقطوعة في الهواء وأمر الجلاد:

- أطلق سراح هذا الشقي!

زغردت نساء القبيلة.

عم الهرج.

تنفس الفجر. تسلل الضوء البتول وغمر الساحة. انفصل الليل عن النهار وتوقفت السماء عن معاشرة الصحراء.

فكَّ كبير العسس وثاق الدرويش. الجبل الوحشي أيضاً ملوث بالدم. حبل المسد المتوجش لعق دم الدرويش.

استمرت الرغاريدي.

عاد العسس. اختلوا بالقاضي جانباً، وهمسوا في أذنه بخبر جليل. اكتب القاضي. تجهم وتقدّم من الأعوان منكس الرأس. رفع رأسه إلى الزحمة. أُعلن الخبر كأنه يشتمهم:

- الإمام أيضاً قُتِل البارحة!

في تلك اللحظة التي أكمل فيها القاضي جملته وثب الدرويش وهجم

على النذير. قفز الجنون من عينيه. علا الزبد شفتيه ونَزَّ اللعاب من فمه. قفز فوق رأس منقذه وطَوَّق عنقه بكلتا يديه في نَيَّةٍ وحشية لقتله خنقاً. ردَّ بصوت يخنقه الغضب:

- يا أحمق! مَنْ أخبرك أني أريد الحياة؟ مَنْ أخبرك أني أنوي البقاء بين الوحش؟ هل استعدت بصرك كي تفقد بصيرتك يا شقيّ؟ ليتك بقيت بصيراً. كنت بصيراً وأصبحت أعمى. أنت الآن أعمى! أعمى!

نَزَعَه العسس فقاومهم. حاول أن يتخَلَّص من أيديهم. تكافف الزبد على شفتيه وزادت عيناه جحوطاً وجحوناً. زحف النذير البائس على الأرض يبحث عن لثامه. قال بصوت باكٍ:

- اغفر لي!

بدأ ستار الغشاوة ينزل على عينيه. هو في القبو مرة أخرى.

(٧)

استدعاه السلطان.

جاء إلى القصر للمثول بين يديه ولكن الحاجب استوقفه واستبقياه في الردهة المعتمة قائلاً إن السلطان منشغل بالتشاور مع التجار. تمشي في الردهة بخطوات عصبية وفكَّر في اللعنة التي تلاهقه مصممة أن تحرمه ممارسة القضاء. بدأت في بلاد شنقيط وطاردته عبر الصحراء كلها حتى نزلت على رأسه في «واو». ما أن اعتنده سلطان شنقيط قاصياً وأصدر أول حكم على قاطع الطريق الشقيّ بيتر اليد حتى فقد يده بالطريقة نفسها ومن قاطع الطريق نفسه. ولم تتوقف سخرية القدر عند هذا الحدّ، بل إن المجرم الشقيّ ردَّ التعويذة القضائية نفسها التي نطق بها عند إصدار الحكم: «العين بالعين والسن بالسن» وأضاف الشقيّ المتورث جملة فاسية على التعويذة المستعارة من قاموس القضاء فقال: «... سأعلمك نتيجة الترويج لأحكام المجروس في الصحراء». تماثل للشفاء فذهب إلى فقيه

اشتهر بعلمه وزهده فسأله عما إذا كان مبدأ القصائي «العين بالعين والسن بالسن» مبدأً مجوسيًّا فأجابه الزاهد: «مبلغ علمي أنه ورد في أسفار اليهود، والله أعلم...». أدهشه الجواب ولم يفهم. أصدر حكمًا قضائيًّا آخر طبقاً للمبدأ نفسه فانقلب السحر على الساحر وارتدى النصل إلى نحره: حكم على تاجر عابر بثلاث عشرة جلدة بالسوط عقاباً له على اعتدائه على مراقب له في القافلة اختلف معه حول المبلغ المستحق كأجر على الرحلة فوجد نفسه، في اليوم التالي لتنفيذ القصاص، مصلوباً على جذع نخلة والسوط يلسع ظهره. جلده أعنوانه وتركوه معلقاً على العمود، ينزف دماً، حتى الصباح. في حين فرَّ التاجر وأعنوانه.

الحكم الآخر كان سبباً في إخراجه من بلاد شنقيط كلها.

وقع في يده أحد الأعيان الأغنياء بعد أن تورط في نَحرٍ غريم له نافسه على قلب مطلقة مشبوهة السمعة. نَوَّ في حيثيات حكمه بشرائط الأرض وشرائع السماء حسب العادة وأسمع جمْع الأعيان تعويذته القديمة: «العين بالعين والسن بالسن والقاتل يُقتل» ثم نطق بالحكم. قطع رقبة المتهم بحد السيف.

أدهش الحكم الأعيان. وفي الليل بعث له السلطان رسولًا بلغه نية الأعيان بالاعتداء عليه ونحره، وقال له المبعوث إن حياته في خطر ولا يرى طريقة لدفع الشرّ غير أن يترك شنقيط حالاً ويدخل الصحراء.

هرب في الليلة نفسها.

في رحلته الطويلة عبر الصحراء حاول أن يفكُّ الطلسم ويفهم سرَّ اللعنة. تذكَّر الطفولة الشقية عملاً بنصيحة معلّمه الجليل الذي قال له مرَّة: «إذا عجزت عن فهم أمر ففتَّش عن تفسير له في الطفولة». فماذا في طفولته يستحق التفتيش ويستوجب ملاحقته باللعنة؟ ماذَا في طفولته غير النكد والدماء والتناحر القبلي؟ التناحر القبلي هو سبب تبنِّمه ومؤسساته التي جعلته يفقد أباه وهو طفل لم يبلغ السادسة. تلك طعنةٌ أخرى لن ينساها. أغارت

على نجعهم قبيلة معادية للأخذ بثار قديم. قتلت الرجال وأسرت النساء. أمه كانت من بين السبايا. قادهم المقاتلون كالقطيع إلى متجمع القبيلة المعادية. تركوهم في العراء وانهمكوا في اقتسام الأسلاب والفنائيم بطريق الفُرْعَةِ.

كانت أمه من نصيب رجل من الوجهاء يمُتُّ إلى شيخ القبيلة بصلة القرابة. في الليلة التي أعقبت القسمة أطعمنه أمه عشاء فاخراً وأعادت له فراشاً دافئاً في خباء نصبه الرجل خصيصاً. في قلب الليل استيقظ مفروعاً. أيقظه العراك. كانت أمه تبكي بجوار الركبة والرجل المتلوش ينهال على منكبها بحزام الجلد. صرخ وارتدى في حضنها ولكن الرجل لم يتوقف عن ضربها بحزام.

في الصباح تنازل عنها الوحش لقريبه زعيم القبيلة. انتقل للحياة في خباء جديد نصبه لهما الرعيم. وبعد أقل من عام تنازل عنها الرعيم، أو ربما طلّقها، فاقتربت برجل آخر، عجوز، يسكن في المراعي بعيداً عن خيام القبيلة.

ولا يستطيع الآن أن يتذكّر الأم إلا وهي شقيقة، باكية، بائسة، تعاني قساوات الرجال الأغراط. كره الظلم وقرر أن يتولّي الميزان ويرفع رأس العدالة عالياً.

تعلم القرآن على يد الفقهاء وتلقى علوم الفقه في الواحات. سانده معلمه الحكيم فدرس في مراكش أصول القضاء. عاد إلى شنقيط ليمارس المهنة السماوية. فهل في معاقبة الظالم وإحلال العدالة ما يغطي الألهة أو يستفرُّ القدر؟

(٨)

أذن له الحاجب بالدخول.

لم ينهض السلطان لاستقباله. صافحه دون أن يتحرّك في جلسته. على

يمين السلطان جلس شيخ وقور. عرف القاضي في حركاته ونظرته وحيويته أحد التجار. أجلسه السلطان بجواره على الكليل وقال بنبرة غامضة:

- بلغتني أساطير الساحة وكذلك مصرع الإمام.

تبادل نظرة مع التاجر الزائر وأضاف:

- كما بلغتني أحكامك القاسية!

- هتف ببابا بدهشة:

- قاسية؟

تبادل نظرة أخرى مع ضيفه. استمر باللهجة الخفية نفسها:

- لا أستطيع أن أسميه رحيمة على كل حال، إذ لا أدرى أي حكم يمكن أن يفوق حز الرقبة قساوة!

أفلتت ضحكة هازئة من التاجر المهيب. رمقه ببابا بحقن. أحسن بحدس القاضي كيف تُشجع له المكيدة. قرر أن يدافع عن نفسه:

- العين بالعين ..

قاطعه السلطان باشمئزاز:

- أعرف. أعرف. العين بالعين والسن بالسن. وأعرف أيضاً أن القاتل لا بد أن يقتل في شريعة السماء وشريعة الأرض. ولكن أجبني على سؤال واحد: ماذا كنت ستَرَ لو قطعت رقبة الدرويش المسكين؟ ماذا كنت ستفعل بضميرك الذي يتغنى بالانتصار للعدل لو لم يتدخل النذير البائس وينفذك من إهدر دم نفس بريئة؟ أجب على سؤالي.

سكت ببابا. هيمن الصمت. تكلم السلطان من جديد:

- ألم يهreu إليك نفس النذير ويطلب منك أن تمهله أربعين يوماً؟ ألم يتدخل العجوز «بَكَة» ويطلب للدرويش المهلة والرحمة ونزع تلك الأعمدة الفظيعة؟ لا تدري أن النذير البائس حَنَثَ بالنَّذَرِ وأصيب بالعمى مرة أخرى؟ بماذا يحدُثك ضميرك القضائي الآن؟

ضاقت أصابع المكيدة حول رقبته. ترافق عن نفسه لنفي التهم الموجهة
إليه:

- أعترف أن القَدْر هو الذي حال دون حَزْر رقبة الدرويش.

قاطعه السلطان بغضبة مجوسيَّة:

- هذا يكفي. هذا الاعتراف يكفيوني كي أسائلك: متى كان القضاة
يعتمدون على الأقدار في تبرير أحكامهم؟

- ليس من لي جانب السلطان أن أقول إن البراهين كلها تدين الدرويش.
اعترف بأنه سرق المدينة السرية، كما اعترف بوجود عداوة...

- ولكنه لم يعترف بارتكاب الجريمة، بل نفي بشدة أن تكون له أي صلة
بما حدث. فكيف تحكم بزهق الروح بدون شهود وبدون اعتراف بالجريمة
وبدون وجود دليل قاطع. أي قضاء هذا الذي يعلمونه في مراكش دون
مراجعة هذه الشروط؟ أم أن القبائل المعادية هي التي أرسلتك خصيصاً كي
تفتن في «واو» وتؤلِّب القبيلة ضد السلطنة؟

فرَّع القاضي. برزت عيناه من محجريهما وهتف بضراعة ممزوجة
بالاستنكار:

- أستغفر الله. حاشا الله. إذا حجب السلطان عنَّي ثقته فإني أمدَّ
رقبتي، أمام هذا الضيف، ليضربها بالسيف.

عَدَّل السلطان من وضع اللثام على شفتيه. على صدره لمع المفتاح
الذهبي. سأله:

- لو لم يُقتل الإمام فأي حكم كنت ستنزله في حقه؟

أجاب القاضي بلا تردد:

- بالموت طبعاً.

تبادل السلطان مع ضيفه نظرة سريعة ذات معنى. قال السلطان:

- هل هو عناد؟
- اللهم أجرني . العدالة وليس العناد .
- وما هو البرهان؟
- شهادة النذير .
- هل تجوز شهادة النذير إذا علمت أن بينهما عداوة؟ سكت بابا لحظة متفكراً . قال :
- أعترف أن هذا سيغير من الأمر بعض الشيء .
- توقيتك أن تقول إن هذا سيغير من الأمر كلّاً، ولكن انتظر. هل تدري من قتل الإمام؟
- لم أبدأ تجرياتي بعد .
- هل تتصور أن يقوم رجل فاضل، شيخ وقور، وتأجر مُجّل، وفوق ذلك كله، صديق قديم لي ولك ولـ «واو» كلها، بعمل بشع كهذا؟ هل يمكنك أن تصوّر الحاج البكاي بلحىته البيضاء وهيئة الجليلة، يتسلل ليلاً ويستلّ خنجرأً ليذبح الإمام في مخدعه؟
- لا!
- هل تعرف لماذا؟ لقد اختلف اللصان. اتفقا على التخلص من العرافة بالمدية التي سرقها الدرويش وأضاعها في وادي الطلع واستوليا على ذهبها. اختلفا على الذهب المسروق فاحتكم الرجل الفاضل إلى الخنجر، ثم هرب إلى مزرق.
- لا!
- قل لي : لو سقت إليك الحاج البكاي مقيداً بالسلسلة ودفعته بين يديك لينال الجزاء فأي حكم سيناله .
- هب القاضي بحماس :

ـ الموت. أي مصير يمكن أن يتظر مخلوق خان الماء والملح غير الموت؟

ـ ولكن لماذا تتعجل الأحكام؟ لا تستطيع أن تتصور أن البشر مخلوقات أرضية، شقية، وضعيفة الإرادة، فَسْتَ عليها الظروف وَفَصَمَتَ الحياة ظهرها؟ لا تحسُّ نحو هذه المخلوقات بالشفقة؟

ـ الشفقة على الآثم مقبرة العدالة. القاضي الذي يشقق على قاتل يخون ضميره ويجهز على العدالة بخنجر ليتحول هو نفسه إلى قاتل.

ـ اسمعني. أسمع. أنت تعرف قصة إفلاس البكاي، وتعرف كيف افترض مني التبر لاستعادة مرکزه المالي. ولكنك لا تعرف ما فعله معه القدر بعد ذلك. لقد ضربوا الصفة الثانية التي وضع فيها قلبه ورهن بها رأسه في أيدي الدائنين. ولم يكتف هؤلاء الأوباش بهذه المكيدة، بل أقنعوا الوالي أن يبيع امرأته وأولاده في سوق العبيد إمعاناً في إذلال عدوهم القديم. عاد إلى الواحات الجنوبية ليجمع الذهب بأي وسيلة ليسترد امرأته وأولاده قبل أن يعبر بهم النصارى إلى ما وراء البحار. لا يستحق رجل كهذا شفقة من قلب القاضي؟

تكلّم بابا بحماس:

ـ يستحق الشفقة قطعاً من بابا ولكن لا يستحقها من القاضي. من حق الناس أن يتعاطفوا معه ويبكون القسوة التي عامله بها القدر ولكن القضاء، يا جناب السلطان، لا يعترف بهذه اللغة. لا يفهم هذه اللغة. القاضي سيحكم عليه بالموت في كل الأحوال.

ـ حلق السلطان في عينيه طويلاً. قال بغموض:

ـ دعني أقول لك أن ما ينقص قلبك هو الرحمة!

ـ زحفت عتمة في عينيه وقال بحزن:

ـ أعرف الآن سبب شقاوتك في القضاء. أعرف لماذا قطع قاطع الطريق

يدك ولماذا طارdek الوجهاء من شنقيط. قساوتك هي السبب. أنت رجل عاش طفولة شقية ولا يرى أن يرى في الناس غير رجال أمه القساة. أنت عشت طوال هذا العمر وتعلمت القضاء لا لرفع رأس العدالة ولكن لكي تتقمم من رجال أمك الوحوش. نعم. أنت نمت طوال هذا العمر لتربي في قلبك الانتقام وحده. أنت رجل حاقد!

لم يرف للقاضي جفن. استمر يحذق في السلطان دون أن يطأطئه رأساً. قال:

- ليس هناك قوة تجعلني أرجع عن إزال القصاص..

قاطعه السلطان مرة أخرى:

- هذا فراق بيني وبينك. لا أريد أن ينفصل من حولي الأهالي.

قال القاضي بشجاعة:

- يؤسفني، يا جناب السلطان، أن نفترق، ولكن هذا لن ينال من تقديري لشخصك، كما أؤكد لك أنه لن ينال من قناعتي أيضاً. أعقب ذلك صمت كثيف.

عندما تأهب القاضي للخروج سأله الضيف لأول مرة:

- أغفر لي تطفلي ولكن ألا تدري أن الحياة هي قاتل أو مقتول؟ فإن لم نرحم القاتل فإنه ليس مستبعداً أن ينفرض الأصل البشري. فما موقف القاضي في هذه الحال؟
حَدَّجَ الزائر بفضول.

- اعلم يا شيخنا الفاضل أن العدالة هي ناموس الله في الأرض، وهي لا تضع حساباً لأبعد من القصاص. فإن كان في إزال القصاص إبادة لجنس البشر وليس من شأن القاضي أن يتدخل في حدود الله. أما أنا فسأحكم على القاتل بالقتل حتى لو كان آخر بني آدم يدب في أرض الصحراء.

خرج. لم يشّيعه أحد.

(٩)

صَرَعَتْهُ الْحَمَىٰ . هَجَّعَ عَلَى جَنْبِهِ الْأَيْمَنِ ، مَتَوَسِّدًا يَدِهِ . فِي عَيْنِهِ حَرِيقٌ . فِي جَسْدِهِ كَلْهٌ حَرِيقٌ . اشْتَدَّتِ الْحَمَىٰ مَعَ الْمَسَاءِ وَأَصْبَحَ يَصْطَفَقُ وَيَرْتَدُ كَلْمَا تَقْدَمُ اللَّيلِ . لَا يَدْرِي مَتَى جَاءَتِ الْخَفْسَةُ الْمَقْدَسَةُ . تَزَحَّفُ عَلَى الرَّمْلِ وَتَجُرُّ جَسْمَهَا الْبَائِسَ الْهَزِيلَ . الْجَسْمُ الْمَبْعُوجُ الَّذِي اسْتَنْزَفَ عَلَى التَّرِيَاقِ الْفَصَائِعِ . قَبَّتْ عَنْدَ قَدْمِ الرَّكِيْزَةِ وَرَفَضَتْ أَنْ تَقْرَبَ . لَمْ تَسْلُقْ سَاعِدَهُ ، وَلَمْ تَدَاعِبْ وَجْهَهُ ، وَلَمْ تَسْلُلْ إِلَى أَذْنِهِ . كَانَتْ تَرْجُفُ أَيْضًا . قَالَتْ بِحَزْنٍ :

- خُنْتَ الْعَهْدَ .

نَدَّتْ عَنْهُ آهَةً ، حَشْرَجَةً ، أَنِينَ مَحْمُومًّا . اسْتَمْرَتْ فِي الرَّعِيدِ :
- ضَيَّعْتَ نَفْسَكَ وَضَيَّعْتَنِي مَعَكَ . لِمَاذَا خُنْتَ الْعَهْدَ ؟ لِمَاذَا ضَيَّعْتَنِي
وَضَيَّعْتَ نَفْسَكَ ؟

أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ . أَنْ يَقُولُ لَهَا إِنَّهُ خَانَ الْوَعْدَ لَأَنَّهُ افْتَدَى دَمَ الدَّرَوِيْشِ بِعَيْرِهِ ، وَلَا خَيْرٌ فِي الصَّحْرَاءِ إِذَا اخْتَفَى مِنْهَا رَجُلُ اللَّهِ . أَرَادَ أَنْ يَخْبُرَهَا أَنَّهُ لَمْ يَحْتَمِلْ أَنْ يَرَى سِيفَ الظُّلْمِ يَهُوِي عَلَى رَقْبَةِ الْمَرَابِطِ الْبَرِيءِ . وَلَكِنَّ الْحَمَىٰ شَلَّتْ لِسَانَهُ ، فَوَجَدَ نَفْسَهُ يَنْزَلُ إِلَى الْقَبُوْرِ ، يَعُودُ إِلَى الْبَاطِنِ ، يَجُوسُ فِي الظَّلَمَاتِ . زَحَفَ فِي الْكَهْفِ . الْكَهْفُ يَضِيقُ ، وَهُوَ يَخْتَنُ ، وَلَكِنَّهُ مَصْمُمٌ أَنْ يَعْبُرَ النَّفْقَ إِلَى الطَّرْفِ الْآخَرِ ، إِلَى النُّورِ ، فَتَحَامِلُ وَزَحَفَ ، اعْتَرَضَهُ صَخْرَةٌ . حَاوَلَ أَنْ يَزْرَحْهَا . كَانَتْ قَطْعَةُ صَمَاءٍ مِنْ جَبَلٍ تَسْدِيُ الْمَنْفَذَ إِلَى الْضَّفَةِ الْأُخْرَى .

سَمِعَ الْفَحِيجُ الْمَقْرَزُ فِي الظُّلْمَةِ فَأَشْتَعَلَ بِدَنَهُ بِقَشْعَرِيرَةٍ . تَزَوَّدُ بِكُلِّ مَا فِي أَعْضَائِهِ الْمَحْمُومَةِ مِنْ قَوَّةٍ وَحَاوَلَ مَعَ الصَّخْرَةِ الْهَمْجِيَّةِ . وَلَكِنَّ قَطْعَةُ الْجَبَلِ كَانَتْ أَقْوَى . أَدْرَكَتْهُ الْحَيَّةُ . أَدْرَكَتْهُ بَعْدَ مَطَارِدَةٍ اسْتَمْرَتْ أَكْثَرَ مِنْ

أربعين عاماً. لدغته بنابها الرعناف المتعطش للعقاب الإنساني ونزع عنه الحياة للمرة الثالثة: المرة الأولى عندما وسوسَت لجده في البستان وأغرَّته باللقطة الحرام، وفي المرة الثانية عندما حَرَّمَه البصر، وفي المرة الثالثة، والأخيرة، جزاء خيانته الروصية وجهمه بالتعويذة الصحراوية التي تقول إن الحياة تسعى إليك بالناب إذا لم تذهب إليها بالهراوة!

أخيراً ضرب الكهف زلزال فترجح الصخرة وهوت في الهاوية. هوى وراءها. وكان عليه أن يهوي في الفراغ والظلمات حتى يسطع الضياء في الطرف الآخر من الظلمة. وما أن سطع الضياء حتى رأى الوعاء، شكوة العفن، ممددة خلفه في الظلام، فعبر والتحق بالضوء.

(١٠)

استيقظ القبلي وتنفس الغبار ثلاثة أيام متالية.

لم يغفر لنفسه غضبته الجنونية في الساحة فخرج إلى الخلاء. مكث في وادي الطلح وتفقد أماته الأشجار. تنقل بينها ورأى كيف شحبت أغصان بعض الأشجار وذبلت أوراقها بسبب العطش الطويل. حام حولها وداعبها وعزّها بالصبر. وعدها أيضاً أن ينذر لله نذراً ليضع حدّاً للقبلي والجدب. قضى ليلتين هناك ينتظر قطيع الذئاب. هَجَّع تحت عناقيد النجوم وانتظر العواء الفاجع. انتظر ضحكة الجوع. بكائية الشعب. الشكوى الحكمة. نداء جدّته العجوز. الذئبة الحكيمية التي أرضعت جده وأخت بينه وبين قطيع الذئاب. الأم الرحيمة التي حذرته من العودة إلى حظيرة أبناء آدم. ولكنه انقاد وراء سحر حواء فانتصر، في نفسه، نداء الشهوة على صوت الحكمة، فجَّر على كل نسله اللعنة. فتعالي أيتها العجوز الحكيمية. تعالي يا أمي الحقيقة، جدتي الرحيمة، واسمعي السر الذي يخبئه لك حفيدك. إقبلي في قطيعك حفيدك الضال، لأن المخلوق لا بد أن يعود إلى أصله، كما يعود الطائر المهاجر إلى عشه، مهما تاه وضعاف في صحراء الله الأبدية. إقبلي يا عجوزي الطيبة حفيدك ورديه إلى القطيع ليخبرك برحله ولدك

الضال في حظيرة البشر. بغيرته القاسية في حظيرة البشر. إقليني في القطيع واغيري لجدي ضلاته وجهله بوحشية الناس. إقليني لأحدثك بما فعلوه به وبنسله من بعده. إقليني، بالله، لأحدثك عن السم الزعاف الذي تجرّعه من شفتي حواء - الحياة.

وبدل أن يسمع النداء الحزين زفر القبلي في أذنيه وغمراه بالغبار.

عاد إلى النجع وذهب لزيارة النذير. تذكر غضبه المجروسية على مخلصه فاكتأب ونزف قلبه بالحزن. وجد نفسه في بربخ يطل على الخلاص الأبدى فأعاده النذير إلى الأرض الوحشية. أنزله من العرش السماوى المصنوع من خيوط الضوء ليجد نفسه، مرة أخرى، بين قطيع وحوش تقاتل بالسيوف والسكاكين في سبيل قطعة مشوّمة من نحاس النحاس. كان نقطة ضوء في الفضاء الخالد فأصبح، بعد خروجه من البربخ وحلوله في الوعاء، كتلة لحم تتمزق وتستجيب لأصغر ألم. لخدش في الجبين، أو وخز في إصبع. فكيف بـ«ايغايغان» التي تجعل العصب نفسه ينزف.

ولكن ما يدري النذير أنه، بتضحيته، حرّمه من حرم الخلاص وأعاده إلى معقل الحسّ ووعاء الألم.

غفر له لأنّه لا يدري. وذهب لزيارته كي يحدّثه عن بربخ الخلاص ومتاهة الضياء. ولم يكن الدرويش يدري أيضاً أن النذير قد سبّه إلى هناك، وأصبح جزءاً من المتاهة.

(11)

غزّته موجة العفن فسدّ أنفه بثامه. جاء إلى الخباء من الشمال، من الجهة المؤدية إلى ايدينان، فساقته له الريح الرائحة واستقبلته بموجة العفن. أحسّ بدوار وغثيان. دار حول الخباء. بجوار الأوتاد، من الناحية الشمالية، رحفت الرملة وارتفعت تلةً ترابية عنيدة على طول الامتداد الخلفي للخباء. في المدخل حاصرت الرملة كوم الحطب أيضاً وغمرت أوعية الشاي وأواني

الطعام. أفرغت الأرة من الرماد وطار الغبار بالهباء. ولم تترك الريح في الحفرة إلا القطع الكبيرة من الفحم وأعواد حطب احترق نصفها. في المدخل تمدد عرقوب رملي قصير القامة، حاد الظهر، عنيد اللسان. سعى لسد فم الخباء والالقاء بالطرف الآخر، الخفي، للرممة، في نية خبيثة لوصل الطوق وقفل دائرة القبر.

كانت الريح تدفعه بعنف إلى الأمام، نحو القبر، في هجمات جنوبية همجية.

في صدر العرقوب رأى طابور الديدان المقززة يزحف ببطء خارجاً من الخباء، ولكنه لم يشم رائحة الفساد. الرائحة خطفتها الريح وطارت بها إلى الجهة المضادة.

اجتاز العرقوب القصير وأزاح طرف الخباء. وقع بصره على الشكوة. البدن ممدّد في الجزء الأيمن من الخيمة. الرأس ملقى نحو الشرق، نحو القبلة، والأرجل ممدودة إلى الركبة. على الأرض، حول الجسد، سال صديد. خليط من الدهون والدم والقبيح. فوق السائل تجمعت أسراب ذباب سمين، كبير الحجم، أخضر اللون.

الجسم كله مغمور بالديدان.

الزواحف المقززة تخرج من الفم المفتوح، الأزرق، لتدخل فتحة الأنف، وتخرج من فتحتي الأنف لتدخل إلى مقلة العين. كانت العين اليسرى مكشوفة، في حين انسل اللثام على قرينته اليمنى، فدبّت الحشرات في المقلة الخاوية، المطفأة، ونهشت غشاءها العاري الذي قضى في حبس الظلمة وحمل دوماً بمشاهدة القبر والشمس.

الأطراف المكشوفة أيضاً نزف منها الصديد، من أصابع اليدين اللتين تقپضان في وحشية على حفتين من الرمل، ومن القدمين المغمورتين بالتراب.

بجوار العقب الأيمن رأى رأسها. رأس حية قبيحة تحدّق فيه بوعيد، في

حين أخفت جسمها البشع تحت التراب. أحَسَّ بقشعريرة. قفز إلى الوراء في حركة تلقائية. خطف هراوة غمرها التراب بجوار كوم الحطب. عاد إلى الخباء. فقد صوابه. اشتغل صدره بجنون الانتقام. انتقام قديم ورثه عن الأسلاف في وصيَّة لا يعرف لها أولاً، ولكنه وجدها تجري في دمه مع الحياة. انتقام من مخلوق خدع السلف الأول وأدخله الحَرَم وأغراه باللّفَّةِ المُحَرَّمةِ. لكتب لعنة المتفى والشقاء على نسله إلى الأبد.

عندما عاد وجدها قد انتشلت من الأرض جسدها المغمور ورفعت رأسها استعداداً للدفاع عن النفس. هوَى على رأسها بالهراوة. ظلَّ يهوي حتى تحول رأسها إلى كتلة من الدماء. ولكنه لم يطمئن. عَلِمَ العداء الخالد أنَّ الحياة لا تموت إلَّا إذا فصلت رأسها عن جسدها. إنها تظاهر بالموت فإذا تركها الإنسان لحقته ولدغته في أول مخدع. ولو لا براعتها في التحابيل لما استطاعت أن تخدع الجَدُّ الأول وتسرق منه الجنة.

حملها بالهراوة إلى أقرب حجر خارج الخباء. وضع رأسها الدَّامي فوق الحجر وحرَّه بضربات حماسية متالية من حجر آخر حادَّ الطرفين. لوث اللَّدَم يده وتناثرت قطرات أخرى على ثوبه. حفر حفرة بالحجر الحاد. ألقى فيها الرأس الشيطاني البشع وأهال عليه التراب. مَدَ يده إلى جبل الجسد وتناوله من الذنب المدبب.

غمرته قشعريرة ولكنه طمأنَّ النفس الخائفة قائلاً لها إنَّ الأفعى محرُّزة الرأس هي مجرد حبل لزج وقبيح من اللحم.

عاد إلى الخباء ووضع الجبل البشع بجوار الجثمان. جفل سرب الذباب واستنشق رائحة السموم القاتلة. خرج يتربَّح. انهار بجوار الموقد وتقأ. أحسَّ أنَّ أمعاءه كلها تتحرَّك وتتصعد إلى حلقه.

اختفت الشمس في غيمة الغبار ولكن القرص استمرَّ يطلُّ من خلف سحب الغبار بين حين وآخر. قطعت الشمس مشواراً طويلاً في رحلتها وبدأت تميل إلى الغروب.

جَمْعُ أَكْوَامِ الْحَطَبِ فَوْقَ الْجَثَتِينِ. أَشْعَلَ النَّارَ، خَرَجَ مِنَ الْخَبَاءِ وَوَقَفَ
يَتَفَرَّجَ. لَمْ يَشْهُدِ الدُّخَانَ. الرِّيحُ أَجْبَجَتِ النَّارَ فَرَأَى الْسَّنَةَ الْلَّهَبَ النَّهَمَةَ
وَهِيَ تَتَلَوَّى وَتَنْطَلُّ مِنْ زَوَابِي الْخَبَاءِ عَلَى طَرِيقَةِ الْحَيَّةِ عِنْدَمَا تُسْفَرُ وَتَحْبَسُ
لِلْعَدْوَانِ. تَمَادَتِ الشَّعْلَةُ. ارْتَقَعَ الْلَّهَبُ. بَدَا الْخَبَاءُ يَحْرُقُ وَيَغْرُقُ فِي
النَّارِ.

هَرَعَ النَّاسُ.

وَلَكِنَ الدَّرْوِيْشُ لَمْ يَرِدْ وَلَمْ يَسْمَعْ وَلَمْ يَجْبَ عَلَى سُؤَالِهِ. خَمَدَتِ النَّارُ
فَاقْتَرَبَ مِنْ كَوْمِ الرَّمَادِ. حَدَّقَ فِي الْمَوْقِدِ الْهَائِلِ طَوِيلًا. اسْتَمَرَّتِ مَوْجَاتُ
الرِّيحِ تَجْلُو الْجَمَرَ وَتَجْرِي الْفَحْمَ مِنْ رَكَامِ الرَّمَادِ. وَلَمْ يَتَبَهَّ أَحَدٌ إِلَى الْفَحْيَيْجِ
الْمَكْتُومِ، الْحَرِيزِ، الَّذِي يَشِّهُ آهَاتِ التَّوْجُعِ وَالْأَنِينِ، الْمَنْبَثُ مِنَ الْجَمَرَةِ
الْمُسْتَدِيرَةِ، الْكَبِيرَةِ، الَّتِي لَا يَعْلَمُ إِلَّا هُوَ أَنَّهَا جَمْجَمَةُ النَّذِيرِ. كَمَا لَمْ يَحْسَ
أَحَدٌ، فِي الْعَتَمَةِ، أَنَّ دَمَوْعَهُ الْحَارَةَ هِيَ الْقَطْرَاتُ الَّتِي تَنْزَفُ مِنْ مَقْلُوبِهِ،
لَتَرْوِي الْعَظَمَةَ الْمَتَوَهَّجَةَ، فَتَسْتَجِيبُ الْجَمْجَمَةَ لِلِّنَّدَوَةِ الْمَحْمُومَةِ بِأَنَّاتِ
الْتَّوْجُعِ وَآهَاتِ الْفَرَحِ الْحَرِيزِ.

٥ - سر الطما

«الماء! لا طعم لك. لا لون لك. لا رائحة لك. أنت لا توصف.
يُتلذذ بك دون أن تُعرف ما أنت! أنت لست ضروريًا للحياة
فحسب، ولكنك أنت الحياة».

انطوان دي سانت إكزوبيري
«كوكب المخلق»

(١)

قبل إن غياب النذير هو الذي أبطل السحر وفسخ مفعول الحرث.

والتدبر انكشف عندما قامت بنات القبيلة بترتيب ميعاد عاصف ابتهاجاً بخروج «قاضي الموت» من السهل فشرفته الأميرة بحضور مفاجئ. وروى آخرون أن هذا التشريف هو كلمة السر التي فسحت الحصن الخفي الذي دبره النذير لأوخا قبل مصرعه. هذه الرواية المثيرة تؤكد أن ابنة عم أوخا الفرعاء استعانت بالسحر للاستيلاء عليه بقيود غنائية فنظمت الميعاد لهذا الغرض. ولكنها لم تتقيد بالتفاصيل وأهملت في تنفيذ الشعائر فانقلب السحر إلى ضده. استغل الجن الخطأ. هرعوا إلى «واو» وجاؤوا بالأميرة في رمثة عين. قلبت الزيارة المسئومة الحساب واستعادت تينيري أوخا ليعق في المرض ويصبح عبداً لها من جديد.

ولكن الضربة لم تقصم ظهر المعاندة الفرعاء.

ذهبت لزيارة الدرويش في خباء مرببته الزنجية. اشتكت العجوز من آلام المفاصل وضعف البصر ومن غياب الدرويش عن البيت. قالت:

- إنه لا يسكن هنا. يسكن في كل مكان إلا هنا. يقيم في كل بيت إلا في بيته. لو لم يفعل ذلك لما كان دروشاً. سبحان الله! ..

ارتفعت الشمس أشباراً فوق القمم الشرقية البعيدة. انصرفت فاعترض
طريقها في العراء. ابتسם لها وقال:

- قيل لي أنك تبحثين عنِّي !

أدهشتها فطنته. فهي لم تخبر أحداً بنيتها في زيارته، كما أنه أقبل من
الجهة المعاكسة لخباء مربيته. ابسمت له:

- كيف عَرَفت؟

- من عينيك. من مشيتك. وهل يخفى على الدرويش شيء كهذا؟
ضحك لها. ضحك لها أيضاً. عَرَى قلبه:
- أنت يا تيميناً أجمل فتاة في هذه القبيلة، في «واو» وربما في
الصحراء.

غمزت بعينها:

- أجمل من تفاوت؟

- ها.. ها..

- أعرف أنك بارع عندما ت يريد أن تأسر قلوب العذارى، فهل تنوى أن
تعشقني؟

- ومنْ لا يُعشق فرعاء مثلك. أنت أطول قامة من أكبر مارد في ايدينان.
ولكن أوخا مكابر أعمى !

- كل بنات القبيلة فارعات، كل بنات الصحراء فارعات. فتیان القبيلة لا
يأبهون لقامتات المَرَدة. القامة لا تكفي.

هَبْ موسى وتكلّم بحماس:

- انتظري. انتظري. ماذا ينقصك؟ أعرف أنك تريدين أن تجريني إلى
الجاذبية. ذلك اللغز الذي يصرع كل المكابرین المنفوشين بأدرع القماش.

الكنز الخفي الذي لا تستطيع امرأة في الصحراء الاستغناء عنه. ولكن أقسم أن هذا المعدن النفيس لا ينقصك أيضاً. ولكن السر ليس في الجاذبية، في الكثر، وإنما فيه هو. في أوخا. إنه مكابر وأعمى!

- ولكنه لا يرى إلا جاذبية الأميرة. أيقظ الميعاد في صدره الغول القديم فجرى وراءها ككلب السلوفي.

- لأنه أعمى. هذا برهان آخر.

اقربت منه خطوات. سبقتها نظرتها فكشفت عن نية خفية:

- قُلْ لِي: قُلْ لِي أَنْكَ رأَيْتَ الشَّكُوْهَ. هَلْ رأَيْتَ الشَّكُوْهَ حَقًّا؟ هَرَأَ رَأْسَهُ بِالْإِيْجَابِ. تَذَكَّرُ حَقْلُ الدَّيْدَانِ وَالشَّحُومِ وَسُوَالِيْنِ السُّمُومِ فَنَكَسَ رَأْسَهُ.

قالت بدلال:

- حَدَّثَنِي عَنِ الشَّكُوْهَ. جَئَتْ كَيْ أَسْمَعَ حَدِيثًا عَنِ الشَّكُوْهَ. هَلْ نَهَشَ الدَّيْدَانَ لَحْمَ الْمَيْتِ؟ هَلْ أَكَلَهُ أَسْرَابُ الْذِبَابِ كَمَا يُقَالُ؟ هَلْ نَزَلَ الْلَّحْمُ سَائِلًا أَصْفَرَ وَآخِرًا أَخْضَرَ؟

رفع رأسه فرأى الحياة. أحسن بقشريرة. لا يعرف كيف انتقلت تلك الحشرة الفطيعة، الزاحفة، المقززة، وحلت في هذا الكائن الأنثوي الفاتن. في تمima الفرعاء. استقرت في بدنها، تلبست قامتها. انتقلت إليها. في وجهها المستطيل، في عينيها الفضوليتين، اللامعتين بالشهوة، في قامتها الإنسانية الطويلة. تمima حيّة. المرأة حيّة. المرأة قتلت النذير. الأنثى لدغته. انتقمت منه. انتقمت لأنه رأى باطنها ب بصيرة العميان فرُوِج للعفن الذي رأاه، فسَفَهَ الجمال المزعوم وطعن كبرياتها. الآن فهم أن النذير لم يتمت بدلعة حيّة. النذير مات مسموماً بالأنثى. الأميرة، أو تمima، وربما الاثنتان معاً، سخّرتا الرفيقة الخالدة وسلطتها لقضم عقب النذير. سحر آير هو القادر على تسخير الأفعى. الأفعى رسول الأميرة. الآن فهم

لماذا سقط أوخا في الحمى وعاد عبداً لتبينيري من جديد. فهم في لحظة وهي لا يلهم به الله إلا الأنبياء أو أخص الأولياء. الحية هي المرأة. ها..

قال ساهماً:

- نعم. رأيت كل هذا العفن. ولكن.. انتظري. تلك الحية لها ملامح تبينيري

(٢)

ذهب إلى «واو» لزيارة الأميرة. رحّب بمجيئه. في عينيها الساحرتين، الماكرتين، رأى بهجة صادقة. أجلسته على الكليم وسألته:

- في آير نسمى أمثالك أخطر السحراء. أخطر المجروس. بسطت يدها المخضبة بالحناء أمام وجهه، وبدأت تحصي انتصاراته على رؤوس أصابعها:

- بضربة واحدة صرعت الأعداء: العرافة، ثم الإمام، ثم.. ثم القاضي ببابا نفسه. منْ يستطيع أن يقضي على كل هؤلاء في ضربة واحدة غير كبار السحرة؟

أجاب بمرح:

- وهل يجرؤ السحراء على منافسة كبارهم الذي علمهم السحر؟

- هل أنت تعرف بأنك كبارهم الذي علمهم السحر.

- أستغفر الله. كبارهم هو الله الذي وقف إلى جانب موسى وبث الروح في عصاته لتحول إلى حية تسعى وتبلغ حيّات باقي السحرة. الله قدرني أن أقف في وجه عصيّهم. ولكن بقت حيّة لم تبلغها عصاتي بعد!

- أخبرني أي حيّة عجزت أنفع الدرويش عن ابتلاعها. قلْ لي قبل أن أموت من الفضول.

ضحك موسى . قال بخبث :

- تينيري . حيَّةُ الساحرة تينيري .

ضحكَتْ أَيْضًا وهي تلقي برأسها إلى الوراء في حركة فتنة . قالت :

- أنت تعرف أني لا أُمارس السَّحر .

- كل بنات آير ساحرات .

- حقًا؟

- نعم . إِنْ لم يكن سحر السَّحرَة فبسحر الْحُسْنَ .

- لسانك مثل العسل . مقسم إلى نصفين ، مثل لسان الحَيَّة ، ويجدد الكلام الحلو الذي يفتن الصَّبايا . لا غرابة في أن أرى كل نساء القبيلة واقعات في عشقك !

- ها . . ها . . ها . .

- لا تضحك . أتكلّم وأنا جادة .

- هذا البائس المعشوق من كل النساء وقع في عشق امرأة واحدة في حياته كلها فبعثته رسولاً إلى معشوقها في الجبال . ها . . ها . .

أَجْفَلَتْ . تحرَّكت إلى الجهة الأخرى ، المعتمة ، من الدار . وقفت في الزاوية وقالت دون أن تلتفت :

- لا تفْسُ . أَنَسَ . الفارس النَّبِيلُ هو مَنْ له القدرة أن ينسى . والمرأة لا تبعد إِلَّا الرجل الذي ينسى الماضي .

- دعينا من العشق وحدَثَنِي عن الحَيَّةِ التي أرسلتها لقتل النذير .

التفت . لمعت عيناه في عتمة الزاوية .

هتفت باستنكار :

- الحَيَّةُ؟ !

- وجدت عند عقبة حيَّة فاتنة. عينها من عينك. وجهها من وجهك.
رأسها من رأسك. جسمها من جسمك. ها..

فاطعنه:

- ليست بيسي وبينه عداوة.

قال بتساؤل:

- بل توجد عداوة. ألم يأخذ منك أوخا؟

- ومنْ قال لك أني ما زلت أُعْشِ أوخا؟ ألم تذكّرني منذ قليل بقيامك
بدور رسول بلغ رسالتي إلى ودان الجبال؟

- ولكنك لا تريدين أن تخلّي عن أوخا أيضاً. اعترفي بأنك لا تريدين
أن تخلّي عنه. أنت توين الاحتفاظ بكليهما. أنت امرأة بقلبين. قلب في
الجلب وقلب في السهل. ها..

- ها أنت تفقد العقل وتعود إلى لغة الدراوיש.
هُبّ غاضباً:

- أنا لم أخرج من جتي أبداً. لم أخرج من جنة الدراوיש إلا مرة
واحدة. أنت تعرفي متى كان ذلك. ولكنني ولدت من جديد واستطعت أن
أعود إلى فردوسي الذي كدت افcede إلى الأبد، ولن تستطيع كل نساء
الصحراء أن يخرجني منه مهما تفوقن في الإغراء. أنت حيَّة! لم تكوني
في يوم من الأيام سوى حيَّة! لدَعْتِ النذير لأنه أرجع أوخا عن طريقك،
ولن ينعم بالذكورة إلا عندما تلذغين أوخا و«أوداد» بالنَّاب البشع
نفسه. ولكنك أغفلت سرّاً يميّز المرأة التي تعشق بقلبين عن غيرها من
النساء. فاسمعي إنْ أردت النجاة..

استمرَّت أنفاسه تتلاحق. طغى البياض على مقلته الحولاء. نَزَّت زاوية
فمه بالزَّبد. أكمل بجنون:

- فاض الوادي بالسيل فاحتمنى الناس بالمرتفعات إلا العذراء. وقفت في

وسط الوادي الهائج تستمع إلى نداءات الشابين المتنافسين على قلبها. أحدهما يعتلي ربوة على الطرف الشرقي ، والآخر يقف فوق المرتفع المقابل. كلاهما كان يغريها بالإقبال عليه لأن جهته أعلى من الأخرى، وأكثر أماناً من غدر السيل. احتارت العذراء بين الطرفين. جرت إلى جهة الراية الشرقية ، ثم عادت من منتصف الطريق ، وأقبلت إلى جهة المرتفع. ثم تراجعت وأدبرت على عقيبها. امتلاً الوادي بالسيل وتلقفها كالقدر من الأرض وهرب بها إلى الأبد. الرجال ، كالأشياء ، كالله ، لا تحتمل أن يضع المعشوق قلبه في مكان آخر. أنت في خطر يا تينيري. أنت في خطر حقاً

تابعته بذهول.

تابع :

- أنت في خطر. هذا هو السر.

جلس. تابع بشربة حزينة :

- أما أنا ففررت بفردوسي. أنا ، الآن ، في واوي. واو الحقيقة وليس واوكم الأرضية. واو الأصلية ليست واو المزعومة. ها. من حقي أن أتباهى بالوصول. في لقتنا شيء اسمه «البلعة»^(*). هل تعرفين «البلعة»؟ حفقت البلعة بالمدية. مدية العرافة قطعت رأس العحية. ها. هذه بطولة لن تفهميها. هذا اعتراف لن تفهميه. ها ..

قاطعته مرة أخرى :

- ها أنت تعود إلى لغة الدراوיש. دعنا من «البلعة» ومن الاعترافات وقل لي لماذا أنا في خطر.

- ها. لأنك رهنت قلبك عند حبيبين. لأنك ما زلت تركضين بين الربوة

(*) يقول التفري : وجود البلعة مادة من مواد الصبر. وجود الصبر مادة من مواد القوة. وجود القوة مادة من مواد الولاية.

والمرتفع دون أن تفيقي بأنك في الوادي. رهن القلب بين المرتفع والربوة
طبع في الاستحواذ على الأرض والسماء. جشع لا يغفره القدر. ها.

- أنت تجهل المرأة. أنت لم تعرف المرأة يوماً. قيل لي أنك لم تعرف
حتى أمك. فكيف تدعى الخبرة بقلب الحسناه؟ .

احتقت وحشتها بلون الشفق عند المغيب. تراجع الحزن في جمالها
ولكنه لم يفقد السحر. أكملت:

- أعلم أنَّ الله خلق المرأة لكي تستحوذ على قلوب كل الرجال. جمال
المرأة ملك كل الرجال. هبة إلهية لأبعد رجل في الصحراء. وعلى الرجال
أن يحمدوا الله على النعمة ويسجدوا له لأنَّه خلق في الصحراء العارية
أجمل المخلوقات. فكيف تحسدني على قلبي؟! كيف تستكثر على امرأة
جميلة رجلين بائسين؟ .

فهقه الدرويش:

- ها. هذا أغرب ما سمعت. هذه دروشة!

- لأنك لم تسمع حسناه من آير قبل اليوم. ماذا يعرف رجال صحرائكم
عن نساء آير؟ بل ماذا يعرفون عن آير؟ يظنون أنه لا يخفي سوى الذهب
والسحر والمجوس.

- ها. في هذه صدقت. يخفي الذهب والسحر والمجوس.. .

- كنز آير الحقيقي في نسائه. سحره في نسائه. عقيدة المجوس في
نسائه أيضاً. فما ظن الدرويش؟ .

- لا الذهب يهمني ولا السحر ولا دين المجوس. قلت لك النساء حيَّات
قطعنَّ من قلبي.

- لن أصدقك. حتى لو قفزت في النار لتبرهن لي فلن أصدقك. ليس
ثمة رجل يدُّ في الصحراء لا يرتجف قلبه ويرقص بالوجود السري بمجرد
أن تقع عينه على امرأة صحراوية.
- ها.

- الدرويش ليس استثناء. الدرويش مخلوق صهراوي. هل تشك في أن الدرويش مخلوق صهراوي؟

ضحك وعلق باستهزاء:

- أَوْفَتُكَ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ صَحْرَاوِيٌّ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ رِجَالًا. هَا.

– أنت تسخر مني. أنت تمزح. متى تكف عن المزاح؟
ضاعف الغضب من سطوة جمالها، ولكن الجلال اختفى.

(ג)

الغروب.

التقى بها في مربط المعين. أتبته فوراً:

- قيل إنك أغضبت الأميرة.

١٦

- هذا لا يليق.

- هل تحبّين تپنیری؟

- ليس، يعني، وبينها عداوة.

- ألم تأخذ منك اوداد؟

- لا أعرف أيهما أخذ الآخر.

- ها. المرأة هي التي تأخذ الرجل. الأغلال في يد المرأة دائمًا.

- أغلال؟

- أغلال. سلسلة طولها سبعون ذراعاً. جبل المسد. لوازم الاستعباد. المرأة تزيد الإيقاع بأكبر عدد من الرجال لأنها تحتاج إلى أكبر عدد من المسد.

- عبيد؟

- المرأة لا ترى في الرجل إلا العبد.

- جنون. لغة الدراوיש.

- نعم. الزعيم قال إنه سمع ذلك من مجنون حكيم. الحكمة في أفواه المجانين. ها. ولكنني نجوت من الشرك. نجوت من الحياة.

- الحياة!

- قلت لها إني قطعت الحياة بمدية العرافة. قتلت الحياة ببطل سحرها وانقلب على رأسه.. انقلب على رأس أوخا لأنه لا يملك الشجاعة في أن يقتل الحياة كما فعلت. لن يفلح حتى يقتل.

- لا أفهم. هذه لغة أخرى.

- قلت لها إنها في خطر.

قاطعته تفاؤلت بحماس مفاجئ:

- هذا ما قيل بالضبط. قيل إنك هددتها بالقدر وقلت لها إنها في خطر.

- نعم. قلت. ما زلت أقول. المرأة التي تتردد بين رجلين. المرأة التي ترکض بين الربوة الشرقية والمرتفع الغربي لا بد أن يجرفها السيل. هل في هذا عيب؟ ولكنها أنزلت على وجهها خماراً من قوس قزح وقالت غاضبة إن رجال آزجر يجعلون نساء آير. يظلون أن آير لا يخفى إلا الكنوز والسحر والمجوس، في حين أن كنزه الحقيقي في نسائه. لأن المرأة هناك تنذر نفسها لكل الرجال بمجرد أن تولد. نعم. هكذا قالت. المرأة هبة لرجال الصحراء. قدر المرأة أن تعشق كل الرجال. ولكنني أرى أن قدر المرأة الحقيقي هو أن تستعبد الرجال. هدفها أن تستعبد. أن تعشق. العشق طعم. مادة للغواية. للاستدراج. ها.. قلت لها إن المرأة ليست هي فزاد غضبها.

تابعته بابتسامة خفية. قالت:

ـ من حقها أن تغضب. هل هذا كلام يُقال للمرأة؟ عهدت فيك الحكمة.

ـ ها. الحكمة في فم المجنون. لقد اتفقنا. هذا ما سيقوله مجنون الرعيم لو كان في مكانه. ولكن دعينا من الأميرة واسمي كيف امتدحتك تميما في غيابك.

ـ حقاً؟

ـ قالت إنك أجمل فتاة في السهل. لم تقل في القبيلة وحدها. قالت «في السهل». ها. أظن أنك ستتباهين بهذا الرأي عندما تعلمين أنه شهادة من فتاة النباء.

ـ أنت ثعلب. تدعى اللامبالاة بالنساء في حين تقن دغدغة قلوبهن بالكلام الحلو.

ـ ها.

ـ ولكن هل أكل أوكا الجيفه حقاً؟

ـ الراعي اللئيم هو الذي رأه وليست أنا.

ـ ولكنه مرض بتينيري من جديد، فهل لموت النذير ضلع في عودة المرض؟

ـ الله أعلم.

ـ هل سحر بنت آير قوي إلى هذا الحد؟

ـ الله أعلم.

ـ ما أشقي أوكا إذا أكل الجيفه بدون فائدة. بدون خلاص.

ـ الله غالب.

- ماذا سيفعل الآن؟

- الله أعلم.

فهمت أنه توغل بعيداً وغاب في الباطن.

(٤)

يئس آخِمَاد.

تحدثت «واو» كلها كيف سافر إلى اوداد في تادرارت كي يقنعه بالابتعاد عن طريق الأميرة والتنازل عنها لأوخا. ولكن الرَّدَان العاشق استنكر وعاند فعاقبه آخِمَاد بـ «ايغايان». سُلَطَ عليه ثلاثة من أغوانه الأتباع وجرَّه بين الجبال والكهوف بحجل من مسد. صعق عروق دماغه بالبروق التي تُقدَح بمجرد وقوع الضربات على عمودي العذاب. ولكن المفاجأة التي أدهشت الناس وتردَّدت على شفاه أهل «واو» كلها حدثت هنا. فمع كل ضربة تقع على أحد العمودين كان اوداد يقفز في الهواء كودَان حقيقي ويقهقه ببهجة تستجيب لها قمم الجبال وأفواه الكهوف بالصدى والهممات الخفية. ويروي الأتباع الثلاثة، الذين شاركوا في تنفيذ العقاب، أن آخِمَاد النَّبِيل أصيب بالدوار واليأس فألقى بالحجل كأنه يبعد من يده حيَّة تشبَّث به وهو رول هارباً. ولم يعرفوا حتى الآن عمما إذا كانت قهقات اوداد الاستفزازية هي السبب، أم أن لهمهات الكهوف الغامضة دوراً أراد آخِمَاد أن يخفيه.

بعد أيام اجتمعوا في خباء أوخا. أوددوا التَّار وتحلقوا حوله. سخر منه أحد الأتباع وأذاع له سرّاً:

- أنت تخلط. هل ظننته الدرويش؟

سؤال آخِمَاد بِلاهَة:

- وما الفرق بينهما؟ هل الدرويش من نور وأوداد من نار؟ كلامهما كوز من رمل الصحراء.

- أنت تعلم أننا، نحن الأتباع، كنا عبیداً لأجدادكم القدماء.

- أعلم.

- وهل تدري أن عرق العبید مجبول على «إيغايغان» منذ المهد؟

- كيف؟

- إيغايغان حساب اخترعه أجدادكم القساة لتأديب العبید المعاندين والعصاة. ومن حق العبد في هذه الحال أن يدبر حيلة لخفيف عقاب السادة القساة. فيبدأون في قتل عروق الرأس حرقاً بالنار وضرباً بالعصا في سن الطفولة. حتى إذا كبر الولد استطاع أن يصمد للعذاب ويتحمل عقوبات السادة.

شرب آخِماد جرعة ماء. أطبق على فمه باللثام وهتف:

- هل ت يريد أن تقول إن اوداد محصن من عذاب العبید منذ الطفولة؟

ابتسم التابع اللثيم. ثم أكمل بلغة مبهمة:

- إذا لم تحصنه أمه في الطفولة فهذا يعني أنه محصن في الدم بالفطرة. وهذا أقوى أنواع التحصين. إنه حصن له خصائص السحر. أما الدرويش ..

سكت فتابعه الحاضرون بفضول. حبس آخِماد أيضاً أنفاسه. قال التابع:

- إيغايغان أقسى عذاب عرفته الصحراء. بإيغايغان فقط يتمنى الإنسان أنه لم يولد. إيغايغان وحده يجبر الفارس المكابر أن يركع ويمحوه العار. أنتم لم تجربوه فاحمدو الله. أما أنا ..

غمر جبينه تعرق مفاجيء. طأطاً رأسه. أسدل طرف اللثام العلوي على عينيه. هيمن صمت مشدود. تشجع الراوي:

- ليس العذاب هو القاسي في إيغايغان ولكن طعم الذل. إيغايغان يهين

الرجل و يجعله يذوق الذلة . والرجل إذا ذاق الذلة فإنه سيحتقر نفسه . وإذا احتقر نفسه فخير له أن يموت حقاً . كل ضربة تنزل على عمود إنما تخترق العظام وتتس العرق بالنار . عرق الدماغ . هناك حيث يسكن الدراوיש . يقال إن مأواهم هناك . دراويش سردلس يسمون ذلك المكان «الباطن» . ولذلك فإن ضربات العصا إنما هي برق ينزل مأواهم . هل فهمتم الآن صيحات الدرويش الوحشية في ذلك اليوم ؟

لم ينطق أحد . في زاوية الخبراء ارتفع أنين أوبا . أكمل التابع الحكيم :

- هل عَرَفْتُ لِمَاذَا احْتَكْمَ الْقَاضِي الشَّيْطَانِي إِلَى هَذَا الْعَذَابِ الْمَجْوُسِيِّ ؟ قاضي شنقيط كان يعرف سر الدراوיש . يعرف أن إيغايغان للدرويش أقسى من الموت . قاضي شنقيط داهية من سلالة الوحش . والسلطان هو المخلوق الوحيد الذي فهم سره في هذه الرقة . ولا أعرف ماذا كان سيفعل بنا الشيطان بابا لو طال به المقام وبقي قاضياً في «واو» .
ينصر دين السلطان !

رَدَّدَ وَرَاءَهُ الشَّبَانَ فِي صَوْتِ جَمَاعِيٍّ :

- ينصر دين السلطان !

(٥)

عاد آخِمَادَ وَاسْتَعَانَ بِالْوَتَرِ الْحَزِينِ .

أقبلت الشاعرة . تقاطرت الصيايا . احتضنت الشاعرة آلتها الحزينة وجرّبت العزف المنفرد طوال النصف الأول من الليل . ارتفع الوتر بالتحبيب . ملأ السهل كله بالعويل . ظل المصاب يتمايل مع الحان العزف المنفرد علامة الشجن والنشوة . تعبت الفنانة وتوقفت . تبادلت الملاحظات مع حسناً مجاورة وانفقتا خفية ثم عادت تجرب الوتر على الور فنحرت القلوب . عزفت لحناً شجنياً ورددت وراءها الحسناً أغنية جديدة لم يسمع أحد كلماتها من قبل . يقول المطلع الأول :

«لا أحد يعلم لماذا هي مشبوهة دوماً المرأة الوحيدة.

لا أحد يعلم لماذا هو قديس دوماً الرجل الوحيد».

ختمت القصيدة بالبيتين الفاجعين اللذين أصبحا تعويذة العابرين منذ ذلك اليوم:

«أوكلان مان. ن - مان، ن - مانين

إدمونج إد أو ماسغ غاسين»^(*)

هنا أصيب أوكا بالرجة الجنزنية. سطا البياض على العينين وسيطر في المقلتين. امتفعت الوجتان البارزتان في ضوء النّار ووقع المريض في وجد محموم. تلوى وتشنج وانحسر اللثام عن فم يعلوه الزّيد. هرع إليه آخِماد يعاونه بعض الفتىَّان. أخرج آخِماد مدِيَّة من معصمه وشرع يمررها على أطراف المأخوذ لينحر الجنّ ويحرر أوكا.

جاء الدرويش ووقف بعيداً يراقب شعائر التحرير.

صرخ أحد الحاضرين لآخِماد:

- احترس. سيخطف منك المدينة!

أخفى آخِماد المدينة فقهه الدرويش باستفزاز. قال ساخراً:

- لماذا تخافون عليه من المدينة؟ لو كان في حالة وجدٍ حقاً فلن يتأنّى حتى لو طعن نفسه ألف مرة.

في تلك اللحظة أفلت المجنوب. ركض في الظلمة فلا لحقته الجماعة. توقفت الشاعرة عن نحر الوتر المشدود. صاح آخِماد خلف الشباب:

- أدركوه قبل أن يفعل شيئاً بنفسه. أمسكوه قبل أن يقفز في البئر.

تقاتل أوكا مع الفتىَّان في الظلمة فقهه الدرويش مرة أخرى. اقترب منه

مسكين، مسكين، أنا، ساموت، وأصبح وجدأ، أنا ^(*)

(نهاية).

آخِمَادُ وَانْتَهِرَهُ بِقَسْوَةٍ. هَبَّ فِي وِجْهِهِ:

- هل في هذا ما يُضْحِكُ؟ لِمَاذَا تُضْحِكُ؟ هل تُشَكُ في أَنَّهُ مَجْذُوبٌ؟
فَلْ . . .

- لو كان جذبه صادقاً فلا ضرورة للاحتراز. الواجبُ الحَقِيقِي يطير فوق
أفواهِ الآبار ولا يسقط. يقطع الصحراء من أولها إلى آخرها ولا يتعب.
يسهر شهراً ولا يشعر برغبة في النوم.
- هذا هدرُ الدَّرَوِيْشِ.

- أنا أتحدّث عن الْوَجْدِ. في الْوَجْدِ الحَقِيقِي لا خُوفٌ.
- هل تَظَنُّهُ يَتَظَاهِرُ؟

- أنا لا أُظْنُ شَيْئاً. ولكنني أتحدّث عن الْوَجْدِ الحَقِيقِي والْوَجْدِ المَزِيفِ.
- هل تقول إنَّ وَجْدَهُ مَزِيفٌ؟
- هَيٌءٌ - هَيٌءٌ - هَيٌءٌ . . .

(٦)

حَمَّ مُوسَى حَوْلَ آخِمَادَ كَمَا حَمَّ «مَوْلَـا» حَوْلَ أَمْ ضَرَّةَ تَانَسَ^(*).
طَافَ وَرَاءَهُ بَيْنَ الْبَيْوَتِ، طَارَدَهُ إِلَى الْمَرَاعِيِّ، تَسْكَعَ بِجُوَارِ إِبْلِهِ فِي
الْعَرَاءِ. وَاقْفَى أَثْرَهُ حَتَّى وَهُوَ يَنْهَبُ فِي الْخَلَاءِ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ. اكْتَابَ
آخِمَادَ وَتَشَاءَمَ. هَاجَ وَوَبَّ عَلَى رَقَبَةِ الدَّرَوِيْشِ. صَرَخَ:

- مَاذَا تَرِيدُ مِنِّي؟ لِمَاذَا تَلْاحِقُنِي كَالشَّبَعِ؟ أَنْتَ إِنْسَانٌ جَنْ؟
- هَيٌءٌ - هَيٌءٌ . . أَرَدْتَ أَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ بَسْرَ سَتْشَكْرَنِي عَلَيْهِ كَثِيرًا.
- سَرَّ؟

(*) في أسطورة تانس جاء «مَوْلَـا - مَوْلَـا» (وهو طائر صغير، أسود، مطبوع ببقعة بيضاء
في قمة رأسه) إلى أَمْ ضَرَّةَ تانس الشَّرِيرَةِ وهي تلتئم لحْمَانَ تلقته هدية من تانس
دون أن تعلم أنه لحم ابنته فقالت «مَوْلَـا - مَوْلَـا»: «أَعْطِنِي قطْعَةً، أَعْطِيْكَ سَرَّاً».
رفضت أَمْ ضَرَّةَ فكتمت «مَوْلَـا - مَوْلَـا» السَّرَّ وَلَمْ تُخْبِرْهَا أَنَّهَا إِنَّمَا تَأْكُلُ لَحْمَ ابنته
الشَّرِيرَةِ.

- سر يشفى العاشق إلى الأبد.

- هل تمزح؟ هل تستهزء؟

- ولكنني لن أستطيع أن أتمنك عليه؟

- لماذا؟

- لأنه يخمن أوكا.

- ليس بيبي وبي أوكا أسرار.

- أخشى أنه سيفضل أن يبقى السر بيني وبينه. الطرف الثالث بوق ونذير.

- هذه قبيلة الأسرار. لا يفتح مخلوق فيها فمه إلا ليتكلّم ويقول إن عنده سرًا. ويرغم ذلك فإن أسرارها على كل لسان. أسرارها تنشر في الصحراء كلها وهي ما تزال خاطرًا في القلب.

- ولكن سرّي سرّ حقيقي. ترياق للعشق يفسده النطق ويبطل اللغو مفعوله. ويرغم ذلك فأنا مستعد أن أتقاسمه معك إذا أذن أوكا بذلك. أنا على يقين أنه سيفضل أن يبقى السرّ مدفوناً بيننا. إسأله إن كنت لا تصدقها.

ظلّ آخِمَاد يتابعه بشكّ. شجّعه موسى :

- تيقن أنه سيفشفى. سينسى تينيري إلى الأبد.

- سينسى تينيري؟ ومن قال لك إنه يريد أن ينسى تينيري؟

- ولكن الشفاء في السيان. هل يوجد الشفاء في شيء آخر؟

- ولماذا لا يوجد في العشق؟ سيفشفى من همّه إذا بادله الأميرة العشق كما يجب. كعاشرة.

- آه. ها أنت تخطيء. أنت تتحدث عن الامتلاك. في الامتلاك شقاء. لا شفاء في الامتلاك.

- عدنا إلى هذر الدراوיש. لن يقبل أونا بسرّك إذا كان فيه تخلٌّ عن الأميرة.

- حتى لو كان في ذلك شفاؤه؟

- لا شفاء بعيداً عن المحبوب. لا خلاص في البعد عن المعشوق. هذا شرع الصحراء.

- لا تجذب على الصحراء. هذا شرع العبيد وليس شرع الصحراء. ولكن لماذا تنصب نفسك وكيلًا عن أونا؟ أليس هو صاحب الشأن؟ هل أخبرك بفمه أنه لا يريد الخلاص؟

- أنا أعرف طبع البلاء. أنا أُعرّف من أونا بنفسه.

- لا يجرؤ على الادعاء بأنه أعرف من الإنسان بنفسه إلّا الله الجليل. و.. انتظر. قلت إنه طبع البلاء. هذا هو الاعتراف الآخر الذي توقعته. طبع المكابرین هو السبب وليس شرع الصحراء.

- ماذا سينفعه الشفاء إذا كان سيفقد المعشوق؟ ماذا سيفعل بالعاافية إذا طارت الحسناً واستقرّت في أحضان الودان الجبلي، ابن الأتباع؟ بل ما نفع حياة لا يشقي فيها الرجل بحثاً عن امرأة؟ ما جدوى الصحراء بدون عشق؟

- هذه لغة العبيد.

- ولعنةك لغة الدراوיש.

لكم دينكم ولـي ديني.

هم موسى بالانصراف. استوقفه آخـمـادـ:

- هذا دين التخلّي. الآن تذكرت. هذه دعوة الزعيم. أنت تستعيـر دورـ الزعـيمـ الشـفـاءـ فـيـ التـخلـيـ.ـ الـخـلاصـ فـيـ التـخلـيـ.ـ السـعادـةـ فـيـ التـخلـيـ.ـ وـ..ـ الـحرـيـةـ،ـ أـيـضـاـ،ـ فـيـ الـعـبـورـ.ـ هـلـ تـنـفـيـ أـنـ الزـعـيمـ آـدـهـ لـمـ يـرـوـجـ لـهـذـاـ دـيـنـ؟ـ هـلـ تـرـاهـنـ.ـ..ـ

ولكن موسى احتجب وراء الراية.

(٧)

جاءه آخِمَاد مَكْسُوراً. قال:

- أَوْخَا يَئِسْ. سِيَضِيع. طَلْبُ أَنْ يَرَاكَ.

ترافقا. في الْخَلَاء صَفْعَتْهُمَا الْرِّيحُ بِالْحَصْنِ وَحَبَّاتِ الرَّمْلِ.

في الْخَيَّاء تَوَجَّعُ أَوْخَا بِتَنْهِيَّةِ كَتْبَيَّةِ. قَبَعَ مُوسَى بِجَوَارِهِ فَنَهَضَ قَلِيلًا. أَسْنَدَ جَسْمَهُ الْهَزِيلَ بِمَرْفَقِهِ الْأَيْمَنِ وَحِيَا الدَّرُوِيْشُ بِابْتِسَامَةِ شَاحِبَةِ. أَوْمَا لِآخِمَادِ فَخْرَجَ وَتَرَكُوهُمَا عَلَى اِنْفَرَادٍ. تَكَلَّمَ بِحَذْرَ:

- قَبِيلَ لِي إِنْكَ تَخْفِي لِي سَرًّا.

- نَعَمْ. سَرًّا. وَالسَّرَّ كَكْتَرُ الْذَّهَبِ يَتَفَسَّخُ إِذَا كَشَفْتَ عَنْهُ بِدُونِ قَرْبَانِ.

- لَا أَفْهَمُ.

- أَرِيدُ كِرَاءَ.

- تَوَقَّعْتُ هَذَا. الْإِمَامُ أَيْضًا طَلَبَ أَجْرًا.

- الْإِمَامُ؟

- دَعْنَا مِنْهُ وَأَخْبَرْنِي مَا هُوَ الْكِرَاءُ.

- أَنْ تَرَكَ اُودَادَ فِي حَالَهُ. هَرَبَ إِلَى الْجَبَالِ. تَرَكَ لَكُمُ السَّهْلَ، فَلِمَاذَا تَلَاحِقُونَهُ إِلَى هَنَاكَ؟

فتحَ أَوْخَا فِيهِ بِضْحَكَةِ عَصَبَيَّةٍ. قال:

- لَا أَعْرِفُ أَيْ مَنًا يَلْحَقُ الْآخِرَةَ. لَقَدْ نَزَلَ إِلَى السَّهْلِ وَخَطَفَ قَلْبَ تَبَيْنِيَّ. فَمَنْ الْمَعْتَدِيُّ؟ لَوْ كَانَ رَجُلًا نَبِيًّا لَفَتْلَتِهِ فِي مَبَارِزَةِ. وَلَكِنْ مَا شَفَعَ لَهُ أَنَّهُ يَتَمَمِّي إِلَى قَبَائِلِ الْأَتَابَاعِ.

- هل تعدني أن تركه إذا شفيت؟

نَدَّتْ عن أَوْخَا ضَحْكَةً سَاحِرَةً:

- إذا شفيت فقد بُطِّلَ العجب كله. إذا شفيت فما حاجتي في أن أرى وجهه الأخضر؟ بشرته الخضراء تشير اشمئزازي. إنه مثل الضبّ.

- لم أَرْ ضِيَّاً بِلُونَ أَخْضَرَ.

- لون الضبّ في «مساك صطفت» أَخْضَرَ. هل رأيت الضبّ في «مساك صطفت»؟

سكت موسى. داعبه أَوْخَا:

- لك الكراء الذي شئت. سأعنته للمرة الثانية. في المرة الأولى أعتقد جديًّا جدّه. وإذا ضممت لي الشفاء فسأعنته إلى الأبد. فهات سحرك يا ساحرًا!

سكت موسى لحظة. زَفَرَتِ الرياح في الخارج. رفرفت أطراف الخبراء الجانبيّة. قال موسى بغموض:

- نعم. ما أَشِيرُ به عليك له مفعول السّحر. أقوى من السّحر.

تابعه أَوْخَا بفضول. لمعت عيناه باهتمام صادق. أخرج الدرويش من كمه المدينة السّرية. مدية العرافة المرحومة. تحول الاهتمام في عيني أَوْخَا إلى دهشة. سجّبها موسى من الغمد فلمع لسانها الشره في ضوء النّار. لسان خفي، حادّ الطرفين، نهم، مثل لسان الثعبان. أمسك بها الدرويش من المقض الموسوم بالرموز السحرية ولَوْح بالنصل في وجه أَوْخَا كأنه يهدده بحرّ الرقبة. قال بالنبرة الغامضة نفسها:

- بهذه ستُشفى إلى الأبد. هذه الجنيّة وحدها تستطيع أن تخلصك من البلاء. لأنها تستطيع أن تقطع رأس الحياة بضربة واحدة. لن يفلح الرجل ما ظل يحمل في سرواله الحياة.

لم يفهم أوكا. تابع المدية ببلادة. سأله بذهول:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ الحبة سبب شقاء جدنا الأول. دخلت بين رجليه وأشعلت فيه الشهوة. ذاق اللقمة الحرام بسببها فوجد نفسه هائماً في الصحراء، مطروداً من فردوس «واو». ولن يفلح الرجل ما لم يستأصلها. مدية العراقة صُنعت لهذا الغرض. أقصد أنك لن تشعر بالألم عند الطهارة. الخلاص في الطهارة. الطهارة الكاملة وليس طهارة الختان. اقطع رأس الشقاء!

قفز أوكا واقفاً. خرجمت عيناه من مقلتيهما. انحسر لثامه عن شفتيه فرأى الدرويش زَبَداً يطفو على طرف الفم الأيمن. غمرته موجة من الشحوب. ثم.. ثم بدأ يرتجف. بل إن أطرافه بدأت تتنفس بعنف. خيل للدرويش أنه سيقع في نوبة وجد. ولكنه صرخ بصوت متواوح، مخنوقي: حشرجة مكتومة كخوار التيس الذبيح:

ـ يا كافر. يا ساحر. يا ابن المجنوس!

هجم عليه. استلّ، في نوبة جنونه، عموداً جانبياً من الخيمة ووثب نحوه. قفز الدرويش وركض. طارده مسافة طويلة عبر العراء المغمور بالغبار والليل.

(٨)

انهمك آخِمَاد يسرج المهرى مع قبس الفجر. أعدَ جملين علائقين وحملهما بزَادٍ وافرٍ من المياه. جاء الدرويش ووقف، بعيداً، في ظلمة الفجر. وراءه عبرت قافلة كثيفة في طريقها إلى أسوار «واو». زفت جمال القافلة زفة جماعية فرَدَت عليها جماله بزفة مماثلة. اقترب موسى خطوات. شجعه آخِمَاد:

ـ ما زلت تحوم حول خبائي كما يحوم الذئب حول القطيع. اقترب. لماذا لا تقترب؟

لم يرد الدرويش. سكن في العتمة كالشبح. تكلم أحمد بلهجة رحيمة:

- تعودت أن أسمع منك العجب كلما خاصمتني، فاقترب وافتتح قدرك.

اقترب موسى. همس:

- مكتوب في ألواح الكهف أن المقام في الصحراء لن يطيب لمخلوق ولدته أمه عطشان.

- إنني أسمع أول العجب!

- كلنا نولد وقدرنا تؤام يولد معنا. ولكن الفرق بيننا وبينك أن قدرنا خفي فلا نعرف كيف ولا أين نموت في حين تكلم فيك قدرك بالإشارة. أنت محظوظ!

- هل هذه نبوءة؟

- ^{أَلَّذْ} ميتة هي ميتة الجوع لأنك تغيب منتسباً بلذة الخلاص من غمّ البدن. وأبغض ميتة هي ميتة الظماء لأنك تغيب بحجاب الغيوبية.

- هل أسأّت لك حتى تسمعني هذا الكلام في الفجر؟ متى كان الصحراويون يشيّعون المسافر بحديث الموت؟

- الموت رفيق الصحراويين. سرّ الصحراوي أنه لا يخاف الموت. يقال إنه نزل إلى الحياة بصحبة الموت، وعندما استنشق الهواء وأخذ أول نفس بفتحي الأنف توقف الموت ورفض أن يدخل إلى الجوف. قال للإنسان: «أنا أفضل أن أمكث هنا وأنتظر». حفر مأوى بين فتحة الأنف والشفة العليا، في هذا الضريح يرقد الموت. في هذا المخدع يستلقي الرفيق، يستريح . . .

رفع الدرويش إصبعه في العتمة وتحسس أحدود الموت. تابع:

- في هذه القناة الصغيرة ينام أشرس غول في تاريخ الصحراء. ولا أحد

يعرف متى يستيقظ. فإن استيقظ ودخل فتحة الأنف طار النفس وعاد الإنسان مع رفيقه الموت إلى الأصل الذي جاء منه. فلماذا تخاف رفيقك يا آخما؟ لماذا تتنكر لصديقك الذي جاء بك إلى الصحراء؟

انتهى آخِمَاد من تثبيت السرج على المهرى. دخل الخباء وعاد بقربة
كبيرة صلقاء من الشِّعر.

شرع يحملها على ظهر الجمل العملاق مستعيناً بربكته اليمني. قال:
- ليس خوفاً من القدر ولا تنكراً من الموت أن يتجمّب الإنسان فأل
الصبح. لا يثرثر في الفجر إلا الجنّ أو أتباعهم من مجوس الأدغال. لقد
ندمت لأنّي دعوتكم لأن تفتحوا صدراكم.

- لا. لا يجب أن تندم. لأنني جئت كي أحذرك من مطاردة أوداد. إذا أسللت له مرة أخرى فلن تنتذك قرب الماء من الظماً مهما كثرت وكمبرت.

- هل هذه نبوءة أخرى؟
- لن يفلح منْ أساء لوليٍّ.
- لم أسمع بولايته قبل اليوم.
- يحسن بك أن ترجع. أن تراجع..

سكت آخِمَاد. شقَّ القَبْس خطَّ الْأَفْقِ. رسمَ النُّورَ لَوْنًا وَرْدِيًّا فَوْقَ قَمَةِ
الْجِبَلِ الْبَعِيدِ. تَكَلَّمَ آخِمَاد بِرْجَاءِ كَانَهُ يَسْتَجِدُ:

- ولكن أوكا. ألا تشفق على أوكا؟ إنه شيخ. سيختفى . إذا لم نفعل شيئاً فسوف يموت. هل يرضيك أن يموت أوكا يا موسى؟

- فعلت ما يجب أن أفعله لإنقاذه. عرضت عليه طريق الشفاء فطاردنى
يعمود الخاء.

- ولكن ماذا أشرت عليه حتى فقد صوابه؟ رفض أن يخبرني .

- سرّ. مفتاح الحقيقة ينبغي أن يبقى سرّاً، خاطراً في فردوس الباطن. في خروجه إلى ظلمة الأفواه قضاء عليه.
- عدنا إلى لغة الدروشة والغموض.
- أوكا يرفض الخلاص لأنه مكابر. لا خلاص لمكابر.
- لا أستطيع أن أتخلى عنه. لا تنسَ أني مدين له بالحياة في غزوةبني آوى. لولا تدخله لشربت من البئر المسموم.
- أفتر وفائك. النار لا تأكل عظام الأوفىاء. ولكن لا تبرهن على وفائك بالإساءة لمخلوق بريء. لمخلوق ولئ.
- قرأ آخِمَاد التعميذة الخاصة بإبعاد النحس.

(٩)

في الرحلة إلى تادرارت سلك طريق السهول الذي يعبر الوديان المؤدية إلى سردلس ويخرج الروابي الأربع المعزولة ذات القمم المتوجة برماد لفظته فوهات البراكين القديمة مما أغوى الرعاع لأن يطلقوا عليها اسم «نهود الخادمات».

انتصف النهار فاشتعلت الصحراء. تدفق السراب في الخلاء وغمر الأرض على امتداد العراء. رافق الموجودات، لاعب الكائنات، مذ من هامة الحجارة. جرف أشجار الطلح وأغرق قم السلسلة الجبلية الجنوبية بشعلة لعوب من لهب بلون فضي. تلاعبت الصحراء كلها واستجابت لشقاوة الماء الشفاف وتموجات البحر المخادع. ترجل عن المهرى في المرة الأولى بعد الشروع بقليل. نَرَفَ عرقاً غزيراً مع بدء الرحلة. جفّ الحلق واندفعت المرارة إلى الفم فتقدم من جمل الأنقال وررضع الماء من فم القربة مباشرة. رشّ وجهه وبلل صدره وزمالته وعاد إلى مهريه. تسلقه واقفاً وجلس في السرج. ثم اضطر بعد انتصاف النهار أن يترجل في كل وادٍ. كان الحريق القديم يندلع فيحرق الجوف، يستيقظ غول الظماً فيث

إلى القرية كي يرشوه بالماء. تذكر نبوءة الدرويش عندما قال له إن القدر كتب الشقاء على من ولد في الصحراء ظامناً إلى الماء. وها هو الجحيم يبدأ قبل أن تبدأ الرحلة. السماء أيضاً تساند الدرويش. تنفست بالصهد منذ الصباح ولم يتتصف النهار حتى أشعلت الصحراء كلها بالنار الموقدة. وإذا استمرت النار تأكل الأرض بهذه الشراهة فلا يعرف كيف سيطفي النار الأخرى التي تشتعل في جوفه منذ خرج في رحلة الشقاء وحل ضيفاً على الصحراء.

قضى الليلة الأولى في وادٍ عميق مكسو بالطاح الصبور وأعشاب برية انهارت في مقاومة الجفاف فشاحت وذلت. عقل أرجل الجمال الأمامية وأطلقها ترتع في الأحراش الصفراء.

زحفت العتمة. أوقد النار وانهمك يعجن دقيق الخبز. في تلك اللحظة سمع العويل:

- عو - و - و - و - و -

عوين طويل، شقيّ، فاجع. والفجيعة في عواء الذئب لا ترتفع إلا في ضحكة الجوع. هذا ما يعرفه الحكماء وخبراء الوحش. وبيؤكد الرعاة العجائز أن نبرة الفجيعة لا تتجلى في عواء الذئب إلا في حقبة الجوع. وهي التي يسمّيها الرعيل القديم «قهقهة الجوع». ويقول الخبراء بقراءة الأصوات أن الذئب، في هذه المرحلة، يصبح مجنوناً في شراسته، وما ضحكاته الساخرة إلا فخ لخداع البهاء من الناس، لأن جسارتة تتجاوز كل حدٍ فيها جم حتى الجمال، بل كثيراً ما فقد صوابه واعتدى على أشجع الرعاة في السنوات التي عمّ فيها الجفاف وسادت المجاعة طويلاً. ولكن مأساة آخِمَاد الثانية، بعد لعنة الظُّمَاءِ الأَزْلِيِّ، أنه لم يهتم بقراءة الأصوات يوماً، ولم يتخيل أن يجرؤ ذئب الصحراء الوسطى الصغير في حجمه مثل الثعلب، ويهاجم حيواناً مارداً كالجمل أو مخلوقاً مقدساً كالإنسان، لأن آخِمَاد كان يجهل، مثل أغلب النساء المكابر، أن الجوع، كالظُّمَاءِ، كـ «إيغايغان»، يلسع العَصْب ويصيب العقل بالمس.

توصلت شكوى الذئب في الضحكات الساخرة، الفاجعة، المتوعدة. هرول إلى الأحراس وعاد بحزمة حطب. أطعم النار كي يرهب الوحش باللهب. ابتهجت النار وتمادت. لفظت الشر وشقت الظلمات بسيف اللهب. هرع إلى الأحراس مرة أخرى ليجلب المزيد من الحطب فلاحظ القلق في سلوك الجمال. توقفت عن نهش الأعشاب الجافة ورفعت رقبتها في ارتياح وتوتر كما تفعل عندما تشم رائحة الضبع. تزفر بتأفف وتضرب الأرض بالساقي الأمامية في رفقات عصبية.

كَدَسَ الحطب بجوار النار وقرر أن يتلهى بآعداد الشاي. أنصت فسمع كيف تبتعد ضحكات السخرية ونداءات الفجيعة. إنكأ على السرج وأغفى. نام نوماً قطعه الرؤى وتخلله الكوابيس والأشباح. وكلّما استيقظ زُود الموقد بالحطب وسُغرَ النار.

في الفجر واصل السفر.

انعطف يميناً وقطع مسافة أخرى. شاهد القمم المتكّبرة المحروثة بالمخوططات والرمز ووصايا الأجداد الأوائل، فعرف أنه دخل حَرَم الأساطير والأسلاف والغموض. ارتفعت الشمس أشياً أخرى. تصاعد الغبار في الأفق فظنَّ أنها زفراً مفاجئة من زفرات القبلي، ولكن الغمامات الترابية انقضت فرأى قطبياً من الذئاب. قطعت عليه العراء المؤدي إلى قمم الأسلاف التي يعرف أن رؤيتها ليست إيذاناً بيلوغها، وعليه أن يقطع مسيرة أيام آخر حتى يصل إلى أطراف تادرارات الغربية. للمسافات في الصحراء أخلاق السراب إذا بدت اختفت وإذا اقتربت ابعت، وعلى المسافر أن يتحصّن بكلمة السرّ بِالْأَيْضَ يصدق ما بدا وبِالْأَيْضَ يُيَسَّرَ ما خفي.

توارى القطيع وراء رابية مستطيلة تمددت جنوب العراء. أغلقت الجمال وأظهرت الاستفار. حرن المهرى وقاوم. حَثَّ على مواصلة السير فتمرد وتملّص وحاول أن يعود على عقبه. قاوم الجملان المشدودان إلى ذيبله

وأعلنا العصيان. ترجل من السرج بقفرة واحدة. قاد القافلة ماشياً فانقاد له المهرى كارهاً. الجملان المحملان بانتقال القرب ساراً أيضاً مكرهين، متوجسين. توقع أن تخرج من مكمنها بعد وقت. لم تخرج. اطمأنت الجمال ورأى كيف عادت السكينة إلى عيونها الوديعة فعرف أن قطيع الوحش قد ابتعد.

حَمِيَ النَّهَارُ وَتَدْفَقَتِ الصَّحْرَاءُ بِالسَّيُولِ الْفَضِيَّةِ الْلَّعُوبِ. رُضِعَ مِنَ الْقَرْبَةِ
وَغَمَرَ وَجْهَهُ وَصَدْرَهُ وَمَلَاسِهِ بِالْمَاءِ.

تسلق المهرى ورحل راكباً.

(11)

ولت عنه يومين. في اليوم الثالث، في عز النهار والنار، وجد نفسه محاصراً بجيش من الذئاب اليائسة. شعاء، ضامرة، متفاوتة الأحجام، بعضها رمادي اللون، والبعض الآخر باهت مائل للشحوب والاصفار. اعترضت طريقه في خلاء ممدوّد مجرّد من الشجر والحجر، حالٍ من التجاريف أو أي معقل يصلح للدفاع. حاولت الجمال الإفلات والعودة إلى الوراء. جرّته بالرسن على الحصى، ولكنها توقفت فجأة وترجعت. الطريق الخلفي انقطع أيضاً بظهور ثلاثة ذئاب. خرجت في مرة كأنها بنت من الأرض القاسية المشتعلة بنار الظهيرة. أقفت على السيقان الخلفية ورفعت أخطمها إلى أعلى وتنادت في شكوى جماعية مهيبة:

اضطربت الجمال وفقدت الصواب. دارت في الطوق المشيد برؤوس الوحش وهي تركل الأرض بقلق عظيم. ترفع رؤوسها إلى أعلى كأنها تشكو إلى السماء وتستجدي النجاة. في عيونها الجميلة هربت الوداعة، اختفت السكينة، وتأنق الفزع. في الفيلق الأمامي ارتفعت أصوات الذئاب بضحكه وحشة، حماعية، ساخرة، شَتَّت فيها الحيوانات الجائعة وعيدياً

كتمته دهراً. ولا يعرف آخِمَاد لِمَا جعله العوَاءُ الأَخِيرَ يَشَاءُمُ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ وقت. حاولَ أَنْ يَهْدِيَ الْجَمَالَ. تَنَاهَى سِيفُهُ الْمُعْلَقُ فِي عَنْقِ السِّرْجِ. امْتَشَقَهُ بِالْضَّطَرَابِ. رَأَى ذَبَّةَ هَرْمَةَ تَقْدِمُ نَحْوَهُ بِحَذْرٍ. تَحْنَى عَلَى الْأَرْضِ مَعَ كُلِّ خَطْوَةٍ تَشَمَّمُ فِي احْتِرَاسٍ قَبْلَ أَنْ تَقْدِمَ الْخَطْوَةُ التَّالِيَةُ. هَاجَتُ الْجَمَالُ وَأَصَابَهَا الْمَسُّ. أَحْكَمَ آخِمَادَ قِبْضَتَهُ عَلَى الْلِّجَامِ وَخَاطَبَ الْجَمَالَ مَهْدَئاً:

أَشَ - شَ - شَ . . .

وَصَلَتِ الذَّبَّةُ. رَفَعَتْ رَأْسَهُ بَشْعَأً. فِي عَيْنِيهَا غَمْوُضٌ وَإِيحَاءٌ خَفِيٌّ. حَدَّقَ فِي عَيْنِيهَا. تَحْسَسَ مَقْبِضَ السِّيفِ. شَدَّ الرِّسْنَ بِالْيَدِ الْيُسْرَى. مَاذَا فِي عَيْنِيهَا؟ مَاذَا تَقُولُ الذَّبَّةُ الْحَكِيمَةُ؟ هَلْ تَنْطَقُ مَقْلَتَهَا بِالرِّجَاءِ أَمْ بِالرَّعِيدِ؟ أَمْ بِكَلِيْهِمَا معاً؟ آه. يُمْكِنُ فَهُمْ هَذِهِ الْلُّغَةُ هَكُذَا: «نَحْنُ قَطْبِيعُ جَاعٌ شَهْوَرَا». فَمَا ضَرُّكَ لَوْ تَنَازَلْتَ لَنَا عَنْ أَحَدِ جَمَالَكِ؟» ثُمَّ أَضَافَتْ بَعْدَ قَلِيلٍ: «أَعْلَمُ أَنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْخُذَهُ مِنْكَ بِالْقُوَّةِ إِذَا رَفَضْتَ الْعَرْضِ». غَمْرَتْهُ فَشْعَرِيَّةُ. ارْتَجَفَ. شَدَّ عَلَى الْمَقْبِضِ وَاحْتَكَمْ لِلْسِيفِ. مَا أَنْ لَمَعَ السَّلَاحِ تَحْتَ شَمْسِ الظَّهِيرَةِ حَتَّى احْتَكَمَتِ الذَّبَّةُ لِسَلَاحِ أَشَرَسِ. كَشَفَتْ عَنْ أَنْيَابِ فِي طَولِ أَصَابِعِ الْيَدِ. وَمَضَتْ تَحْتَ شَعَاعِ الشَّمْسِ أَيْضًا فَكَانَ ذَلِكَ إِشَارَةُ الْهُجُومِ الْوَحْشَوْسِ. تَقَاطَرَتْ فِي لَحْظَةٍ وَهَجَمَتْ مِنْ كُلِّ الْجَهَاتِ. اتَّزَعَتِ الْجَمَالُ الرِّسْنُ مِنْ آخِمَادَ وَأَفْلَتَتْ. تَفَرَّقَتْ فِي الصَّحَرَاءِ وَانْطَلَقَتْ خَلْفَهَا الذَّئَابُ. انْهَارَتِ الْأَمْمَةُ وَسَقَطَتِ الْقَرْبُ. ارْتَطَمَتْ بِالْأَرْضِ فَانْجَرَتْ. سَالَ الْمَاءُ فَامْتَصَتْهُ الصَّحَرَاءُ الظَّمَائِيُّ. بَقَبَقَ فِي مَسَامِ الْأَرْضِ وَتَصَاعَدَ الْبَاقِي فِي بَخَارٍ لِيُشَرِّبَ الْفَضَاءَ نَصِيبِهِ أَيْضًا. اسْتَمَرَّ فَحِيجُ الْمَاءِ الْمَهْدُورِ فِي رَحْمِ الصَّحَرَاءِ. وَقَفَ آخِمَادَ يَتَحَسَّرُ. فِي قَلْبِهِ انْدَلَعَ الْحَرِيقُ الْخَرَافِيُّ الْقَدِيمُ فَحَرَقَ جَوْفَهُ. صَدَعَ الْجَفَافُ إِلَى الْحَلْقِ وَسَالَتْ مَرَادَةُ فِي الْفَمِ. رَفَعَ عَيْنَيْنِ يَائِسَيْنِ إِلَى الْأَفْقِ فَرَأَى كَيْفَ تَبَعَّدُ الْجَمَالُ الْمَفْزُوعَةُ وَقَطْبِيعُ الْوَحْشَوْسِ يَتَسَابِقُ فِي أَثْرِهَا.

تحولت الجمال الهازية والذئاب المطاردة إلى أشباح تطفح فوق سيل السراب.

(١٢)

الصحراوي على ميعاد مع الظماً منذ الأزل. منذ الخروج من بساتين «واو» وبده رحلة التيه في أرض القفر. وهو، آخِمَاد، يعرف هذا الناموس كأي مهاجر آخر. يعرف أن هذا قدر. قصاص حزاء الخطيئة. ولكن إذا ولد المهاجر وفي صدره نار فإن **الجُوَاد**^(*) سيكون مصيره عندما تبدأ المسيرة. وهذه اللعنة التي جاءت معه تجعله حطباً لنار الصحراء، نذراً للفناء. فطالما لم يولد على ضفاف وادي كوكو^(**) فلن يلومه أحد إذا حسد سكان تادرارت الذين حصّنهم الله من بلوى الظماً وخلقهم بأجسام الطبيان ليتفوقوا على الجمال في الصيام عن الماء. وأوخا الذي يشتَّر من أجسامهم الضامرة، الخضراء، ويقول إنها لا تشبه أجساد الإنس، لا يعلم أن السر في لونها وفي عدم شبهاً بأبدان الإنس. لا يدرى أن أوداد شيطان يسكن على سر الأسلاف، يوم قام جده (جَدُّ الْأَبْتَاع) بالإمساع إلى الماء واستحم في الغدير الذي صنعته الأمطار وأحْفَتَه في شقوق القمم الجبلية بين الصخور. ولم يكتف الجَدُّ الأحمق بالاستحمام مرة واحدة، ولكنه عاد في اليوم التالي وغسل أوساخ بدنَه الكريهة في الماء الشهي، البارد، البراق كقطعة من سراب الخلاء دون أن يدرى أن القمر المعلق على رأسه، يراقب عمله النجس. وفي اليوم السابع لم يحتمل القمر هذا العدوان فبكى بدموع سوداء وأشاح بوجهه عن الصحراء فحلَّ الظلام. سقطت دموعه السوداء في الغدير فتحول إلى مستنقع عطن، متدرج بالوحل الأسود. فخرج الجَدُّ الأحمق وهو يجبو على أربع. تحول من ذلك اليوم إلى ضَيْقَ قفامت بين أحفاده وبين الماء عداوة ما زالت تنتشر بينهم حتى اليوم. وكثيراً ما يقوم النبلاء باستفزاز الأَبْتَاع برش الماء على وجوههم. يصعقون، ويقفزون في

(*) **الجُوَاد**: آخر مراحل الظما وأقوالها. (عن أبي منصور الثعالبي «فقه اللغة»).

(**) وادي كوكو: الاسم القديم الذي تطلقه بعض القبائل على نهر النيل.

الهواء كمن لدغته حية. يزعقون بأصوات مُنْ أصابه مس. ويرُوى أن جلهم لم يذق طعم الماء إلَّا في الأعشاب البرية. هذه الأطوار الشيطانية جعلت قبائل الصحراء تتجنبهم وتيفنَّ بأنهم مخلوقات تنتهي إلى أهل الخفاء.

بدأ يترنح. اشتعلت النار في القمم. تحول سكون الصحراء الجليل إلى وعيٍ خفي، مهيب. رأى في وجهها المطبوع بالرحمة قساوة وغضباً وصرامة. لا تقسو الصحراء بلا سبب. لا تعذب بالنار بلا سبب. لا تتخلى عن المهاجر بلا سبب. فما السبب؟ ما السبب؟ الدرويش. نبوءة الدرويش هي السبب. نزل في صدره الوحي كالقبس الفجرى البكر. والخاطر إذا كان وحياً كالقبس فهو إشارة من الحق. هبة من الحقيقة. فماذا قال الدرويش؟ قال: «إذا أُسأْتَ لَه مَرَّة أُخْرَى فلن تفندك قرب الماء من الظما مهما كثُرَتْ وَكَبَرَتْ». الآن أدرك أن زيارته نفسها نبوءة. زيارة مجرية غامضة، تحدث فيها بلغة الإشارات الغامضة. فكيف لم يخطر بباله قبل الآن أن الزيارة نفسها لا بد أن تدخل في باب النبوة وهو الذي لم يخبر أحداً بنيته في السفر ولا في عزمه المبيت بطلب أوداد للمبارزة؟ كيف عرف الدرويش إذا تعمَّدَ أن يخفي سره حتى عن أوخا نفسه؟ أي شيطان هو الدرويش؟ أي ملاك هو الدرويش؟... الذئبة؟ كيف أنسَته المواجهة أن الذئبة جدته القديمة ولا يمكن أن تكون إلَّا رسوله؟ حذر، وعندما لم يفَد التحذير سخر له جدته الذئبة كي تشتت شمل جماله وتُبَقِّر له بطون القرب. فهل هو شيطان رجيم أم ملاك سماوي؟

ترنح وسقط. زحف على أربع فلسنته الرمضاء. تكرر كالقند وتدرج على الحصى الملتهب. اشتد الصداع. لفَ برأسه الدوار. انكفا على وجهه فوجد بين شفتيه كرة من البر. مضغها فتفتت الروث في فمه. لم يشعر له بطعم. لا طعم في فمه سوى طعم الجفاف والمرارة. رأى عشبة ميّة على بعد خطوات فزحف نحوها بجنون. تدرج. ابتعدت العشبة. وكلما اقترب ابتعدت. هل هي سراب؟ هل بدأ الجُوَاد المخيف ينسج خيالاته؟ ويل له من الجُوَاد؟ الجُوَاد أبشع من الموت. الموت يأتي مرة واحدة ويعقبه

الخلاص، أما الجُواد فكله موت. تدرج. بلغ العشية البائسة. دسَ رأسه بين أوراقها اليابسة فأفزع عظاءة استجارات بها من جحيم الظهيرة. فرَت مسافة ووقفت تلهث وتنظر إليه. زحف وراءها ففرَّت مسافة أخرى. تصاعد اللهب في جوفه وتواصل في اللهب الظاهر حتى أصبح جسمه قطعة من النار. تدرج وعاد إلى العشبة البائسة وشرع يأكل الأغصان اليابسة. ولكن القبلي امتصَ من الوريقات المكورة، الصغيرة، ماء الحياة، ووهبها للصهد والفناء. دارت عيناه في محجريهما ورأى الظلمة. بدأ الحجاب ونزلت الظلمات. إذا حلَّ الظلام فقد اقتربت ساعة الخلاص. ساعة التحرر والعبور. ساعة الفرار. استلقى وفتحَ عينيه. لم يرَ الشمس. لم يرْ أقصى جسم في الصحراء كلها. هذا أيضاً من علامات الخلاص. إذا غابت الشمس في عزِّ الظهيرة فإنَّ الأفول يُطْرِق الباب. ولكن قساوة النَّفَس الأخير جعلته ينهش عروق اليد بأسنانه. أراد أن يمزِّق العروق ليطفيء اللهب ولو بقطرة دم. ولكن قواه خذله. الجُواد سحب السلطان حتى من الأسنان. يئس. ازدادت الظلمات كثافة.

فتحَ عينيه على اتساعهما فلم يبصر الشمس. و.. فجأة. ذلك حدث فجأة كما تحدث كل الأشياءخارقة. فجأة حلَّ في رأسه الصفاء. صفاء مرفوق بشوهة كاللوجد. غاب الجُواد واحتجبت الظلمات. رفع رأسه فرأى القمة الأسطورية. قمة جليلة من قمم تادرارات. القمة التي تحفظ وصايا الأسلاف وتهمس بها للأحفاد عندما تزلُّ أقدامهم في صراط الصلال. لم تعد قاسية أو صارمة. إنها رُؤوفة، تنطق بالجلال والرحمة. أشارت له: ارکعْ! فركع. قالت له: قبِّل التراب! فقبَّل التراب. قالت له: اطلبِ الصفح واستغفر! تتمم يطلب الصفح والغفران.

انقضَ حجاب الظلمات. رأى أوداد ينحني فوق رأسه.

٦ . الرّهان

«مَاذَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانُ لَوْ رَبَّ الْعَالَمَ وَخَسِرَ نَفْسَهُ .
إِنْجِيلُ مَتَّى (١٦)»

(١)

فتح عينيه في كهف منقوش بالمخطوطات والمخلوقات. على الجدران رُسمت رموز «تيفيناغ» بمادة داكنة.

تسلّقت الحيطان المستديرة حتى بلغت أقدام مَرَدة مُقنعين برؤوس بني آوى، يسكنون بالحراب وأقواس النَّبَال، يُشَعِّون رؤوسهم إلى أعلى ، نحو القمة العالية التي حُفِرت بإيقان في رأس المغارة، حيث انتصمت قطيع من الودَان مؤلف من خمس شياه مختلفة الألوان:

شاتان رُسِّمتا بلون أبيض ناصع ، وفتقا على قمة الجبل متقابلين حتى تكاد قرونها المعقودة أن تتلامس. وشاتان بلون أحمر، يقف بينهما وَدَان عملق بلون رمادي. كانت القمة عالية، وربما كان علوّها بسبب ارتفاع سقف المغارة.

لاحظ آخِمَاد:

- لم أَرْ وَدَانًا بلون أبيض أو أحمر قبل اليوم.

في مدخل الكهف تَرَبَّع أوداد. انهمك يخلط الشاي بين الوعاء وكوب من خشب. تناول رشفة لاختبار السُّكَر ثم قال:

- هذا قطيعي المقدس. انظر نوايا البشر نحو القطيع البائس. ولولا

القمة السماوية لفتک بنو آوى الوحش بالشیاه المحرمة. أكلَ الودان
الأیض حرام. قمة النجاة هي التي عصمت القطیع من ال�لاک. كما ترى
فإن بنی آوى أعدائي أيضاً. هيء - هيء . . .

لم يعرف أخِمَاد سبب المرح . تابع القطبي الجليل ورأى في الأقنة
يأس الصيادين وتمت لفسيه :

- فهمت لماذا تتشيّث بالقمة. إذا نزل أوداد^(*) من الجبل فإن حياته في السهل دائمًا في خطر.

رفع رأسه. التفت يميناً فرأى الهاوية. خَيَل له أنه ما زال في غيبة الجُوَاد. سأله بدهشة:

- كيف صعدت بي إلى هنا؟

- هيء - هيء .. استعنت بالجن !

تابعه آخماند بفضول. داعبه:

- هل تشق بالجن؟

- هيء - هيء -. ولم لا؟ إذا أعطيتهم ثقتك بادلوها بشقة أحسن منها.
وإذا أخلصت لهم أخلصوا لك. عكس البشر.

- ألا تخاف الأذى؟

- الجن لا يبدأ بالأذى. الناس دائمًا هم البادئون بالظلم. أنا لا أخشى إلا أذى الناس. انظر إلى السقف وتفرّج كيف يشحذ بنو آوى أسنانهم الوحشية استعداداً للفتك بقطيعي المقدس. ولكنهم لن ينجحوا. القمة السماوية ستار يفصل بينهم.

قدم له أوداد الشاي في الكوب الخشبي . رشف وسائل :

(*) أوداد: الودان (تماهق).

- هل تستقبل طائر الفردوس في هذه المغارة؟

اختفي المرح من عينيه:

- أدخلتك لمكان لم يدخله مخلوق من قبل ، ولكنني لا أنوي أن أحذثك عن طائر الفردوس .

- أغفر لي فضولي . لم أظن أنك تخفي أمره .
- لا أخفي شيئاً .

- علّمك الغناء . ألم يعلّمك الغناء؟
- هذا شأنى وحدى .

- لقد رهنت قلب للأميرة . والعاشق لا بد أن يسعى إلى المعشوق .
ستنزل إلى السهل ويبقى الطائر السري في القمة . سيهجرك :

..... -

- هذا ناموس العشق . إنه لن يتحمل أن تشرك به أحداً . سيفلت من صدرك وتنقده إلى الأبد . وإذا فقدته فإنك ست فقد الأميرة أيضاً . تبكي لا تعيش فيك إلا صوتك . أعطت ظهرها لأوحا يوم سمعت صوتك في الميعاد .

- هل أرسلك أوحا كي تقول لي هذا؟

- بل جئت سراً كي أطلبك للمبارزة .

- أنت تعرف أني لا أحسن استعمال السيف . أنا لا أتفن إلا صعود الجبال .

- والغناء؟ ألا تتقن الغناء يا ساحر؟

.... -

- جاءني صديقك الدرويش في الفجر وحدّرني من الإساءة إليك . تكلّم

بنوة مسؤومة فمزقت جدّته الذئبة قرب مائي وسلّمتني للنار. أنت أنقذت حياتي. جئت كي أدفع الدين لأوحا وأتحرر فوجدت نفسي مدیناً مرتين.

- لا أفهم.

- أنقذ أوحا حياتي ومعنى من شرب ماء البئر المسموم في غزوننا التأديبية ضدّبني آوى. قررت أن أطلبك للمبارزة لأسدّ الدين القديم فحملت رقبتي ديناً جديداً.

- أنت في حلٍ من الدين الثاني.

- هذا كلام يُقال. ولكن الدين يبقى في الرقبة إلى الأبد. والسبب؟ الظُّمآن هو السبب في كل مرة، فاغفر لي.

- غفرت. لو لم أغفر لما سقيتك من مائي؟

- هل قرأت نبتي مثل الدرويش؟

... -

- لم أخبر أحداً بنبتي ولكن موسى الشيطان قرأ قلبي.

- ليس صعباً على الدرويش أن يقرأ القلوب.

- حقاً؟ ولكنك أيضاً درويش. أنت أيضاً تقرأ القلوب.

عاد يستلقي على قفاه. ردد لنفسه بيس:

- ولكنني مدین لکلیکما. مدین لرجلین بدل رجل واحد. أنت لا تعرف کم هي کریهہ عبودیة الدين. کم هو قاسٍ استعباد الرجال. كلما رفعت رأسی دفعني الظُّمآن الملعون لأيديهم!

نهض فجأة وزحف نحو أوداد. تألقت مقلتاه في ضوء العشية وقال باهتمام:

- قلت منذ قليل إنك لا تحسن إلا تسلق الجبال. فلو راهنك أونحا على صعود جبل فهل تقبل؟
- لا أفهم.

- إذا استطعت أن تسلق أيدينان وتقف على رأس اللوح العمودي، تنازل لك عن الأميرة.

فكّر أوداد لحظة ثم أعلن بيقين:
- أقبل.

- ولكن ألا تخشى الجن؟ الإمام المرحوم قال إنك لن تصعد.
- سأصعد. إذا راهنتي على تينيري فإني سأصعد. قبلت الرهان.
- في صدر الإمام تنام أسرار أيضاً. لقد حذرتك.
- الرهان سيجعلك في حلٍ من الدينين: ديني ودين أونحا. هيء -
هيء. قبلت الرهان.

ركعت الشمس للغروب فانحسر الضوء عن فوهة الكهف وغاب القطبيع المقدّس في العتمة.

(٢)

اعتراضه الدرويش. أقبل راكضاً. يحمل جراباً وزمرة ماء. وقف يلهث لحظات. مسح عرق الجبين بظهر يده. قال بحزن:

- لم أتوقع أن تقبل الرهان!
انطلقا معاً. اتجها إلى المرتفعات البعيدة التي تمتد شمال جبل المجهول والجن. دحرج موسى حجارة حزازة بنعله القديم وقال بنفس النغمة الكثيبة:

- ما كان ينبغي أن تقبل الرهان!

طمأنه أوداد:

- لا تهتم. سأصعد. سأكسب الرهان.

تمتم الدرويش بلغته الغامضة:

- ما فائدة أن تكسب الرهان وتخسر نفسك.

- أنت آخر منْ توقعته أن يشك فيَ.

- أنا لا أشك فيك ولكنني أعرف سر اللوح.

- سر اللوح؟!

رمقه الدرويش بعينه الحولاء. سكت زماناً. دحرج حجارة مجلوة صقلها الماء القديم عندما كان يجري في الوادي أنهاراً لا توقف. راقب فلول السراب وهي تختضر على الرمال في غزو العشية.

قال باللغة الغامضة:

- اللوح العلوي يطل على نفق الظلمات. ومنْ بلغ اللوح ورأى النفق السري خسر نفسه ولن يستطيع أن يعود للناس في خلقته.

- هل ترهبني بجهنم الإمام المرحوم؟

- الإمام راهن أونحا بالنوق والثياب كي يتحداك بالرهان ولكن أونحا قدر فيك مواهب الودان فتجنب المباراة. الإمام يعرف سر النفق المظلم.

- النفق المظلم في رأسه، في صدره، وليس في الجبل. لم يكف عن الإلهاب حتى آخر يوم في حياته. ألا يكفي برهاناً أنه مات وفي يده سكين؟ ألا يكفي أنه أمات تيميط بالمدية كي يلصقوا بك التهمة القبيحة؟ لولا سعيه البشع لما حرقوا صدغيك بالمس.

- لقد غفرت له. لم يكن يدرى ما يفعل. منْ أحب الذهب أصيّب بالعماء في عينيه وفي قلبه.

- ما أعرفه أن أمامي فرصة وحيدة للفوز بتينيري . إذا لم أصعد فلن أكون جديراً بها . هل تفهمني ؟
عاد الدرويش إلى لغته الغامضة .

- وما فائدة أن تفوز بتينيري إذا كنت ستخسر نفسك .
داعبه اوداد :

- توقف عن إرهابي بأحاجي الإمام !
رَدَ موسى جاداً :

- لم يتكلّم الإمام هذه اللغة يوماً واحداً . مَنْ خُتِمَ على قلبه بالذهب لم يُقدِّرْ له أن يتكلّم لغة العشق .
ضحك اوداد :

- هذه لغة الدراويش !

وقف موسى تحت أثلة وحيدة في قلب العراء . وضع زمزمهته الخشبية الملفوفة في قماط من قماش . وضع بجوارها الجراب الجلدي . ترَبَّع بجوار المتنع ورافق شعائر الغروب . سجدت شمس حمراء ، مكسورة الكبارياء . كلما أطلَّت على الفناء ، وشاهدت متأهله الظلمات ، بكت بدموع حمراء ، وندمت على غطرسة النهار ، على طفيان الظهيرة . جلس اوداد أيضاً . رأى موسى وحبي في الآيات . في السكون . في الغروب . في امتداد الصحراء الخالدة . . . في اللوح المربع الذي يعتلي قمة الجبل المجهول . نطق اللوح بالوحى الحزين .

قال موسى :
- كان يجب أن تقضي الليلة بجوار العجوز . ستحزن كثيراً .

... -

- تصرف كأنك مقطوع ، بلا أهل .

- نعم، أنا مقطوع. كل مَنْ عجز في إيجاد لغة مع الناس فهو مقطوع.
أنت أيضاً مقطوع.

- نعم. لا أنكر أنني مقطوع.

- لا أعني بالمقطوع تَيَمَّك من أبويك. ولكنني أتحدث عن العجز في
إيجاد اللغة مع الخلق. إنه أَشَرَّ أنواع البتم.

احتَجَّ الدرويش :

- هذا ليس صحيحاً. أنا أنهم لغتهم. أحَاوَلْ أنْ أَفْهَمْهُمْ، أَعِيشْ
بِنَهْمِ ..

فاطعه اوداد بقسوة :

- ولكن هل يفهمونك؟ هل يفهمون لغتك؟

هرب موسى إلى الأفق. هناك استسلمت الشمس لقدرها وسجدت في
خشوع. همهم :

- ذاك شأنهم.

أضاف بعد صمت :

- ... إنهم أشقياء. مساكين، عاجزون، لا يستحقون إلآ الشفقة. أَشْفَقْ
عليهم ولا تلمهم. إذا لم يفهموا لغتك فلا تُقْسِّ عليهم واغفِرْ لهم!

- وماذا يفعل مَنْ يعجز عن الغفران؟ هل تعرف ماذا عليه أن يفعل؟

ضحك باستهزاء غامض وأضاف :

- يذهب إلى الجبل. يهرب إلى تادرارت، وعندما يفيض به الكيل يهجم
على الجبل المستحيل ويصعد اللوح الخفي ليشاهد نفق الظلمات. هيء -
هيء - هيء ...

التفت إليه موسى. تابعه بفضول. ثم تحول فضوله إلى دهشة. أَخْفَى

أوداد مرحه المفاجيء وراء لثامه وراقب الأفق الأحمر.
زحفت العتمة.

(٣)

رفع أوداد صوته بأغنية حزينة من أغاني «أساهع». كانا يستلقيان على ظهريهما، يراقبان السماء المتلائمة بخشود النجوم الغامضة. ينصلان للسكون الجليل، البكر، يحدثهما عن الأشياء المبهمة بلغة الأسلاف المبهمة. يهمس لهما سر الصحراء والحياة والموت. وعندما رفع أوداد صوته المدهش لم يستنكر موسى، لأنه أحسن بأن أغنته استجابة لهمس السكون، استكمال لنص لم يقله بعد. أغنته استمرار لأنغنية السكون. ما قاله السكون بلغته السرية قاله أوداد في أغنته المسموعة. ما أخفاه السكون في صمته أذاعه أوداد بأغنية العشق والشوق والحنين. سر الصحراء الخالد القابع في السكون المقدس كشفه الصوت الفاجع، الحزين.

سمع موسى زغاريد الجنينات في الجبل المستحيل. ورأى الحوريات يترافقن في العراء المفتوح، المغمور بشعاعات القمر الفضي، فطار قلبه ووجد نفسه يرافقهن.

وحتى عندما توقف صوت الفردوس لم تتوقف دموع الوجد التي سالت من عينيه المفتوحتين، المحترقتين بالسائل الفائز.

قال :

- ها أنت تذهب للوقوف على نفق الظلمات دون أن تعلّمني الغناء.
- الشيء الوحيد الذي لا يستطيع إنسان أن يعلّمه لإنسان هو الغناء.
- لو كنت أحسن الغناء لخفف من شقائي كثيراً. لو أحسنت الغناء لعشت سعيداً. فما أشقي مَنْ لا يحسن شيئاً! ما أشقي من لا يحسن الغناء!
- ولكنك تتقن شيئاً يحسدك عليه كل الناس. تتقن أنفس شيء في الحياة: المحبة!

- المحبة؟ هل المحبة فن؟

- بل هي أصعب الفنون. أصعب من الغناء ومن قول الشعر. ألا تغسل البدن والقلب؟

- وكيف يعطي الشيء من يفتقد الشيء؟ الإنسان لا يعطي شيئاً لا يملكه. أنت وحدك تملك الكنز.

ابتسم موسى. اقترح:

- هل تقايضني إياها بالغناء؟ هيا ندبّر صفة على طريقة التجار في أسواق «واو»!

تنهَّد أوداد. همس:

- ليتني أستطيع. ليتني أستطيع أن أملك قلباً كقلبك!

هيمن السكون من جديد. توسل الدرويش فجأة:

- عنّ مرة أخرى! أريد أن أسمع طائر الفردوس.

انتظر طويلاً قبل أن يسمع الصوت المبعوث من جنات عدن.

(٤)

بالجوار عبرت قافلة محملة في طريقها إلى الشمال. استقرَ بعض المسافرين على ظهر الجمال، بين البضائع والغرائز، وسار في المقدمة مهاجرٌ وحيد، وقد الجمل الأول في القافلة مشياً على الأقدام. يتلهى من وقت لآخر بترويض أغنية على لحن قديم. يرroc للمهاجرين أن يستغلوا الليل المقرمة في السفر هرباً من إرهاب الشمس في النهار.

يستعيدون، خلسة، تلك المسافات النفيسة التي تأخذها الشمس بالقوة في الظهيرة، ويسيرون الليل مهتدين بالقمر الصبور، الحليم، معتمدين على النجوم كدليل.

ابتعدت القافلة. خلَّفت وراءها رائحة الإبل. طغى السكون مرةً أخرى. سكون بلا قاع لا يتقن الإصغاء لملاحمه إلَّا الشيوخ. ليس كل الشيوخ، ولكن تلك الفئة المعمرة التي لا ت يريد من دنيا الصحراء إلَّا الصمت. أو ربما لم يبق لها إلَّا الصمت. لاحظ موسى أن شيخ القبيلة يزدادون تعلقاً بالسكون الصحراوي كلَّما تقدَّم بهم العمر. يجتمعون ويدهبون إلى الخلوات المقطوعة ليسمعوا السكون، أو «صوت الله» كما يروق لبعضهم أن يقول، يوماً كاملاً. يجتمعون ليصوموا عن النطق، عن الإيماءة، عن أبسط إشارة. شعائرهم في الإصغاء للسكون من العادات التي تفوق حتى الصلاة قداسة.

حاول موسى أن يقتضي اللغة الخفية، الملاحم المجهولة، النداء السماوي، الذي يتكلم به الصمت الصحراوي ولكنه لم يغنم سوى الطنين الذي يجرح الأذن. فهل يقرأ العجائز مجازاً، أو يصطادون رمزاً، في هذا الطنين الحاد، الجارح؟

ولكن كل ما خفي فهو أسرار نالوها بالعمر الطويل. هم وحدهم جديرون بأن يحملوا هذا السر.

عاد ينصلت فسمع كيف انتظمت أنفاس أوداد. سأله بصوت واهن:

ـ هل أنت نائم؟

لم يرد، فهمهم الدرويش لنفسه:

ـ أردت أن أقول إن تفاؤلت ستتألم أيضاً!

تكلَّم أوداد بعد لحظة بلغة اليقين:

ـ لن تتألم.

ـ

ـ تفاؤلت اختارتك أنت. هي لك!

ـ ولكنها في ذمتك.

- ليس في ذمي شيء .

أنصتا فلم يسمعا سوى أنفاسهما ودقّات قلبيهما . ثم كرر أوداد :

- ليس في ذمي شيء ! .

عاد السكون . تابع موسى رحلة القمر . انتظمت أنفاس أوداد مرة أخرى .
ظلّت الجملة تتردد في أذنه . ليس في ذمي شيء . آخر ما سمعه موسى من
صديقه القديم . نهض . وقف فوق رأسه . تأمله على ضوء القمر في رقاده
الوديع . يسدل زماله الرمادية الهزيلة على عينيه . يتوصّد يده النحيلة وينام
كالطفل . تراجع موسى خطوتين . انطلق في العراء . ترك وراءه زمزمية الماء
وجراب الفطائر زاداً لأوداد في رحلة الصعود إلى نفق الظلمات .

رفع رأسه للقمر فلمعت عيناه بوميض كالدموع .

(٥)

تنقلت «تامغارات» بين صفوف المترججين . بدأت الطلب في العراء
الغربي ، حيث تدافع الرجال وتزاحمت النساء لمشاهدة مجازفة ولدها أوداد
وهو يطأطأ على قذاسة الجبل المستحيل ويقترف المعصية . رجمها بعض
الصبيان بالحجارة واتهمها بعض الآباء على لسان أبنائهم الأشقياء :

- ابنك يعتدي على المحرمات ويدنس فم النفق بالرؤية . انظري ماذا
فعل أهل الخفاء للعرفة والإمام : خانا العهد القديم وامتلك الذهب فنالا
الجزاء . ابنك المغدور أيضاً سينال الجزاء !

صَفَقُوا لها باستنكار ومشوا وراءها طويلاً . ولكنها التفت إليهم أيضاً
وسألتهم عن الدرويش . لم يجبها أحد ففتحت ثنية لحافها الأسود وأغرتهم
بحبات التمر . قالت لهم إنها ستعطيهم المزيد إذا بحثوا معها عن
الدرويش . الدرويش هو المخلوق الوحيد القادر على إقناع أوداد بالعدول
عن الاعتداء والعودة عن ارتكاب الإثم . توقفوا عن ملاحقتها وانشروا في

الخلاء بحثاً عن الدرويش. واصلت «تامغارات» الطلب ودخلت سوق «واو». هناك تجمع التجار والزوار والمتسوقون وشيعوا رؤوسهم إلى الجبل الجليل كأنهم يرصدون أفق الغروب لاكتشاف هلال عيد الفطر أو الأضحى.

على أسطح البيوت تراكمت نساء «واو» لرصد الصعود وإشاع الفضول الأنثوي. تنقلت العجوز في السوق وسألت الأغراب عن الدرويش حتى ظنها الرجال امرأة معتوهة. ابتسم لها الحظ فرأى آخِمَاد يستفرق في مساومات مع أحد التجار في الدكان لبيع السكر والشاي. اقتربت واستمعت للمحاورة الحامية لحظات. ثم قالت بلهجة العجائز عندما يتفوهن بالحكمة الخاتمية لخرافة ملحمية طويلة:

- وهكذا وقف مدبر الصفقة الشريرة ببيع السكر والشاي للاحتفال بانتصاره!

التفت نحوها آخِمَاد فامتعق واستيقظ في قلبه غول العطش. اشتعل جوفه واحترق آخر قطرة ماء في حلقه. حاول أن يرطّب لسانه قبل أن يتولّ الدفاع عن النفس ولكن العجوز أعفته من العناء عندما أضافت:

- قيل لي إنك لاحقته في منفاه ودبّرت المكيدة.

بَلَّ ريقه بجهد جهيد وحاول أن يداري الربكة:

- ما أنا إِلَّا وسيط. يعلم الله. بلّغته نبأ الرهان وحدّرته من نبوءة الإمام. ما أنا إِلَّا رسول. يعلم الله!

شدّت اللحاف الأسود حول وجهها وقالت بحزن:

- ألا تدري أنه لم يحدث أَنْ وصل مخلوق إلى اللوح المنصوب واستطاع أن ينزل إلى الأرض من جديد؟ ألا تعلم أن مَنْ بلغ السماء وأطل على فم الظلمات لا يعود إلى السهل أبداً؟ ألا تعلم أن السماء لا تغفر التطاول وتأخذ كل مَنْ وقف على السرّ؟

تحصُّن آخِمَاد بِلَثَامَه وَتَمَّمَ :

- من أين لي بالحكمة؟ من أين لي أن أعلم الغيوب؟

قالت بالكَآبة نفسها :

- كأنك لم تعش في السهل! تتكلّم كأنك لم تولد في الصحراء!

- لا أنكر أني ابن الصحراء. ولكن الوقوف على السرّ يستوجب حكمة أخرى. أنا على يقين أنك ستقتعنين بقدرته على الصعود لورأيَّت ثقته في نفسه. هل يعجز الودَان عن صعود الجبل حتى لو كان مستحِيلاً؟

تأملته طويلاً. حَدَّقت فيه بنظرة غائبة، ثم غَشت بصرَّها عتمة. نَزَّت دموعاً عصيّة من جوانب المقلتين فبرقت العينان بوهج جليل. تمنت لنفسها بعبارة غامضة :

- الودَان لا يعجز في صعود الجبل، ولكن هل ينزل مرَّة أخرى؟

(٦)

بدأ الصعود من الجانب الشمالي مع ميلاد القبس الفجرى البكر. تسلق عرقوباً حادّ الظهر، مكسوًّا بجبانة من قبور الأسلاف المستديرة. لم يستطع أن يمنع نفسه من الإعجاب بصير هؤلاء الجيابرة وعنادهم في التحايل على السيل وغدر الحياة في السهول. ولا يعرف كيف تمكّنوا من الهرب بموتاهم إلى السفوح البعيدة والجبال العالية. وقد لاحظ طوال تطاوله في القمم أن الصحراويين الأوائل لا يقتعنون بحفر مقابرهم في الأمكنة المعرضة لغدر السيل والأنهار الموسمية التي كانت الصحراء تجود بها بسخاء قبل أن تفوز بلقب أكبر صحراء، ولكنهم يجدون دائماً طريقة يودعون بها موتاهم في أعلى الصخور الآمنة بجوار أعشاش الصقور. السفوح الجبلية الصحراوية كلها معطاة بأكدادس «إدِبِني»^(*) مما يجعل من

(*) إدِبِني : قبر الأسلاف (تماهق).

الجبال مقبرة واحدة هائلة تغطي دنيا الصحراء من النهاية إلى النهاية. وأكثر ما أدهشه في اكتشافاته تلك هو صمود الجمامجم والظامام في وجه الشمس والريح والتراب الجشع. جمامجم متقدمة آلآف السنين، ورغم ذلك تظل صلبة، مصقوله، ناصعة، كأنها حجر سهلي مجلو بالسيول المستمرة. وتحوض الريح والتراب حرباً دائمة لامتلاك عظام الموتى. يحاول التراب أن يكتنز ويختفي وينفرد بالغنية لوحده، ولكن الريح تهُب دائمًا وتغزو في حملات عنيدة لتخلص الرفّات من يد غريمها الجشع فتكشف العظام. هنا تفرّك الشمس يديها وتسلّط أشعتها لتأخذ نصيحتها من القربان. ولا يستطيع أن ينسى كيف وجد في فوهه قبر على أحد سفوح جبال تادرارت كوماً من العظام، جمجمةً متوسطة الحجم وذراعاً أحد اليدين وحوض البدن، وقطعاً عظمية صغيرة أخرى، متآكلة، لحسّ الريح حصتها منها ونخر التراب إلّهم أطراها فبدت آثاراً بايّنة لكائن شقي لم يخطر له أن القدر يمكن أن يسخر من هيكله المقدس بهذه القساوة. تقدّم من الكوم وتتفقدّه بطرف العصا.

ابعث الفحیح الكریه من الجمجمة وأطلّ عدو الإنسان الأول برأس عدواني وعيین قبیحتین، مفرّعین. انتصبت كل شعرة في جسمه فوجد نفسه يتراجع إلى الوراء ببطء، ثم فز ونزل السفح. في شعبه سفلية غلبه الغنیان فانکفأ وتقیأ أمعاهه. حدث أحد الرعاة الحكماء بالواقعة فقال له الراعی إنه عثر على كل أنواع الزواحف والحشرات محشورة في جمامجم الأسلاف: حیات وعقارب وخناقوس وعظاماء. وأخبره أيضًا كيف يقوم طلاب الكنوز والباحثون عن الذهب الأشقياء بتدنیس القبور وكشف الرفّات، فتعقبهم الهوم والزواحف على العظام لتأخذها بیوتاً ومخابیء.

وواصل الصعود.

رسم خطة للصعود منذ وافق على الرهان. عرف من علاقته الطويلة بالقلم أن قهر الأبراج الجبلية العمودية لا يتم إلا إذا تحايل عليها وسلقها أفقیًا في صعود حلزوني. فتعمّد أن يبدأ معركته مع ايدینان المهيب من

الجانب الشمالي ، وقدر أنه سيلغ الحزام السفلي مع منتصف النهار إذا ابتسم له الحظ ولم يغدر به القبلي . توقع أيضاً أن الوصول للحزام الأول سيتم في الجانب الجنوبي أو الجنوبي الغربي ، في مواجهة أهل السهل . سيلجأ إلى الشقوق أو الكهوف ، يفقد المارة والمتفرجين ، يقضي القيلولة هناك ليواصل المسيرة بعد الظهرة . إذا سهر الليل واهتدى بالقمر فإنه يأمل أن يدرك الحزام الثاني وهو المطاف الأخير قبيل مراع الألواح المنصوبة على الرأس . الحزام الأول ، السفلي ، حفره الطوفان الثاني الذي غمر صحراء الزمان القديم ودام سنوات طويلة . أما الحزام الثاني ، العلوي ، فهو من نحت مياه الطوفان الذي ابتلع كل المخلوقات والدواب ولم ينج من مائه أحد .

ارتفعت الشمس . اقترب من الجانب الجنوبي ، المطل على السهل المسكون . بلوغ الحزام سيتّم في الطرف الجنوبي الغربي . توقف في رحلته لأول مرة . تعلق بنتوء حزاز ومدّ يده إلى زمزمية الدرويش . نزع السدادة بيد واحدة وتجرع الماء في ثلاثة دفعات . راقب الأفق البعيد المؤدي إلى تادرارت ورأى كيف تلتف الرؤوس الجبلية بغاللة الضباب الصباحية . هدأت الأنفاس . انتظمت دقات الفؤاد . فاحت من الجراب رائحة الفطائر فتذكر الدرويش . البارحة غلبه التعب فأغفى . استغل موسى الفرصة فانسحب وترك له الزاد . لم يشأ أن يبقى للصبح حتى لا يضطر لتأدية شعائر الوداع . هو أيضاً أراد أن يتتجنب الشعائر . انتبه عندما انسل موسى ، ولكنه ظاهر بالسبات حتى لا يواجه المراسم التي تأكل فواد أقصى الصحراويين وتجعل قلوبهم تحرق وتنزف . ولا أحد يعرف هذه القوة السحرية ، والسرية ، التي يخفّيها الوداع فتهزم كرباء المكابرین وتجرّ العتاة أن يركعوا وينزفوا بالدم والدموع .

في تادرارت عرف راعياً غضوباً ، قاسياً ، يثور لأنفه الأسباب ، ويشاجر أقرانه بالذراع وينابزهم بالألقاب ويتجهم في وجوههم ولا يضحك أبداً . رافقه إلى «مساك صطفت» وقاما معاً برعي إبلهما هناك . كان يقوم في

الفجر الأول ويدأ في تأديب جماله العنيفة بالهراوة أو السوط. وأكثر ما أدهشه هو القساوة الجنونية التي كان يؤدي بها شعائر العقاب ضد الدواب البائسة. وعندما احتجَ وناشده الشفاعة والرأفة بالحيوان هبَ في وجهه وأسمعه خرافَة لا تخلو من حكمَة عن دور العصا والعقاب في التربية والتقويم. بعدها قاطعه ولم يادله كلمة واحدة طوال ثلاثة أيام. وعندما حان أوان الفراق بعد أسبوعين وأراد أوداد العودة بإبله إلى مراعيَة القديمة في تادرارت ودَعَه الراعي بوجه صارم، عبوس. مشى مسافة في طريق العودة ثم اكتشف أنه ترك أحججته فوق شجيرة ميتة حيث قضيَا ليلتهما البارحة.

عاد إلى الموقع فوجد الراعي يسدل ثيامه على وجهه ويتفضَّل. كان ينشَّج كالطفل. لم يصدقَ أوداد، فوقف وشَّلَّه الارتباك. التفت الراعي إلى الناحية الأخرى وأعطاه ظهره في محاولة لإخفاء ضعفه والسيطرة على دموعه، ولكن منكبيه ظلَّا يتفضَّلان بعنف، ثم.. ثم قفز من جلسته وعائقه. أحسَّ أوداد بانقباض، ورأى فيما حدث إشارة لوداع أبيدي. وبالفعل جاءته أخباره بعد شهور فرويَ له الرعاة كيف تاه في متاهة «مساك ملت» وهو يبحث عن الجمال العنيفة التي كان يحاول أن يؤدبها بالعصا، فضاع هناك وافتَّرَسَه الظُّلُمُ. عرف منذ ذلك اليوم أن أولئك الذين يبدون للناس قساة صارمين يخفون في قلوبهم رأفَة ورحمة وحنانًا.

ولحظة الوداع هي التي كشفت له معدنه الخفي.

ولكنه ليس في حاجة لأن يكتشف قلب الدرويش. قلب الدرويش هو القلب الوحيد المكشوف في القبيلة، بل في الصحراء، الذي لا يستره لثام ولا يخفيه بدن ولا يحبسه قفص الصدر. وكعادة العجائز الحكيمات السابقات في فهم الروح البشرية فإنهنَّ أول من حَدَّد موقع قلبه من جسده عندما قلن: «قلب الدرويش على كفه». وأضفهن إلى الاكتشاف حكمَة أخرى قاسية فقلن: «ويَلَّ لَمَنْ وضع قلباً على كف». وقد أدرك الناس أن مأساة الدرويش ونزاعه مع الخلق نابعان من هذا السر، ولكن الدرويش نفسه هو الوحيد الذي لم يدرك، ولم يعرف. وربما أدرك وعرف

قبل الجميع ولكنها حمل العباء كقدر متَّزَلْ. لأنَّ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ لَا بَدَّ أَنْ يَحْمِلَ سَرَّاً أَخْرَى أَكْبَرَ مِنَ السَّرَّ الَّذِي يَعْرَفُهُ الْبَشَرُ. خَامِرَهُ دَائِمًاً إِحْسَاسٌ غَامِضٌ إِذَا طَبِيعَةُ مُوسَى. إِحْسَاسٌ تَحَوَّلُ مَعَ الْوَقْتِ إِلَى هَاجِسٍ، ثُمَّ إِلَى يقينٍ.

إِحْسَاسٌ يَقُولُ إِنَّ مُوسَى قَادِرٌ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْقَلْبِ وَالْإِقَامَةِ مَعَ النَّاسِ فِي أَبْدَانِهِمْ. وَلَا يَسْتَطِعُ أَنْ يَجْزِمَ عَمَّا إِذَا كَانَ مُوسَى يَمْارِسُ هَذَا السَّحْرَ مَعَ كُلِّ النَّاسِ أَمْ مَعَ أَصْدِقَائِهِ وَمَحْبِبِيهِ فَقَطْ.

جَرَبَ أَنَّهُ كُلَّمَا التَّقَاهُ فِي الْعَرَاءِ وَلَمْ يَكُنْ فِي حَالٍ يُسْمَحُ لَهُ بِأَنْ يَحَادِثَ أَحَدًا وَجَدَ الدَّرُوِيْشَ يَسْتَدِيرُ إِلَى الْوَرَاءِ أَوْ يَنْحَرِفُ يَمِينًاً وَيَتَظَاهِرُ أَنَّهُ لَمْ يَرِهِ. فَإِذَا التَّقَاهُ وَخَطَرَ لَهُ أَنْ يَنْهَى الْمَقَابِلَةَ وَجَدَ الدَّرُوِيْشَ يَسْبِقُ إِلَى الْاِسْتَشَانِ مَتَعَلِّلًا بِالْعَجْلَةِ لِإِنْجَازِ حَاجَةٍ لَا تَقْبِلُ الْأَجْلَ. وَإِذَا افْتَقَدَهُ شَوْقًاً أَوْ فِي مَوْقِفٍ وَجَدَهُ يُقْبِلُ عَلَيْكَ كَأَنَّهُ يَسْتَجِيبُ لِنَدَاءِ الْقَلْبِ الْخَفِيِّ. بَلْ إِنَّهُ يَحْضُرُ، عِنْدَ الْحَاجَةِ، حَتَّى إِذَا لَمْ تَهْتَفْ بِهِ . وَلَا يَسْتَطِعُ أَنْ يَنْسِي الْيَوْمَ الَّذِي اسْتَضَافَهُ أَمَّهُ وَدَعَتْهُ عَلَى غَدَاءٍ دَسَّتْ لَهُ فِي الْعَرَافَةِ الشَّفَقَةَ سَحْرًا يَرْوَضُهُ عَلَى الْبَقاءِ وَاسْتِرْمَاءِ حَيَاةِ السَّهْلِ. حَضَرَ مُوسَى فِي الْلَّهُظَةِ الَّتِي وُضِعَ فِيهَا أُولَى لَقَمَةَ مِنَ الْعَصِيدَةِ فِي فَمِهِ وَشَرَعَ يَلْوَكُهَا. هَمَسَ لَهُ بِالسَّرِّ فِي الْلَّهُظَةِ الْأُخِيرَةِ، قَبْلَ أَنْ يَبْلُوها. بَلْ إِنْ لَعَبَابًا مِنَ الْلَّقَمَةِ تَسْلُلَ إِلَى الْأَمْعَاءِ. فَانْكَفَأَ فِي الْزَّاوِيَةِ وَتَقَيَّاً. وَلَوْلَا تَدْخُلُ الدَّرُوِيْشَ لِمَا اسْتَطَاعَ الْيَوْمَ أَنْ يَقْفَ عَلَى ظَهَرِ الْجَبَلِ الْمُسْتَحِيلِ نَفْسَهُ وَيَتَحَدَّى أَعْتَى قَمَمِ الصَّحَرَاءِ الْكَبْرِيِّ كُلَّهَا. لَوْلَا مُوسَى لَعَشَ ذَلِيلًا فِي السَّهْلِ كَغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْعُمَيَاءِ الَّتِي تَرْفَضُ أَنْ تَرْفَعَ رَأْسَهَا إِلَى السَّمَاءِ خَوْفًا مِنَ الْضَّيَاءِ.

مَرَّةً أُخْرَى يَشْعُرُ تَجَاهَ الدَّرُوِيْشِ بِالْامْتَنَانِ. هَرَبَ مِنْ فَرَائِصِ الْحَزَنِ قَبْلَ اِنْقِشَاعِ غَبْشِ الْظَّلْمَةِ، فَحَرَرَهُ وَحَرَرَ نَفْسَهُ مِنْ وَدَاعٍ يَعْقِبُهُ سَقْمٌ طَوِيلٌ. وَتَرَوَى الْعَجَاجَزَ، عَنِ الْأَسْلَافِ الْحَكَمَاءِ، أَنَّ لِقَاءَ الْأَصْدِقَاءِ لَا بَدَّ أَنْ يَتَمَّ إِذَا لَمْ يَتَوَجَّ، عَنْدَ الْفَرَاقِ، بِعْنَاقِ الْوَدَاعِ.

في الطوق الطوفاني الأول سمع همهمة مبهمة.

نفع القبلي في السهل غباراً قبل أن يبلغ كهوف الحلقة الأولى المطلة على الأهالي فحجبت عنه الرؤية. واصل الزحف الحلزوني الدائري مع العشية فجاءت بهم مركبة عجاجية عابرة وأنزلتهم في السفوح. هدأت الريح فسمع همهمتهم الغامضة وهم يصعدون وراءه.

تعلق بنتوء بارز وركن إلى صخرة وانتظر. ابتعدت الجلبة. غابت الهمهمة. تفقد المكان خوفاً من أن تغدر به الحجارة. هزَّ النتوء الصخري العلوي بقوّةٍ كي يمتحن صلابته، ثم رفس الصخرة السفلية وقفز فوقها عدة مرات ليختبر فيها الثبات. اطمأن. تناول فطيرة من الجراب دون أن يتنزعه من منكبه. زحفت عتمة المساء الأول.

استمرت غلالة الغبار تحجب عنه السهل. بدأ يلوك الطعام. يمضغ حيناً وينتصت حيناً. اختفى أهل الجبل وتركوا خلفهم الوحشة والصمت. مسح يده الملوثة بدهن الفطيرة بجلد الجراب. فتح سدادة الزمزمية بيد واحدة ورفع رأسه ليرضع منها الماء. في تلك اللحظة ددم الجبل واهتزت الصخرة تحت قدميه. ضرب المكان زلزال فماد الجبل كلّه. اندلق الماء على صدره فضم الزمزمية إلى صدره إنقاذاً للسائل النفيس. لحظتها شاهد الجلمود الصخري وهو يدك مكمنه، ويعحطم التنوء الفوقي ويطير إلى أسفل. تدحرج طويلاً، واستجاب له الجبل بالزلزلة طويلاً. لم يجد ما يتعلّق به. كسر طرف الجلمود نتوء النجا وتركه معلقاً بين السماء والأرض. التصق بالجدار العمودي وتحرك، بعذر، ليدور حول اللوح الوعر من جهة اليسار. حبس أنفاسه وسقّع العرق. نزف كل الماء الذي شربه في يومين. احتاج أن يستفرغ أصابع اليدين والرجلين وأظافر اليدين والرجلين. استفرغ أسنانه أيضاً واستعن بها في التعلق بالتنوءات الصغيرة البارزة في الصلد. لا يعرف كم استغرق في هذا الزحف الوحشي. كل ما يعرفه أن الظلمة لفت

الجبل كله عندما اجتاز الفَخَّ ووصل إلى حدود الدائرة الجبلية الثانية. ويستطيع أن يستعيد الآن كما في الحلم، كما في الكتابوس، بعض ما حدث في هذه الرحلة الوحشية. أقصر رحلة وأشرس رحلة. تطاول كثيراً في الجبال وغدرت به الصخور دائمًا، وتدحرج مراراً من القمم. ووجد نفسه معلقاً فوق أفواه الهاويات أكثر من مرة، ولكنه لم يعش تجربة جبلية في قساوة تجربة اليوم. ربما لأنه فوجيء، ربما لأنه تعرض للزلزال لأول مرة. فماذا رأى في طريق جهاده في سبيل النجاة؟ سمع فحيحاً بشعاً فوق رأسه. فحيح أفعوان لم تعرفه الصحراء. أفعوان جاء من الأدغال أو نزل من السماء. نفح في رأسه حتى رففت زمالته وانحلت عقدتها، ولكنه لم يستطع أن يتبيّنه، ليس بسبب العتمة، ولكن بسبب رغبته في النجاة. فقد أدرك بالغريزة الحيوانية أنه سيهوي إلى الهاوية لو رفع رأسه إلى أعلى، لو رفع بصره إلى أعلى، فداس على قلبه وصمد في وجه الفحيح، في وجه الأفعوان. ثم . . ثم نعبت بومة مسؤومة نعياً قبيحاً، وخَيَّل له أنه غاب عن الوعي زماناً وهو يتثبت بالجدار الأميس ويكافح في سبيل النجاة. وعندما اقترب من نهاية الجدار الوعر سمعهم، مرة أخرى، يهمهمون بالفاظ غير واضحة ويتشاورون بالرطانات. انطرح على الحجارة الحَرَازَةَ وحاول أن ينسى : أن يغيب، أن يغفو. ولكن الحجارة التي انتزعاها الزلزال استمرت تقاطر عبر السفح، وتتدحرج وراء الجلمود الصخري الرهيب.

(٨)

أغفى .

استيقظ على ليلة ضحىاء انساب فيها قمر خجول في الفضاء. اكتشف أن أطرافه كلها ملوثة بالدم. اليدان والرجلان والساقان والفم. الآن أحس بالمرارة وأدرك أن لثة أسنانه تترنّف دمًا. تفقد رأسه وتحسّس الكدمات بطرف الزَّمَالَةَ . الرأس لم يتزف ولكنه مغطى كله بكرات مختلفة الأحجام من الكدمات. الحجارة التي اقتفت الانهيار وتتابعت الجلمود هي التي أصابت الرأس وزرعته بالخدمات. جسمه منهك والمفاصل كأنها قطعت

بسخين. بلّ طرف الزمالة بيضع قطرات من الماء وانحنى على الساق. مرّ عليها القماش المبلول عندها استولى عليه الشعور الخفي. الشعور الغامض نفسه الذي خامره لـما سمع الهميمة التي سبقت الزلزلة. رفع رأسه فالتفت نظره بالضيف المهيب. رأسه متوج بقرين جليلين، معقوفين إلى الوراء، كثرون التيوس. تدلّى من خطمه لحية مخروطة كلحية التيوس أيضاً. نصفه الأمامي ممتليء، مرفوع في كبراء، في حين يبدو نصفه الآخر ضامراً، هزيلاً، كجسم غزال رملي. لمعت عيناه، تحت ضياء القمر، بوميض ذكي، خفي، حزين.

وقف على بعد خطوتين فقط، وحدّق فيه بفضول مخلوق بشري. تأمله أوداد فرأى في مقلتيه اللامعتين المبللتين دموعاً سرية، لغة سرية. وجد نفسه ينطق بلا إرادة:

ـ من أنت؟

ـ لم يبذل الودان وقوته. ضيق جفونه قليلاً كأنه يبذل جهداً ويفكر في الرّد.

ـ نَزَّت الدموع وتعلّقت بأهادبه الطويلة كأنها رموش حسناً. نَكَّس رأسه بخفيٍّ بغير إرادة أوداد إلى الاستجواب:

ـ هل أنت هو المسكون؟ هل أنت الودان المحرّم؟ قلْ لي بالسر.

ـ رفع رأسه نحو اللوح البعيد المعلق في القمة ثم عاد يلتف حوله بهدوء الحكماء والمعمّرين.

ـ داعبه أوداد:

ـ ماذا أردت أن تقول لي؟ هل أردت أن تسرّ لي بشيء؟ هل أنت رسول؟

ـ اقترب خطوة. وقف الآن فوق رأسه بقامته الجليلة، المكابرة حتى شم رائحته. الرائحة التي تغزو أنف كلّ منْ وقف في فم كهف من كهوف

تادرارت. رفع ساقه اليمنى وحفر الأرض المكسوّة بالحجارة الشرسة.

قال أوداد:

- هل رأيت ما حدث لي؟

ثم أضاف بحماس:

- قُلْ لَهُمْ إِنِّي لَمْ آتِ لِنَبْشِ الْقُبُورِ أَوْ نَهَبِ الْكَنْزَاتِ. جَئْتُ لِغَرْضٍ يَتَعَلَّقُ بِالرَّهَانِ. هَلْ يَعْلَمُونَ بِأَمْرِ الرَّهَانِ؟ أَخْبِرْهُمْ أَنْ يَكْفُوا عَنْ زَلْزَلَةِ الْجَبَلِ وَإِرْهَابِيِّ بِالْحَيَّاتِ وَالْبَوْمِ!

نَبَشَ الرَّزَائِرَ الْأَرْضَ بِحَافِرَهُ مَرَّةً أُخْرَى. اسْتَعْدَادُ أَوْدَادُ ذَكْرِيَّاتِ عَشْرَتِهِ الطَّوِيلَةِ لِهَذِهِ الْقَبْيلَةِ النَّبِيلَةِ فَهَتَّفَ:

- أَنْتَ تَرِيدُ أَنْ تُخْبِرَنِي بِالسَّرِّ. أَنْتَ تَرِيدُ أَنْ.. مَاذَا؟ مَاذَا قُلْتَ؟ أَعْدَّ مَا قُلْتَ..

رَمَقَهُ الْحَيَّانُ الْمَهِيبُ بِبَنْظَرَةٍ سَرِيعَةٍ. تَحْرَكَ وَصَعَدَ الصَّخْرَ الْعَلِيَّا. رَأَهُ يَنْتَصِبُ فَوْقَ رَأْسِ حَجْرِيٍّ وَيَرْاقِبُهُ مِنْ هَنَاكَ. لَمَعْ شَعْرُهُ الْأَشْعَتُ، الْفَضْيَّ، فِي ضُوءِ الْقَمَرِ قَبْلَ أَنْ يَقْفَزَ وَيَخْتَفِي بَيْنَ الصَّخْرَاتِ، وَرَاءَ الظَّلَالِ.

(٩)

فِي عَشِيهِ الْيَوْمِ الْثَالِثِ بَدَأَ صَعْدَدُ الْلَوْحِ الْمَكَابِرِ.

بِالْأَمْسِ، عَنْدَمَا حَلَّ فِي الْعَنْقِ الْأَخِيرِ، انتَهَى عَلَاقَتِهِ بِالسَّهْلِ وَغَابَتِ الْأَرْضُ. غَابَتْ حَتَّى سَفُوحِ الْجَبَلِ السَّفَلِيَّةِ وَبِدَأَ الطَّرِيقُ الْمَفْتُوحُ إِلَى السَّمَاءِ وَحْدَهَا. اشْتَدَّتِ الْغَلَالَةُ الْأَبْدِيَّةُ الَّتِي تَلْفُ الْقَمَةَ الْعَلِيَّا وَحَجَبَتِ الرَّؤْيَا إِلَى الدُّنْيَا السَّفَلِيَّةِ. اخْتَفَتِ سَلِسَلَةُ «أَكُوكَاس» وَقَمَمُ الْقَرَى الْمَغْدُورِ وَهَرَبَتْ حَتَّى الصَّحْرَاءِ. لَمْ يَتَوَقَّعْ يَوْمًا أَنْ يَكُونَ اِيْدِيَّانَ بِهَذَا السَّمْوُقِ. أَدْهَشَهُ أَنْ قَامَتِهِ، مِنَ الْأَرْضِ، لَا تَبَدُّلُ خَرَافِيَّةَ وَمَسْتَحِيلَةَ إِلَى هَذَا الْحَدَّ. وَلَكِنَ السَّرِّ

في لشام الغبار الكثيف الذي تحرص السماء أن تلفّ به رأس الجبل فاستعاره منها أهل الصحراء واتخذوه قناعاً وحجاباً.

توقفت آثار المخلوقات أيضاً عند هذا الحدّ. في الشقوق عثر على بقايا أعشاش الصقور التي تبعثرها الرياح واقتسمت الشمس مع الزمان أكلها وإيادتها. على صدور الكهوف خطّ الأسلاف رموز التيفيناغ ووسموا جدران الصندل بالمخيططات والنقوش التي علتها طبقة من التراب والصلصال. في فوهة صغيرة لأحد الكهوف وجد نقشاً بديعاً لرأس ودان حجّته طبقة الصلصال. تناول حجراً وشرع يচقل به الصندل. تفتت الصلصال وتحوّل إلى رغام تطاير في الهواء. ويدو أن لسان الطوفان هو الذي ختم على النّقش بالطين. تابع الخطوط الحمراء المحفورة في الصخر حتى وجد أمامه قامة جليلة لودان مارد مرفوع الصدر، ضامر الجسم، أشعث، مكمل بالشعر الأشيب. على رأسه صرح من قرنين معقوفين، وفي الأسفل تتدلى لحية مخروطة.

يا ربّي ! إنه .. هو. نفس الودان الخفي الذي زاره بعد محنّة الزلزلة. نفس التفاصيل. نفس الهيئة الممهية. بل نفس النّظره الحزينة، الغامضة. تحت حافره الأيمن حُفِرت حروف التيفيناغ بلون أسود داكن. حاول أن يتهجّجى . وجد أن جزءاً من الحروف يختفي تحت الطبقة الصلصالية فتناول الحجر وعاد يجلو الصخرة. فلّ الرموز. فرأى الرسالة القديمة. وصبة الأسلاف. قال له الأسلاف في الوصية: «قفْ واسمع: مَنْ نزل إلى أسفل يصعد، ومن صعد إلى فوق ينزل». أعاد القراءة مرتين. ثلث مرات. ابتسם. نفس لغة الرسائل المحفورة على صخور تادرارت. اللغة الغامضة، الموحية، التي تنطق بالوصية في جملة لتخفيها بالجملة التالية. اللغة اللعوب، الموارية، التي تلعب بالمجاز وتلوّح بالرموز في الهواء. الأسلاف يتقنون هذه اللعبة. يستعملون اللغة نفسها عندما يضعون خرائط الآبار والكنوز. وإذا لم يكن القارئ ذكيّاً حاذقاً، حكيمًا، فإنه سيموت بالظلمأ

وهو يتوسّد فم البئر. إذا أردت أن تقرأ لغة الأجداد فلا بدّ أن تكون يقطّاً. هذا ما تعلّمه في الواح تادرارت.

وها هم يستعملون هنا نفس الحيلة. قفْ واسمع. مَنْ نَزَلَ إِلَى أَسْفَلِ يَصْعُدُ، وَمَنْ صَعَدَ إِلَى فَوْقِ يَنْزَلُ. فَمَا مَعْنَى الإِشَارَةِ؟ فَكُّ رَمْزُ الْكِتَابَةِ وَالْحُرُوفِ وَعَلَيْهِ أَنْ يَفْكُّ رُمُوزَ الْلُّغَةِ. فَكُّ طَلْسِمِ جُمْلِ الْأَسْلَافِ يَحْتَاجُ إِلَى وَقْتٍ أَطْوَلُ بِكَثِيرٍ مِّنَ التَّهْجِيِّ وَفَكَّ سَرِّ الْحَرْفِ.

لا ينكر أنهم دهاء في صنع الحكمة ووضعها في الجُمل الطفولية. نعم. قرأ جملًا كثيرة بدت له ساذجة وطفولية، وعندما عرضها على الرعاة الحكماء دلّوه فيها على حِكْمَ صحراوية أنفس من الكنوز. بل إن الحكماء في الصحراء لا يبحثون في الكهوف عن خرائط الذهب ولكنهم يقطعون أبعد المسافات في الكهوف بحثًا عن خرائط الحكمة والحياة. وعلّمه أحد الرعاة أن إهمال عبارة لمجرد أنها خفية أو طفولية حماقة قد يدفع حياته ثمناً لها، وبالعكس، إذا أُولئِي العبرة اهتماماً أنقذ حياته واهتدى إلى فم البئر.

فما الذي أرادوا أن يومنوا إليه بالإشارة؟ ماذا أرادوا أن يخبروا على لسان الجد الحكيم، الودان الأزلي المُحرّم؟ ما سر اللّعبة اللفظية؟ هل يعنيون أن مَنْ يَنْزَلَ إِلَى أَسْفَلِ يَنْجُو بِالسَّهْلِ، وَمَنْ يَصْعُدَ إِلَى أَعْلَى يَضْيِعُ بِالقَمَةِ؟ هل في الصعود هبوط إلى هاوية الظلمات؟ إلى نفق الليل؟ نعم. أكثر ما يرافق للأجداد هو لعنة الأصداد اللفظية. الإشارة للمعنى بعكسه. مارسوا هذا التّجفّير في الأبجدية، في التّيفياغ، كي يقطّعوا طريق الفهم والتفسير على الأغراض والهواة. درّبوا الرعاة كثيراً على قراءة الأبجدية المشفّرة، وقالوا إنها ضرورية للاهتداء إلى أنفوا الآبار وطرق النّجا. وبحسب الحيلة التي تعلّمها منهم فإن الوصيّة المنحوتة عند اعتاب الودان تصبح. «مَنْ نَزَلَ إِلَى أَسْفَلِ لَمْ يَصْعُدْ، وَمَنْ صَعَدَ إِلَى فَوْقِ لَمْ يَنْزَلْ».

هذه هي القراءة المعاكسة للرمز. التفسير الصحيح للإشارة. ولكن ما دور الودان هنا؟ لماذا حفروا الوصيّة بجوار حافر الجد المهيّب؟ هل في هذا إشارة أخرى؟ هل هذا رمز آخر؟

الرعاة قالوا له إن الأسلف لم يخلفوا أثراً واحداً بلا هدف. لم يدونوا على الحجارة رمزاً واحداً بدون نبوءة.

(١٠)

بلغ المتتصف. وجد نفسه مغموراً بلفافة الغمام الأبديّة. التصق بالصلد العمودي المكابر والتقط الأنفاس. غلالة الرغام تحجب الرؤية لأبعد من أربعة أذرع. تثبت بالندوب والتنوّعات على جلد الصلد والتفت إلى أسفل ليقدّر المسافة التي قطعها. وجد أن لفافة الغمام طوّقت الصرح وسترت العنق الأخير الذي لحسّه مياه الطوفان الأوّل. الحلقة الثانية هي الحدّ الأخير الذي بلغته المخلوقات الأرضية. الحدّ الأخير للحياة. بعدها يبدأ بربّخ الأبديّة. البرّخ الذي يقود إلى السماوات. هو الآن في البرّخ. في الحدّ العنيد، القاسي، الوحشي، الذي يشرف على الفلاح والحرية. ولكنه لا يستطيع أن يهنيء نفسه بالفوز ما لم يصل إلى القمة نفسها، إلى نهاية البرّخ وبداية النعيم والسكنية. وهو لم يظنّ قط، طوال مشاهدته لهذه الصومعة الإلهيّة، أنها بعيدة، وسامقة إلى هذا الحدّ. كما لم يقدّر وعورتها وسماحة سطحها إلى هذا الحدّ. قضى يوماً كاملاً وهو يزحف على صلد أبيض، باهت، تعلو طبقة من الصلصال الشاحب الذي يميل في لونه إلى الأصفرار. حجر نادر بلون نادر لم يشهد له مثيلاً في جبال الصحراء. وأثبت ما في الأمر أنه لم يجد ما يتعلّق به في صعوده سوى الطبقة الصلصالية. ولكن الطبقة، في أكثر الأمكنة، تأكلت بالزمن والشمس والريح، وأصبحت هشّة، آيلة للسقوط. خذلته مراراً وكاد يهوي لولا الاستنفار. الاستنفار في أعضاء البدن كله، من قمة الرأس حتى أخمص القدم. بل الاستنفار في الأظافر، أظافر اليد وأظافر القدم. حَوْلَ الأظافر إلى مخالب بارزة تثبت بمسام الحجر الأملس، الغادر. ساعده استنفار الحواس في أن يلتصق باللوح، يتحد بالحجر، يعانق الصخر، يداعبه، يقلّبه، يعشّقه بحرارة كامرأة.

عانق جسد الحجر بحسده كله. عانقه بكل أعضاء الجسد، باليدين

والرجلين ، والصدر والبطن ، والشفة والركبتين ، و .. بالأظافر أيضاً . زحف وهو في عنق محموم مع الحجر . تتابعت أنفاسه ، ارتفعت حرارته . أخذ يلهث . حواسه تذوب في حواس اللوح . تذوب في أحضان الحجر ، تندب في المعشوق ، بالحجر السماوي المستحيل . يقترب من الفردوس . تدب في الأعضاء نشوة . يسري الخدر . نشوة لم يعرفها من قبل ، خدر لم يذق له طعمًا من قبل . هذا هو النعيم . هذا هو الممتهن . ما أمتعم السفر إلى السماء ! ما أللذ الرحلة إلى الأصل ! يا تُرى هل يُقارن هذا النعيم بأحضان امرأة ؟ هل توازي هذه الشعائر عشق تينيري ؟ تينيري ! أين أنت يا تينيري الآن ؟ هوى .. فجأة تخلّى عنه الحجر السماوي ورماه في الجب ممسكاً بقطعة صلصال . أمسك بالطرف الثنائي . امتحنه وهزه مرتين قبل أن يتزحزح ويحرّك قدميه عبر الجسد المحموم . جسد الحجر المحموم . زحف ملتصقاً بيدن المعشوق ، انسلاخت قطعة الصلصال عن بدن الحجر العاشق وهوت بالمشوق . طار إلى أسفل . لحظة ، لحظات . و .. وجد نفسه يمسك بتبوء صلب ، في موقع آخر ، مجهول ، من الصومعة السماوية . يمسك بطرف بارز . حجر منصوب ، حطبة معقوفة ، خطاف إلهي يشده ويُسنده إلى الجدار الصخري . وجود الجدار يعني أنه لم يقطع مسافة طويلة عندما هوى . لم يسقط إلى الطوق . ارتجف ، أطراقه كلها تصطفق . اطراقه تحرق بالحرارة . ولا يعرف عما إذا كانت حرارة الانفعال أم الشمس أم حرارة التزييف الدموي . استمرّ يتثبت بالخطاف المدهش . فتح عينيه . ازدادت لفافة الغمام كثافة . هل هي ظلمة الليل ؟ أو هي ريح القبلي ؟ أو موجة جديدة من الرغام الأبدي ؟ تحسس الصلد . لم يكن صلداً . جسم لميس مغطى بشيء كالشعر . مرر يده مرة أخرى . شعر . فتح عينيه مرة أخرى . حدق في العتمة . كان يتذلّى ممسكاً بقرنى الودان المعقوفين المكابرين .

(١١)

تحرّك الملّاك ، المنقذ الذي خلّصه من الهلاك . جرّه على الحجر القاسي . ازدادت أطراقه تمزقاً . جرّه مسافة طويلة على الصلد العمودي

العنيد. الصلد الذي كان، في العناق، حميمًا، رحيمًا، عاشقًا، أصبح الآن شرساً، وحشياً، قاسياً. فما سبب هذا التحول؟ ما سبب الجفاء؟ ما سبب الخصومة؟

توقف المخلص. فتح عينيه. وجد نفسه ملقى فوق القمة. رأسه مغطى بالسماء وتحت قدميه ترکع الدنيا، ترکع الصحراء. في البعد ركعت الشمس أيضاً، وانهمكت تقبّل التراب تحت قدميه. نشرت في الأفق نوراً قانياً.

أما السهل فقد احتجب بالغمامة الأبدية. فوجد أنه لن يستطيع، من هنا، أن يشاهد إلا امتداد الصحراء. الصحراء وحدها. الصحراء دائمًا، إلى الأبد.

بدأ الدم يبرد، في عروقه فاشتَّد الحريق. البدن ملوث كله بالدم، وممزق بالجروح والخدوش والخدمات. زمزمية الدرويش فقدها في السقطة الأخيرة. رفع بصره. وجد أن الودان المهيب ما زال واقفًا فوق رأسه يراقب الأفق، حيث تؤدي الشمس صلاتها اليومية.

خاطبه أوداد:

ـ خبّرنِي يا أمغار^(*): ماذا حدث؟ حدثي عن كل شيء. ولكن أمغار لم يتتبه: ظلَّ مأخوذاً بالأفق الملْفُع بالغلالة القانية. كأنه يشارك الشمس صلاتها وعباداتها.

عاد أوداد يسأل بإلحاح طفولي:

ـ أمغار! خبّرنِي. لا بدَّ أن تخبرني عن كل شيء. أريد أن أعرف.. أراد أن يكمل: «... السر». ولكن أمغار المهيب أسكنه بنظره مفاجئة، استكاريّة، متهرة. ثم ضيق عينيه، ونزلت حواجبه فرأى على رموش عينيه

(*) أمغار: العجوز، الشيخ، الأب، الجد، كبير القوم (تماهق).

قطرات الدموع . أدى نفس الطقوس الخفية التي مارسها في لقائهما الأول فوق كهف الأفعوان . ثم . . ثم قفز وغاب في غمامه الرغام .

(١٢)

عرف سر ما حدث . عرف سر السقطة . قضى الليل كله ، يستلقي على ففاه ، فوق رأس اللوح السماوي ، يرصد النجوم ، ويفكر في المعجزة ، في التخلّي ، انسلاخ الصلصال ، في السقوط . و . . في الخلاص .

تذكر أن الحجر تخلى عنه ودفعه في اللحظة التي أشرك به تييري . رفضه عندما أدخل المرأة إلى قلبه . كفر بالعناق ، بالعشق ، وسلم قلبه إلى السهل ، إلى المخلوقة التي تسكن السهل . أراده الحجر الغيور حاضراً بقلبه ، لا غائباً مأحوذًا . حذرته الدرويش كثيراً من رهن القلب لطرفين . قال إنه لن يفلح إذا ورّع قلبه بين كائنين .

توزيع القلب هو الكفر . القلب المشطور قلب فارغ . القلب المشطور لا يصلح قرباناً . الآلهة تحرم التعامل بالقلب المشطور . القلب المشطور يجلب النحس . ولو لا تدخل الودان العظيم ، لولا شفاعة الجد الأول ، أمغار الغامض ، لاقتسمت الحجارة النهمة لحمه قبل أن يبلغ قمة الفردوس . تذكر عبارة الأسلاف الطفولية : «قفْ واسمع . منْ نزل إلى أسفل يصعد ، ومنْ صعد إلى فوق ينزل» عاد يقلبها رأساً على عقب : «قفْ واسمع . منْ نزل إلى أسفل لم يصعد ، ومنْ صعد إلى فوق لم ينزل» . لم يخط الأجداد الرموز بجوار الودان العظيم عبثاً . لا بد أن يجد الخيط السري بين العبارات المقبولة وبين أمغار المخلص .

قرر أن يتفقد الموقع السماوي في الصبح . وفي الصباح سيبحث عن فم الظلمات المجهول .

تأخر القمر . تألقت عراجين النجوم . أحس بلفافة الجبل فرشة سحرية وثيرة تسبح به في الفضاء . تطير به نحو النجوم . اقترب من النجوم الخفية ،

اقربت من فراشه النجوم . كبرت وأصبحت في حجم الأقمار . تدلّت فوق رأسه بعراجinya الوضيئه . همست في أذنه باللغة السرّية . داعبه النعاس .
أغفى على فرشة الغمام . تغطّى بدثار مطرّز من كواكب المستحيل .

٧. الوعاء

« حين ينخفض صوت المطحنة ويقوم لصوت العصفور وتحط كل بنات الغناء. وأيضاً يخافون من العالي وفي الطريق أهواه واللوز يزهر والجندب يستقل والشهوة تبطل. لأن الإنسان ذاهب إلى بيته الأبدى والنادبون يطوفون في السوق. قبل ما ينفصم جبل الفضة أو ينسحق كوز الذهب أو تنكسر الجرة على العين أو تنقصف البكرة عند البئر. فيرجع التراب إلى الأرض كما كان وترجع الروح إلى الله الذي أعطاها. باطل الأباطيل، قال الجامعية، الكل باطل».

العهد القديم - سفر الجامعية - الإصلاح «١٢»

(١)

- صعد. صعد. صعد!

تناقل السهل البشارة، وتبادلوا الخبر بكلمة سر: «صعد الجنَّى إلى بلاد الجنَّ». .

نقلوا البشارة إلى «تامغارات» فدَسَّت رأسها في حجرها وبكت. أخبروا الدرويش فهرب مرة أخرى إلى وادي الطلح. زفوا البشري لـ«تافاوت» كي تباهمي بزوجها فابتسمت بدهاء أنشوي غامض. تابع المبشرون رحلتهم. خرجنوا من النَّجْع ودخلوا بالخبر إلى أزقة «واو» المعتمة دوماً. همسوا بالانتصار في أذنها كأنهم يسرُّون لها بتميمة آيرية. رقصت بعنجه آيرى أيضاً وتوجَّت النصر بزغاريد الابتهاج. فسمع السهل زغرودة من حنجرة الأميرة لأول مرة. في العَرَاء الواقع بين «واو» وبقايا النَّجْع وقف شبح منفوش بلباس الزرقة، يراقب المبشرين والفضوليين في وجوم المعمَّرين. انكسر سلطان الشمس وهوت نحو الغروب. بدأت شعائر السكون التي تسبق الاحتفاض.

أقبل آخِمَاد. وقف بجواره. تَقَلَّا في العَرَاء الشمالي. ابتعدا عن أهل الباطل وتُوَغَّلا في السكون. لاحظ آخِمَاد كيف استرق أوخا نظرات خاطفة نحو القمة السماوية الملفوفة في لشام الغمام، ولكن لم يجرؤ أي منهما أن يجرح حَرَم الصمت بكلمة. وحتى عندما اجتمعا وجلسا، في الفلاة، متقابلين ونبش آخِمَاد الحدث بـ«صعد» فإن أوخا، بدل أن يعلق، قفز إلى الميعاد وطلب من آخِمَاد أن يخبر الفتيان والفتيات ويعُدُّ للعيد. تابعه آخِمَاد

بحزن ثم قال في انكسار:

- خَذَلَنَا الْإِمَامُ وَضَحَّكَ عَلَيْنَا وَهُوَ فِي قَبْرِهِ. لَا سُرُّ فِي صَدْرِ الْأَئمَّةِ.
آمِنْتُ الْآنَ.
لَمْ يَرِدْ أُوخَا. فَعَادَ آخَمَادَ:

- يُجَدِّرُ أَنْ تَنْحِرَ نَذْرًا. أَنْتَ لَمْ تُعْطِهِ الْكَرَاءِ. لَوْ نَحْرَتْ لَهُ نَاقَةٌ لَمَا تَرَكَ
الْجَنِّيُّ يَصْعُدُ. لِمَاذَا لَمْ تَنْحِرْ ضَحْيَةً؟ الْوَعْدُ لِيُسْ مَرْحَةُ. الْوَعْدُ دَيْنٌ فِي
الرَّقْبَةِ، وَنَذْرُ الْأَمْوَاتِ نَذْرُ اللَّهِ.
لَمْ يَعْلُقْ أُوخَا. عَادَ، بَعْدَ قَلِيلٍ، يَتَحَدَّثُ عَنِ الْمَيَعَادِ.

(٢)

فَاضَ الْعَرَاءُ بِعَشَاقِ الْطَّرْبِ وَأَهْلِ الْمَيَعَادِ. جَاءُوا مِنَ الْقَبِيلَةِ وَمِنْ «وَوْ»
وَمِنَ الْقَوَافِلِ الْعَابِرَةِ.

تَحَلَّقُتِ النِّسَاءُ وَتَحَلَّقُتِ حَوْلَهُنَّ الرِّجَالُ. فِي الْأَفْقِ، وَرَاءِ الْجَبَالِ، لَأَخَّ
الْقَبَسُ الْقَمْرِيُّ الْبَكْرِ. نَاحَ الْوَتَرُ الْوَحِيدُ. اسْتَجَابَتْ لَهُ الْحَنَاجِرُ بِآهَاتِ
الْإِنْتِشَاءِ وَصِيحَاتِ الْوَجْدِ. امْتَدَّتِ الْأَنَامِلُ الرِّقِيقَةُ الْمُخْضَبَةُ بِالْحَنَاءِ، الْمَزِينَةُ
بِخَوَاتِمٍ صَيْغَتْ مِنْ مَعْدَنِ الْأَقْمَارِ، وَقَرَعَتِ طَبُولُ الْفَرْحِ وَالْأَشْجَانِ.

أَقْبَلَ الصَّدِيقَانِ وَوَقَفَا بَعِيدًا. ضَاعَتْ ثِيَابُهُمَا الْإِحْتِفَالِيَّةُ الْزَرْقَاءُ مِنْ
غَمْوضِهِمَا وَجَلَالِهِمَا. أَنْسَفَ الْوَقَارُ أَيْضًا عَلَيْهِمَا هِيَةً الْأَنْصَابِ الصَّحْرَاوِيَّةِ
أَوِ الْأَشْبَاحِ الْلَّيلِيَّةِ. لَاَذَا بِالصَّبْرِ وَالصَّمْتِ وَالْإِنْتَظَارِ. وَسَلَّمَا نَفْسِيهِمَا لِسَلَطَانِ
النَّعْمَ. قَطَّعَا الصَّحْرَاءَ الْعَظِيمَ كُلَّهَا رَاقِصِينِ، هَائِمِينِ، فِي تِلْكَ الْوَقْفَةِ
الْفَقِيرَةِ. أَقْبَلَتِ الْأُمَّرِيَّةُ بِحَاشِيَتِهَا وَانْضَمَّتْ لِحَلْقَةِ النِّسَاءِ.

رَقَصَ قَلْبُ أُوخَا وَأَفْلَتْ مِنَ الْقَفْصِ. مَا لَنْحُو رَفِيقُهُ. تَقَارَبَتِ عَمَامَتَاهُمَا
حَتَّى تَنَاطَحْتَا. دَبَّتِ الْحَيَاةُ فِي الصَّنْمِ. تَحْرُكَ الشَّبَعُ وَانْفَصَلَ عَنْ قَرِينِهِ
الْجَلِيلِ. انْضَمَّ إِلَى صَفَّ الرِّجَالِ.

اَخْتَلَ بَصِيَ حَاسِرُ الرَّأْسِ عَلَى اَنْفَرَادٍ. اَنْطَلَقَ الصَّبِيُّ وَدَخَلَ حَلْقَةَ
النِّسَاءِ. رَفَعَ الْقَمْرَ رَأْسَهُ وَبَرَزَ مِنْ شَعْفَةِ الْجَبَلِ. سَكَبَ ضَيَاءَ خَجْلًا،
بَاهْتًا، فِي الْعَرَاءِ.

أخيراً خرجت الأميرة.
خرجت من الحلقة وحيدة، بدون حاشية. لم تبعها جارية واحدة.
تنحى طابور الرجال وأفسحوا لها الطريق. عَبرت مساحة الميعاد. تحرك
الجسم الآخر واعتراضها.

تحركاً معاً، متجاورين، صامتين، وقطعوا مسافة طويلة تفضي إلى بيداء
الشمال. ازداد ضياء القمر وضوحاً وجراً. تحرر الوجه الحنون، المستدير،
من قيود الخجل ومزق غلالة الميلاد والبكارة.

قالت أخيراً:

- إذا طلع القدر بنقاب الخجل والغبار فهذه بشارة بالقبلي جداً وإشارة
لأنباء أخرى. هكذا يقول العرافون في آير.

- وعِرافونا الرعاة يقولون إن القبلي من السهل لن ينقطع ما ظلَّ أهله
يتداولون الذهب. أما الأنباء الأخرى فلم تتوقف أيضاً منذ حُولت الصحراء
الوسطى إلى سوق لمساومات التجار.

أصابها الاستفزاز بالجرح فتوَّلت الدفاع عن «واو»:

- كانت أرضاً ميتة فبعثناها بـ «واو» ففتحناها بالتجارة ووهبنا لها الحياة.

- كانت بكرًا فاستبحموها بالتجارة. لا يستبيح الأعراض شيء كما
تستبيحها التجارة.

- في التجارة سر الحياة. التجارة تبادل، والتبادل هو الحياة. هل تنكر
أن التبادل هو الحياة؟

- وهل يجرؤ مخلوق أن ينفي سر الكائنات؟ هل يجسر الإنسان العاجز،
الذى جاء من المجهول بالتبادل نفسه، أن يطعن في السر الإلهي؟ ولكن لا
تنسى أن الفرق بين التبادل البشري والتبادل الإلهي كالفارق بين المخلوق
والخالق.

- لم يبق للمخلوق إلا أن يحاكي الخالق. لم يجد بدأً من أن يفعل ذلك
منذ طرده الجبار من ملوكته ونزل به إلى الحضيض. والجبار هو أول منْ

وضع العهد في رقبة كوز الطين عندما دفعه إلى المنفى. قيل إنه قال له في الوعد أنه سيبارك خطواته ولن يتخلّى عنه طالما احتفظ المخلوق بالوصية واستمرّ في ممارسة المحاكاة. في المحاكاة عشق للجبار وسرّ تعلق كوز الطين بالأصل، بالملوك السماوي. لولا المحاكاة لما نصّبه خليفة له في الصحراء.

- هذا تفسير أقرب إلى تجذيف المجنوس. هذه نصوص مدرسية من دين المجنوس.

- إذا عجز أهل آزرجر في موقف الفقه رجمونا بنصوص المجنوس. كان القرآن لم يورد النص الخاص بجعل الإنسان خليفة لله في الأرض.

- هنا تقع حيل المجنوس. يعتمدون نصاً قرآنياً ثم يدخلون به الأدغال. وإذا دخل النص القرآني إلى مجاهل الأدغال خرج من هناك بقناع آخر. بقناع الزنوج والمجنوس.

- الرجم بالمجوسية سلاح العجزة.

- أعترف أني لست فقيهاً في دين المسلمين، ولكني أستطيع أن أقول إن المخلوق الزنديق حرف الوصية بمجرد أن هبط إلى الصحراء. خان الوصية. فإذا كانت المحاكاة هي شهادة تعلقه بالأصل السماوي فإنه زيفها عندما سمح لغول الجشع أن يقوده في التبادل ليتخد من الذهب عملة للتعامل بدل الحب. علمتنا الصحراء أن الإنسان لا يحتاج إلا إلى الحب إذا أراد أن يخلد الذكر والنوع. وهي، هذه العجوز الحكيمية التي نسميها صحراء، ترينا كل يوم كيف تستمر الحياة بالتسخير السماوي وحده. يعم الجدب فتشكوا الكائنات. تستجيب السماء وتجمّع السحب لتعشق بها الأرض. تستيقظ البذور ويعيَا النبات. يزهر الرّتّم وتتلقّل الأرض بكنوز الترّفاس. تتغذّى الغزلان واللّوّادن ويتوالد الطير. تهرع الرياح وتتطير بزهور اللقاح وتعممها في كلِّ مكان. تتلقّفها الأشجار الظّماء للحب وتصنّع منها الحياة. الحياة التي حثنا رب السماء والصحراء على محاكاتها. فهل

نخسر شيئاً لو اكتفينا بهذه المحاكاة ورجعنا عن التبادل الشيطاني الذي تحدثين عنه؟ هل تتأثر الحياة إذا توقفنا عن تداول النحاس وتخلينا عن تبادل الأوزار والمتاع؟ أستطيع أن أراهن أن الله جعل الخلافة الأرضية للمخلوق الذي يكتفي بالمحاكاة الأولى، المحاكاة التي تجعل الحياة تستمر بتبادل المحبة، لا للمخلوق الشيطاني الذي يسهر آناء الليل وأطراف النهار لإنجاز صفقة تجارية.

- أراهن أيضاً أنك لن تكتفي بالمحبة إذا عرفت أنك زائل. إذا عرفت أن الدموع ستختفي إلى الأبد بالموت. لن تخفي فقط ولكن ذكرك أيضاً سيختفي. نسلك. أثرك. كأنك لم تكن. كأنك لم توجد. وهذا اليوم الكثيف آتٍ في القريب. تراه يقترب كل صباح. تذهب إلى المقابر فيخبرك الرميم أن هذه العظام كانت بالأمس فقط مخلوقات تدب وتحب وتحلم بعده أجمل. كلها تحلم بعده أبل. كلها ترى السعادة في الغد. ولا تعلم أن الغد لا يحمل إلا الفناء. إلا الزوال. إلا العدم والغبار. الغد يحمل هجعة أبدية تحت ذرات التراب. التراب المتواوش هو الغد. فإذا كان هذا هو المصير، إذا كان المطاف يقود إلى التراب فلماذا تضيّ على المخلوق البائس أن يتمتع بخير يومه؟ لماذا تستنكر عليه أن يفرق في مضاربات الأسواق ويحوز الطعام والزيت واللحوم؟ لماذا تبخل عليه بجمع المال وتكتدیس الذهب إذا كان ذلك يلهي عن الوهم وينسيه عن التفكير في وحش الغد؟ أليس النسيان أنفع من أحلام يأكلها منه التراب والعدم؟

أفلت أوخا بالغضب:

- هذه هي روح المجوس التي أنكرتها منذ قليل. هل تنكرين أن هذا لا يمت إلى روح المجوس؟ أنا أفهم الآن لماذا تركتني معلقاً طوال هذه السنوات. فهمت الآن سر ترددك القاتل. أنت لا تحبين أحداً لأنك تريدين أن تحبي كل الرجال. أنت لن تفهمي سر المحبة، سر التبادل الإلهي، لأنك تريدين أن تستولي على كل الرجال. هذه روح التجار، وهيهات أن يفهم المحبة من عامل العشق بنهم التجار.

لم تغضب، لم تستنكر. قالت بنغمة ساخرة:

- ولم لا؟ أظن أن المرأة خلقت كي تكون بهجةً لكل الرجال، هبةً لكل الرجال. هذا قدرُ الأنثى!

- تجذيف المجنوس!

- ولا أعرف لماذا يحرّم الدستور القرآني هذا النعيم.

بدأ أوكا يرتجف:

- ظننتُ أنك لا تعرفين ماذا تريدين. نساء كثيرات يترددن في الاختيار لأنهن لا يعرفن ماذا يريدن. ولو عرفت أنك تخفين هذا التجذيف لما رفعت أمري إلى السماء وحَكَمْتَ القدر. الرهان تحكيم للقدر!

رفع رأسه فكشف له البدر عن ابتسامة ساخرة.

(٣)

عاد إلى الميعاد، انسحب مع آخره إلى البيوت. سرجا مهريهما وعادا إلى الميعاد فوق المطيةتين. كَبَحَ آخره جمله وتوقف بعيداً، في حين أقدم أوكا بخطيه نحو حلقة النساء راقصاً. عبر الساحة ذهاباً وإياباً مرتين. ثم هَمَزَ المهرى بقدمه فهروه حول دائرة الرقص وطافا الحلقة مرتين أيضاً. زغردت ثلث نساء وارتفع نواح «إمزاد» المجنون. استجاب الحيوان للتحية فركع على ساقيه الأماميَّتين. زحف حول الحلقة راقصاً، متمايلًا برقبته المقوسة، الطويلة، المزينة باللجام الذي تتدلى منه خيوط الجلد الملؤن فتنسدل على رقبته كشعور الحسان.

هَمَزَهُ مرة أخرى فنهض برشاقة وركض في بطء وجلال عبر العَرَاء. تبخرت بكرياء النبلاء حتى اختفى وراء الراية الشمالية. هَمَزَ آخره جمله وتبخرت في أثره. لم تتوقف الأنامل المرصوصة بخواتم الفضة عن قرع الطبول. ضربات الأنامل المرصوصة بخواتم الفضة لها وقْعُ السحر على الطبل المغلَّف بالجلد. ارتفعت الحناجر بالرغاريد.

استمرَّ الوتر يتوجع على صدر الورٍ. ارتفعت أصوات: «المهري غادر. أوكا رحل».

انتقل الخبر من حلقة النساء، عبر الأولاد الرَّسل، وبلغ الرجال: «المهري غادر. أوكا رحل». وبرغم أن الفارس لا بدَّ أن يغادر بجمله ويرحل من حلبة الرقص إلَّا أن الجلال الذي تردد به الخبر أجبر الرجال أن يتحركوا نحو الرابية ليتفقدوا الفارس الراحل. تقاطروا على الرابية، وبرغم سخاء البدر في كشف الصحراء إلَّا أن الفارس اختفى. اختفى أيضاً أخmad الذي انطلق وراءه. تواريا وراء الروابي أو نزلاً وديان الطلح أو ابتعداً مسافة تجعل الفلاة قادرة على حجبهما.

في الميعاد ترَّنَّحت الألحان وتعثَّر الحماس. اختفت الأصوات واسترَّخى التوتر في الوتر.

لم يعرف أحد سرَّ البرود: أهُو ألم الشجنَ أم حزناً على غياب الفارس؟

(٤)

أناخ المهري في وادي الطلح. لم ينتظِر حتى يبرُك الجمل فقفز من السرج قبل أن يكمل المهري ركعته. أخرج من الجراب عقالَ المَسَدِ وبدأ يُحِكِّمُ القيد على ساقِي المهري الأماميتين. فوجيءَ الحيوان المدلل بخشونة المعاملة وقساوة القيد فاحتَاجَ بصوت موجع. أَرَاحَ عن سِنَامِه السرج والمِتَاع. رَبَّتْ على رقبته الممشوقة بحنان. تحسَّن فكيه الرشيقين، النحيلين. داعب شفتَيه المتَّدليتين ومررَ أناملَه على أطرافهما. وَخَرَّ الزغب الخشن راحتَيه وتمسَّحَ المهري بيديه. تحسَّن الديَن والأصابع بخياشيمه، ثم بدأ يلعق أطراف الفارس بـلسانه. سرَّتْ رعدة في بـدنه المشدود فاحتضن الرأس الوديع، المستطيل، وضمه إلى صدره. سكَنَ المهري واستسلم للعنق.

ظلاً ملتصقين، مشدودين أحدهما إلى بعضهما، ساكنين، يستمعان إلى

وجيب قلبهما. تنحى أوبا فأحسن بالليل في ذراعيه وصدر. تفحص صديقه فرأى في عينيه الكبيرتين، السوداين، الحزيتين، دموعاً كبيرة معلقة على أهدابه الطويلة، ملائكة، تحت ضياء القمر، كحبات اللؤلؤ. مسح أوبا الدمع بيد راجفة. ثم ..

ثم داس على قلبه حتى انفطر الدم وشد الزمام إلى الوراء. أحكم تقييد الرسن إلى الذيل فرغى الجمل مرة أخرى. فتش في الجراب، المعلق في رأس السرج الأمامي، عن السلاح. فتش بيد راعشة فطال البحث وأحسن بزحف الوهن. بلع بلعماً خرافياً سد بلعومه فشعر أنه بلع سكيناً. مرق السكين البلعوم والحنجرة والصدر ولكن الغصة ظلت تسد النفس. تحولت الغصة إلى غصة مجوسيّة. ففز إلى الجراب وقلبه رأساً على عقب. نفظه بخشونة فسقط السلاح على الرمل. جرد المدية من الغمد فلمع لسانها الوحشي في الضوء الفضي. خار بدنّه فترنح مرتين، استند إلى جسم المهرى وقاوم الدوار.

حجبت عينيه سحابة من العتمة فأغمضهما. صعدت أماعاه إلى حلقه. انقبض الفقص وعجز عن التنفس. غمره العرق. جسده مبلول كله. نَزَف عرقاً سخياً في لحظات. ظلّ يستند على المهرى ويراقب الفراغ. أعاد المدية إلى الغمد بيدين مرتجفين. وصل آخِمَاد.

وَبَثَ من المهرى قبل أن يتوقف عن العدو. أقبل نحو أوبا راكضاً. هجم عليه واحتطف المدية من يده. استيقظ غول الكبراء وتململ فيه الإحساس بالعار. ففز على رقبة آخِمَاد. حاول أن يستعيد المدية. قاوم آخِمَاد. التحاما في مشادة وحشية. حاول آخِمَاد أن يستغلّ ضعف قرينه ويصرعه أرضاً بمساعدة رجله اليمنى ولكن أوبا، الذي استعاد قواه، انتبه لللحيلة. ففز في الهواء برشاقة الجن وتخطى الفخ دون أن يتخلى عن منكبي آخِمَاد. بل استغلّ الفقرة فجذب غريميه إليه بمجرد أن لامس الأرض بقدميه. ترَّنح آخِمَاد وسقط على الرمل ولكنه استمرّ يتشبث

بالسلاح. تدحرجاً في كتلة واحدة على العراء الرملي. حاول أوخا أن يستعيد المدينة. شد المقبض وشد آخِماد طرف الغمد.

تنازعاً الطرفين. انفصل الغمد عن المدينة. فاز أوخا بالالمدية وبقي الغمد في يد آخِماد. حشَّر أوخا:

ـ لا بد أن أفعل ذلك بمنفسي، لوحدي، كما اتفقنا!

زفر آخِماد. حشَّر لاهثاً:

ـرأيت كيف تفعل ذلك. أنت لا تقدر أن تفعل. لماذا لا تدعني أفعل ذلك أيضاً. أنت في حال لا يسمح بأن تفعل. لماذا ت يريد أن تعذّب الحيوان؟

تصاعد في صدر أوخا غضب المجروس:

ـ هل ت يريد أن تقول إنك أقوى؟ هل تريدينِي أن أتركه خلفي؟ أو أن قلبي قلب امرأة؟

ـ هيَّا أريني إذن. أرني كيف ستفعل ذلك دون أن تعذّب الحيوان. نحر المهاري بالالمدية ليس كضرب رقاب بني آوى بالسيف.

تقدَّم أوخا من المهرى. انحسر طرف اللثام عن شفتيه فرأى آخِماد الرَّبَد فوقيهما. صاح بنفس الحشرجة:

ـ لن تعلَّمني كيف تُنحر المهاري كما لم تعلَّمني قبلها كيف تُضرب رقاب بني آوى. ابتعد!

لَوْجَ بيده فتراجع آخِماد خطوتين إلى الخلف. رفع أوخا المدية في الهواء. لَمَع النصل الشَّره تحت نور البدْر لمعة وضيّة، خاطفة، عطشى للعُقَد وأكل اللحم.

هُوَ الفارس بالسلاح النهم وغرسه حتى النصل في صدر المهرى. انقضَّ الحيوان، حاول أن يتَّزع رقبته المشدودة باللِّجام إلى ذيله. بذل

جهداً خارقاً كي يخلص ساقيه المقيدتين، المثنيين بعقال المَسَدَ المتلوش. تدفق الدم من الرقبة. شخر الجمل، سحب نفساً عميقاً فتحشرج واختنق بالتزيف. اشتكتي بيكان مدهش، موجع، حزين:

ـ آـ آـ وـ وـ ٥ـ .

تخلّي أونحا عن المدينة فجأة. انهار على الرمل ودَسَ رأسه في التراب. فوق رأسه نزف الدم الحار، الغزير، المتختّر. حشرج الحيوان بالعذاب. هَرَعَ أَخْمَادٌ. أزاحه جانباً فتدحرج الفارس على الرمل. يقبض التراب بيديه ويتلوّى كالملدوغ.

تناولَ أَخْمَادَ المَدِيَّةِ. شَمَرَ عن ساعده الأيمن ودَسَ النصل النهم في الصدر العميق. ازدادت غزارة الدم. لَوْثَ ملابسه ووجهه. لم يتوقف. تابع تعميق الجرح. وكلما توغل بالنصل في الصدر كلما ازداد فيضان الدم. بدأ الحيوان يهداً. ارتحت عضلاته. كفَ عن الشكوى.

ظلّت الجلدة وحدها ترتجف. رعشة الجلدة الإشارة الضرورية لحلوة الحياة وحرارة النَّزَعِ الأخير. وحتى عندما استسلم الجسد للسكون، وتوقف النزيف، بقيت جلدة الجانب الأيسر ترتعش وتقفز في انتفاضات متواترة، متقطعة، سريعة.

تألقت بركة كثيفة من الدم تحت ضوء القمر. من البركة المعتمة ارتفع البخار.

(٥)

جلسا متجاورين. هداً أونحا. راقب العَرَاء في استسلام في حين توَّرَ آخِمَادٌ. حاول أن يداري الرعشة بإهالة الرمل على ساعديه الملوثين بالدم. قال:

ـ أَخْشَى أَنِّي لَنْ أَسْتَطِعْ. أَخْشَى أَنِّي لَنْ أَقْدِرْ.

واصل أوخا التحديق في العراء بنظرة غائبة، بلهاء. صمت طويلاً قبل أن يردد بهدوء أقرب إلى البرود:

- أنت تمزح. يروق لك أن تمزح في وقت لا يطيب فيه المزاح.

- أنا لا أمزح. ذبح المهرى أنهكى.

- منْ أُجبرك أن تتدخل؟ قلت لك إن الفارس هو الذي يُتّم الشعائر. أنا منْ يجب أن يصنع الوداع. أردت أن أشيعه لوحدي ..

قاطعه آخِمَاد:

- ولكنك تخاذلت. تخاذلت مرتين وسيت له الأذى. لن يغفر لك ذلك. هذا ما لا تغفره المهاري وقت الرحيل.

عاد أوخا يسعى في الفراغ. رأى آخِمَاد كيف غزا البياض مقلتيه، ثم تتمم همْساً:

- لم أمهله. الوقت لم يسعفي كي أمهّد في متسع. فعلت كل شيء على عجل. أنت لم تر الفجيعة في عينيه الدعجاوين. ليس الجن هو سبب الفجيعة وإنما المباغة. المفاجأة. لقد فاجأته. لم أعطه الفرصة. لم أبع له بنيني. العجلة هي السبب. أربكته العجلة وأربكتني.

ترنح إلى اليمين ثم إلى اليسار على طريقة المجنوين والواقفين في حُمّى الوجود. أكمل وهو ما يزال يتمايل:

- هنا نكمل الشعائر. الآن وجبت العجلة. العجلة الآن نعمة.

- قلت لك إبني منهك. أخشي ..

- لا تخش شيئاً. لا تتردد. فعلت الكثير ولم يبق إلا القليل ..

- هل تسمّي هذا «قليلاً»؟.

- .. .

- ما بقي هو أكبر الكبائر.

- لم أبخل شيء. بذلت ما في جهدي. ذهبت إلى تادرارت سراً كي أطلب أوداد للمبارزة وكدت أدفع حياتي ثمناً لتلك الرحلة. أقنعت أوداد أن يقبل الرهان كما أقنعت الإمام قبله أن يتدخل. فعلت كل ذلك كي أعتقد نفسي وأحرر رقبتي من الدين القديم.

- أنت تتحدث مثلها. أنت أيضاً تتحدث عن التبادل، عن التجارة، ولا أحد يريد أن يتحدث عن التبادل الآخر، الحقيقي. لا أحد يريد أن يفهم المحبة، أو الصداقة. أنت لست مديناً لي بشيء، وما ستفعله الآن ستفعله باسم الصداقة والرفقة والصحراء وليس باسم التجارة والتبادل الشيطاني الذي ينادي به دين المجروس.

- ولكن ما تريدينني أن أفعله بك لا يقرؤه دين المسلمين أيضاً!

- لا تعلموني ما تقرؤه وما لا تقرؤه الأديان. دينك أن تفي بالتزامك نحوى. الدينُ أن تلتزم بالوعد. الوعد دين ودين.

تنهى عواء بعيد. استجواب الجياع لنداء الدم الطازج تناقلت الصحراء الرسالة وبشر النسيم بالقربان ورائحة الدم فكانت عشيرة الذئاب أول من ابتهج بالبشرارة واستجواب بالنداء الفاجع. لا ترفع الذئاب صوتها بالعلو
الباقي إلا إذا أشرفت على الوليمة.

قال آخِمَاد:

- كان الأولى أن توكل أحد العبيد بالمهمة.

- وهل يتطاول العبد على السيد؟ هل يرضيك أن أسلُم رقبتي لعبد؟

- وماذا يهم الشاة بأي سكين تُذبح؟

- لا تحرص الشاة على ذكرها بعد ذبحها. أما الفارس، أما النبيل فلا يملك غير الذكر. إنه يعيش لذكره. عمله في الحياة مكرّس كله لذكر

الناس له بعد الممات. هذا هو الفرق بينه وبين العبد الذي لا يعيش إلا ليومه وجوفه.

تنادت العشيرة الحكيمية بالأصوات الفاجعة. اقترب النداء. نهض آخِمَاد إلى جمله. كان يبرك في المنخفض مسرجاً. توقف عن الاجترار وظل يتلَّف حوله في قلقٍ منذ أعلنت الذئاب عن نفسها واستجابت لنداء الدم. شرب من القربة المعلقة في السرج وغمَّ وجهه بثرات من الماء. تناول جبالَ السَّدِّ وعاد إلى التَّلَّة. لاحظ أوكا كوم الجبال الوحشية فاستوقفه واستنكر:

- لا تفعل ذلك بالليف. لا أريدك أن تُمْسِّني بجَبَالِ الليف.

- هل يهُمُ الشَّاهَ سلخها بعد ذبحها؟

- لا أريدك أن تُمْسِّني بالليف الفظيع لأنني لست شاهة. أنا مخلوق جاء إلى الأرض في أجمل خلقة، في أبدع آية، أريد أن أوفي بعهد ربِّي وأعيد الوعاء الجميل إلى مَنْ استعرته منه سالماً. لا أريد خدشاً في الوعاء. لا أريد شرخاً في الوعاء.

بلغ ريقه. وقف على قدميه. ترَّنَّح حتى كاد يسقط وراء ظهره. أضاف:

- لو كنت أريد أن أُسْيء للوعاء لما احتجت لمساعدة أحد. لو كنت أرْتَضَيَ الخدش أو الجرح لفعلت كل شيء بيدي، بسيفي. ولكن الوعاء أمانة في عنقي. لا بدَّ أن أرْدَه كما أخذته. الحرص على الأمانة من شيم البلاء.

- تتحَدَّث بلغة الدرويش.

- أبعد عَنِي هذا الثعبان الشره!

قال آخِمَاد في يأس:

- هل أنت طفل؟ هل تريدينِ أن أفعل هذا العمل البشع بيدي العاريَّين؟

نزع أوكا عمامته عن رأسه. نزعها في حركة واحدة، خاطفة، فسقطت عجلة القماش على الرمل فتعرّى، وانكشفت عورة الرأس كلها. رأى آخِمَاد وجهه ورأسه لأول مرة. رأس طويل، مستطيل، مغطى بشعر وَخَطَّهُ الشَّيْب فتألأ تحت ضوء القمر. وجهه مخروط، مستطيل أيضاً. و.. شاهد آخِمَاد أبشع ما في الخلقة. أبشع ما في الوعاء. رأى أذنين طويتين، كاذني جحش، تتصبان في الجانبين الأقرب إلى فروة الرأس، ثم تكسران وتتدليان إلى أسفل. أذنان عجيتان في موقعهما، وفي شكلهما، وفي شبههما بأذني الجحش، فآمن آخِمَاد بحكمة أول من اخترع اللثام ووضع عمامته على الرأس.

بَحْلَقَ في اللفافة المكَوَّمة على الأرض مثل كتلة ثعبان. قال أوكا:

- ستفعل كل شيء بحجابي. ستفعل ذلك بأنفس ما يملكه الرجل النبيل. بالعمامة التي سرت فمه يوماً من عار الإثم والحرام. اللثام المقدس. الكفن الأول الذي ستر السُّوَاء الأولى. كان كفني وسيظل كفني. إصنع لي كفناً من كفني ورفقي.

في عينيه ومض وهج جنوني. أَلْقَى جنوني. اقترب آخِمَاد من الكفن. انحنى فوق كتلة الثعبان. كتلة الحَيَّة. قماشه ناعم كجسد الحَيَّة. أمهق اللون. تفوح منه رائحة العرق. لَوْث الدم بعض أجزائه.

مزق اللثام بين يديه إلى ثلاثة قطع. تلقت حوله. دعا الصحراء كي تشهد. رفع رأسه إلى القمر الغارب. دعاء كي يشهد. تقدم نحو صديقه وبدأ يقيد يديه وراء ظهره بالخرقة المستقطعة من اللثام.

ولكن القمر الخجول كان أول من رفض الشهادة، فأشاح بوجهه وقرر الانسحاب من الصحراء.

(٦)

بدأ أوكا يجدب.

استولت عليه الرعشة والحمى فتمايل راجفاً. أَحْكَمَ آخِمَادْ تقييد
الرجلين أيضاً. وقف فوق رأسه. اقترب العواء الفاجع. قال آخِمَادْ وهو
ينفقد الصحراء الهاجعة بنظرة شاملة:

- ما أجمل الصحراء، فهل تستحق أن نهجرها في سبيل امرأة؟

لم يجب أوباً. ظلّ يجذب بهدوء. عيناه المتألقتان تحدّقان في الفراغ.
إذاه الطويلتان تتأرجحان وترتجفان. بدأ آخِمَادْ يرتجف أيضاً. ارتفع طنين
السكون. عَرَفَ الرمل معزوفته وضربت الصحراء على طولها الليلية. ركع
في مواجهة المجدوب أمام عينيه الفارغتين اللتين يدور فيهما البياض
والفراغ. نزع الأحجبة عن الرقبة. أحاطها بوهن الزماله. وهق الكفن.
ارتفع في قلبه الحريق. استيقظ غول الجنون والعطش.

دفع رفيقه بعنف فانكفاً المجدوب على قفاه. شدّ طرف الوهق بوحشية
فتقطاع الكفن حول رقبة المجدوب. احتدّ قرع الطبول. ازداد عزف الرمل.
تضاعف عواء الذئاب. اسودّ وجه القمر. ظلاً يرتجفان في التحام محموم.
فتح المخلص عينيه لحظة فأبصر زبداً كثيفاً يعلو شفتى المجدوب. أسلّل
جفنيه بعصبية وعاد يشدّ الوهق حول الرقبة.

ارتفعت حشرجة واختلطت بضجيج الكائنات وعواء العشيرة. ولكن
الوعاء لم يهدأ. الرفيق الذي جاء مع النفس واختار الشقّ، فوق الشفة،
مرقّداً، لم يستيقظ. إذا استيقظ ودخل فتحة الأنف انتهى كل شيء. الرفيق
الوحش غريب الأطوار. يستيقظ ويدلف الفتاحة لأنفه الأسباب، ويتمنّع
ويغطّ في أعمق سبات، في أعنف عدوان يتعرّض له الوعاء. ها هو يدك
مثواه ولا بن مجيد. ما أغرب أطوار الوحش! ما أغرب سلوك الرفيق. يا
موت: أنت سرّ الأسرار!

بدأ يختنق، احترق صدره بالظلماء. جفّ حلقه وفمه. فتح جفنيه. أمام
وجهه امتدّ لسان في طول الثعبان. وجهه مغمور بكتل من الزبد. خيط من
الدم نَزَفَ من الأنف. طرف اللسان لامس ذقنه. غمرت بدنـه قشريرة.

غزاه الوهن. استرخت العضلات. تخلّت قبضته عن الوهن. تخلّت قبضته الأخرى أيضاً. بدأ يتفاً بصوت عالٍ، قبيح. زحف على يديه وركبته نحو السرج. عجز. انكفاً على وجهه. لعق التراب والقيء.

رفع رأسه وعاد يزحف. في المنحدر تدرج عبر سفح التلة. وصل إلى الحضيض ولكنه لم يستطع أن يطول القربة المعلقة في رأس السرج. اشتدَّ قرع الطبول. علا عزف الكائنات. ضجّت الصحراء بمعاد الصحراء. حَجَّبَه الدوار. وعندما أفاق من غيته ووصل إلى السرج وشرب الماء تراءى له اللسان الوحشى، الطويل، الانسيابي كأنه ثعبان، يمتدّ ويتمدّد حتى يلتفّ حول رقبته. أحسّ به لزجاً. أملس، كريهاً.

قفز فوق السرج فانتصب المهرى. انطلق في الخلاء الذي لفته العتمة بعد انسحاب القمر.

(٧)

سمع الذئب تمزّق الجمل. تعارك على اللحم. هل هي ذئب حقيقة أم جزء من العيوب؟ فتح عينًا. العتمة. فوق رأسه وقف شبح ملفوف بالعتمة والغموض. هل هو جنٍّ صحراوي أو عزرائيل الدنيا الآخرة؟ هل حان الحساب؟ نتكلّم ملأك الحساب:

- ويل لمنْ آثر الوعاء على عصفور النور.

- منْ أنت؟

- كل منْ فضل وعاء الطين الفاني على جوهرة الروح الخفية كذب بآلاء ربه وأصلّى ناراً ذات لهب.

- هل أنت عزرائيل؟ هل أنت ملأك الموت والحساب؟

- ويل لمنْ سمع لكبرياء الشياطين أن تخطف روحه. الكبراء تبلغ العصفور وتخرج من البدن ثعباناً كريهاً.

- هل أنت الدرويش؟

- جثتك بالبأ اليقين وفتحت عينيك المعميتين على أصل البلاء. قلت لك إن الحياة أصل الشر، ولن تفلح ما لم تقطع رأسها. ولكنك كفرت ومشيت وراء شيطانك الأكبر: الكبرياء!

- أنت الدرويش. هل أنت ملائكة درويش؟

- أنت تدفع الآن ثمن الكبرياء. المكابرون فقط ينحررون المهاري البريئة ويوقظون الوحش النائم لأنهم لا يريدون أن يسيئوا إلى الوعاء. يضخّون بعصفور النور ويُجلّون كوم الطين الفاني. احتفظت برأس الحياة بدعوى الحفاظ على سلامة الوعاء المسموم بالشهوة.

- أنت لم تغفر لي الصفعة. أعرف أن الدرويش لا يغفر شيئاً. لا يجدر برجل الله أن يحاسب مخلوقاً يحتضر على صفعة تلقاها في الطفولة.

- غفرت لك الصفعة الأولى، ربّي حسيبي، ولكنني لم أغفر لك الصفعة الثانية. لم أغفر لك اختيارك لصراط شيطان الكبرياء. لولا الكبرياء لما اضطررت أن تمرّغ في التراب ملؤاً بالدم والزبد وسائل الوعاء الكريه.

- اغفر لي!

- اطلب من الصحراء أن تغفر لك. إلّه بدن الصحراء. قبل الأرض يا مكابراً!

تحرّك الشبح. تقدّم من الجسد الملقى على الرمل. أمسك بأذنيه الطويلتين المتذلّتين ودسَ رأسه في التراب. دفعه بقسوة حتى غاص الوجه وغاب في الرمل الناعم. صدر من الوعاء أنين بعيد، موجع، كأنه ينبع من هاوية.

تململ الوحش النائم فانتفاض الوعاء وتثبت بالنفس والحياة. أرخي الشبح قبضته وتخلى عن الأذنين. رفع الوعاء وجهاً معفراً بالتراب نحو السماء الغامضة، المرصوصة بعراجين النجوم. فلَ الشبح رباط البدين،

ثم رباط الرجلين. نزع الوهن من الرقبة. شَرَعَ يَكُونُ بِقَيَا اللِّثَامِ الْمَهِيبِ
بِحِرْصٍ وَعِنَاءً. خاطب بِقَيَا الْوَعَاءِ بِقِسْأَوَةٍ:

- هذه هديتي لنساء القبيلة. أنفس هدية. ثلات قطع من اللثام المكابر.
قطعة للأميرة، وقطعة لابنة العم تميماً، وقطعة للشاعرة كي ترجمك بقصيدة
الهجاء!

توسل الوعاء:

- أنت لن تفعل ذلك. رجل الله لن يفعل العار.

- لست أنا مَنْ فعل العار. أنت من ارتكب العار ثلاَث مرات: أمَامَ اللهِ،
وأمامَ عصفُورِ النُّورِ، وأمامَ القبيلة. أنت مجلل بالعار إلى الأبد.

- أنت تكذب. أنت شيطان. الدرويش شيطان رجيم.

- سأوَجِّهُ الدُّعَوةَ لِلصَّبَايَا. سأُدُعُّهُنَّ لِلْفَرْجَةِ عَلَىِ الْعَوْرَةِ. عَلَىِ أَذْنِي
الجحش. أستطيع أن أتصوَّرُ الأنْ بِشَاعَةَ الْقَصِيدَةِ الَّتِي سَتَتَنَاقِلُهَا الصَّحَراءُ
كُلَّهَا.

ابعد الشبح. قطع الوادي وتوجه إلى السهل. نهض الوعاء، تحرَّك كوز
التراب، وسار خلفه متزناً، دامياً، محطماً.

سقط. نهض. سقط. زحف فوق الحزير، تدرج من سفوح الروابي.
انكفاً على وجهه ولعق التراب. مزقت الحجارة الحزارة الوعاء. ازدادت
أذناه تدلياً. تدلى اللسان وخرج الشعبان من الفم. الشعبان الذي بلع عصفُورَ
النُّورِ الْوَدِيعِ. عصفُورُ الدرويش المحبوس في قفص الوعاء. توسل في
غيبوبته:

- اغفِّرْ لِي!

فسمع رد المجهول بصوت الدرويش:

- اطلب الغفران من الصحراء. توَسَّدُ الأَرْضَ وَكُلْ التَّرَابَ!

(A)

عندما انتشله الرعاعة من البئر وجدوا فمه مكمماً بخرق اقتطعها من سرواله، قبل أن يقفر في الفوهة، محاولاً أن يستر العورة التي تلقت لقمة الحرام أول مرة وحرمت السلف من نعيم الإقامة في «أوّل».

٨ - اللثام

«فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيْدَةً لِلْأَكْلِ وَأَنَّهَا بِهِجَةٍ
لِلْعَيْوَنِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ فَأَخْذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا
وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ لِرَجُلِهَا أَيْضًا مِنْهَا فَأَكَلَ. فَانْفَتَحَتْ
أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عَرِبَانَانِ: فَخَاطَلَا أُورَاقَ تَيْنٍ وَصَنَعَا
لِنَفْسِيهِمَا مَأْرِزًا».

سفر التكوين - إصحاح (٣)

(١)

بعد أن ذاق اللقمة الحرام تسمم بدمه بالشهوة.

فقد السكينة وساوره القلق. هام في الأحراش وتسلق النخيل والعرائش. نزل إلى العيون وشرب من نهر اللبن علّه يطفئ الحرير الذي شبّ في صدره، فما كان من الجسد إلا أن زاد اشتعالاً بالنار الخفية. تمرّغ في التراب وتلوّى على الأرض.

صعدت شعلة النار إلى البلعوم، شقّته كنصل سكين وصعدت إلى الفم. تحولت إلى سكين حقيقي، ملتهب، وحرّزت فتحة الفم وقسمتها إلى نصفين أفقين. تشقت الشفة، التي كانت فتحة رقيقة، عذبة، وانشطرت إلى ضلقتين قبيحتين ككعب المرأة. تحسّهما بيده فتضاعف شقاوته. استمرّ يتلوّى على ضفة نهر اللبن. نزل السكين الناري إلى الجوف فارتفع صوته بائين فاجع. في الجوف استبدل السكين الخفي جلده وتحول إلى ثعبان ناري مسموم. نفث الزعاف في البدن فاشتعل بالرغبة. انتفض وارتّجف وناح بالفجيعة. تحرّك الثعبان ونزل إلى أسفل. وظل يزحف وينزل حتى طلع واستقرّ بين رجليه. استمرّ يتأوه ويتلوّى عندما جاءته أمرأته ومسّدت بكفها الحنون على جبينه المغمور بالعرق والشقاء. قالت بدلال:

- هذا مخاض يجيء الرجل مرة واحدة ثم ينتقل إلى المرأة إلى الأبد.

تشكّى وتوسل :

- في جوفي عدو. بين رجلي ثعبان. فقدت السكينة. اللقمة طارت بخلو البال.

انشقت الشفتان بسم اللقمة. هل لقمة البستان مسمومة؟
هددهته المرأة كطفل. وضعت رأسه في حجرها العاري وعزّته بفتح الأنثى:

- في اللقمة سرّ أبهى من أي شيء. سم الحقيقة أللّا من أي طعام. الحقيقة هي الكنز المخفي في اللقمة. والنار ثمن الحقيقة. ثمن الحرام.

- هل الحرام يحرّم السكينة؟ هل الحرام مر إلى هذا الحد؟

- ليس هناك أللّا من الحرام؟

- ولكنّي شقي. تقبّحت شفتاي ونبت بين فخذي ثعبان!

- هذا جزاء. لأنك ذقت الحرام. ثمن الحقيقة نار!

- هل القصاص في حجم الفوز؟ هل تستحق الحقيقة هذا الشقاء؟

- انتظر. لا تتحدّث عن الشقاء، لأنه لم يبدأ بعد.

- أنا شقي. بدني مسموم بالشهوة.

- الشهوة هو ما أخذته مقابل العذاب. الشهوة ثمن الشقاء.

- هذا بشع.

- انتظر. سأريك أن هذا ليس بشعاً إلى هذا الحد.

أنسندت رأسه بذراعها وانحنت فوقه. لثمت فمه البشع، المشطور، فتدلى شعرها السُّخام وغمّر وجهه وصدره. دغدغ ثندأته اليمنى فتراعش البدن. تمددت بجواره والصقت جسدها بجسده. توتّر وانتفضت عضلاته بحّمى. تحرّك الثعبان وتمدد بين رجليه. تسلل وزحف حتى دخل بين فخذيها البيضاوين.

في حمى العناق تورمت الشفاه. انتفخت الشفاه. تمردت الشفاه.
 خضته الرعشة وأعقب الالتحام خواء. خواء خفي هوى به في اليأس. عَزَّته
 الأنثى بمداعبة عذبة من أناملها. في تلك اللحظة جلجلت في الأحراس
 ضحكة زلزلتها وزلزلت الأرض تحتهما. انتفضا وانفصلا. ففزت الأنثى
 واختفت وراء شجرة التين. قطفت أوراقها وخططها حول خاصرتها
 اللعوب. أما هو فتطاول في النخل ولململ الليف. نسج منه لثاماً حول فمه
 الكريه ونزل إلى الأرض. خرج حاجب السلطان من وراء الأحراس واستمرَّ
 يغمز عينيه بخث ويتلوي ضاحكاً. ركع فوق نهر اللبن وبلل ريقه. التفت
 إلى «مندام» وهدَّ بسبابته:

- إذا دخلت لقمة الحرام من الفم لن تخرج من الجوف إلى الأبد.

تشكُّى مندام وناح:

- سُمِّمت بدني بالنار.

- نار الشهوة!

- وعندما انطفأت نزل في قلبي خواء!

- لا يعقب شهوة الإثم إلا الخواء.

- أريد السكينة. أريد الاطمئنان. أريد ألاً أريد شيئاً.

- هيئات. منذ اليوم لن تذوق طعمَ لسكتينة أو اطمئنان. منذ اليوم ستريد
 كل شيء دون أن تحصل على شيء!

رفع مندام صوته بالتواح. تلوي على الأرض. تضرع:

- أريد أن أنسى. أعطيك عمري مقابل أن تختم على رأسي بالنسيان.

- هيئات. منذ اليوم ستشقى بالمعرفة ولن تعرف النسيان. السر في
 المعرفة.

- ارحمني. اسمح لي أن أدخل على سيدى السلطان.
- هيهات. السلطان أمر لا يُفتح لك باب بعد اليوم.
- ولكن لا بد أن أرفع أمري إليه. لمن سأشكوا حالى غير سيدى الأوحد؟
- إلا من وراء حجاب. إلا بواسطة.
- الرحمة! قلبه كبير وسيرحمني!
- أنت لا تعرف غضب السلاطين لأنك غشيم. ليس هناك أقسى من السلطان إذا غضب!
- الرحمة يا حاجب السلطان. لم أعرف قبل اليوم غير الرحمة.
- زال أوان الرحمة بمجرد أن أكلت لقمة الحرام. الحجاب جزء آخر على العصيـان.
- لطم مندام وجهه المستور بحجاب الليف. لعن امرأته وهمهم في وجهها:
- أنت السبب!
- فقررت الأنثى مثل اللبـة وأشارت بإصبع الاتهـام نحو الحاجـب:
- أنت السبـب!
- قهقهـة الحاجـب حتى استلقـى إلى الورـاء. هـددـها بـسبـابـه وـقـالـ مـتـخـابـاً:
- هل فعلـتـ منـكـراًـ إـذـ أـخـبـرـتـكـ بـأـنـ السـلـطـانـ حـرـمـ عـلـيـنـاـ الـاقـتـارـابـ منـ بـسـتـانـ الغـلـانـ؟ـ هـلـ فعلـتـ منـكـراًـ إـذـ حـرـصـتـ عـلـيـكـمـاـ مـنـ الـخـطـأـ وـفـتـحـ عـيـنـيـكـ،ـ أـيـنـهاـ الـحـيـةـ،ـ عـلـىـ سـرـ السـلـطـةـ؟ـ
- ناـحـ «ـمـنـدـامـ»ـ وـتـلـوـيـ بـجـوارـ الـنـهـرـ النـاصـعـ:
- وـيـلـيـ!ـ وـيـلـيـ!ـ لـمـاـذـاـ أـخـبـرـتـهـاـ مـاـ دـمـتـ تـعـرـفـ أـنـهـاـ حـيـةـ؟ـ لـمـاـذـاـ لـمـ تـخـبـرـنـيـ

بالتحرّيم؟ ألا تدرّي أنّ الحياة لن تهدأ في جوف الأنثى حتى تشبع فضولها
بارتكاب السرّ وانتهاك الحرّام؟

هُبّ الحاجب في وجهه:

- لا تبّرأ! ما كان ينبغي أن تفتحم البستان.

بكى مندام وتمرّغ في الرّغام:

- زينت لي اللّقمة. قرأت في أذني قصيدة عن بهاء الغزلان. عزفت
على الورت المسحور وغنت عن رشاقتها أجمل الغناء. أنت تعرف كم أنا
ضعفـي أمام الشعر وأمام العزف والغناء.

أنـهـيـ الحاجـبـ المحـاـورـةـ:

- ستـوقـفـ عنـ تـبـادـلـ اللـعـنـ وـالـاهـامـ. التـوـيـةـ لنـ تـعـيـدـ الـحـيـاـةـ لـلـغـزـالـ،
ولـقـمـةـ الـحرـامـ لـنـ تـخـرـجـ مـنـ الـجـوـفـ بـالـنـدـمـ. فـلـاـ تـحـاـوـلـ يـاـ «ـمـنـدـامـ»ـ أـنـ تـخـفـيـ
عـارـكـ وـرـاءـ الـحـجـابـ. اللـثـامـ لـنـ يـحـجـبـ الـعـورـةـ.

ثم قطب جبينه وضيق حاجبيه. رفع يده ومسح شعره المتتصب على
رأسه كعرف الديك وأعلن:

- خـذـ اـمـرـأـكـ وـارـحـلـ يـاـ مـنـدـامـ!

انتـجـبـتـ المـرـأـةـ وـاحـتـجـ الرـجـلـ المـبـهـوتـ:

- كـيـفـ؟ـ

أـجـابـهـ الحاجـبـ بـبـرـودـ:

- ماـ عـلـىـ الرـسـوـلـ إـلـاـ الـبـلـاغـ.

- هلـ هـذـاـ قـرـارـ السـلـطـانـ الـأـخـيـرـ؟ـ

- يـحـزـنـنـيـ أـنـ النـهـائـيـ الـذـيـ لـاـ يـقـبـلـ فـيـ أـخـذـ وـلـاـ رـدـ.

- وـلـكـنـيـ غـشـيمـ وـلـاـ أـعـرـفـ لـيـ وـطـنـاـ غـيـرـ «ـوـاـوـ»ـ؟ـ

- اسْعَ في الأرض. اكْسِبْ عيشك بعرق الجبين. سُرْ في الصحراء.

- الصحراء؟

- ليس أمامك إلَّا الصحراء. إنها بلا حدود. لا أحد يعرف من أين تبدأ وأين تنتهي.

- هل الجزاء قاسٍ إلى هذا الحد؟

- قصاص السلاطين قاس دائمًا. أنت لا تعرف السلاطين.

- ولكنه رحيم. ائذن لي أنْ أُمْلِأَ بين يديه وسوف ترى.

- لن ترى له وجهاً بعد اليوم.

- إنني أتوسّل!

- فمك ملوث بالحرام. اللثام لن يحجب الحرام.

- أخبره بندامتي فربما أعاد النظر في أمرى.

- مستحيل. رُفِعَتْ الأقلام وطُويت الصحف!

بعد ساعة وجد مندام نفسه خارج سور العظيم! أحكم اللثام حول وجهه وتدثرت المرأة بمئزر التين. امتدت أمامهما صحراء مغمورة بالسراب. بدأت مسيرة التيه، وأصبح اللثام، منذ ذلك العين، شعاراً يخفي به الصحراوي عورة الفم.

٩ - أمغار

«لا أعلم سعادة للإنسان أكثر من أن يُفْنَى عن نفسه»
فريد الدين العطار النيسابوري
«منطق الطير»

(١)

تسلل القبس المشاكس وأقام الحدّ الفصل في عنق الصحراء والسماء. تعرّى التزيل من غطاء النجوم وانسحب، من تحته، بساط الغمام. وجد نفسه يهجم فوق عرقوب الصرح، معلقاً بين العشيقين، ولكن الغيمة الزائلة تراجعت إلى الحلق السفلي وظلت تحجب عنه السهل الأرضي. تقلّ فوق الصومعة.

انقضى الضباب وفتح أفواهَا في الهاوية. أفواه ظلماء، جليلة، يتصاعد منها بخار كأعمدة الدخان. الفوهة مطروقة بمربع من الألواح العمودية المهيّبة. تمثّى يميناً وتفقد الجدار الصلد. قطع مسافة طويلة فوق الحدّ الصاعد. الجدار ينبعض حيناً ويعود للوعورة وحدة الطرف حيناً آخر. سطحُ الحجر مجلوّ ولماع في أغلب المساحات. ولكن إرادة الزمان كانت أقوى فلحسّت بعض الأطراف ونهشت قطعاً من الصلد المكابر.

أفضى الجدار إلى شِق يفصل بين اللوح الشرقي وقرينه الشمالي. كانت الفجوة بينهما من العمق بحيث يستحيل الفوز فوقها والوصول من هذا الجانب إلى الجهة الأخرى. أدهشه أن هذه الفجاج خفية ولا تُرى بالعين من الأرض مما يجعله يتخيّل سموق الجبل الخشام. عاد في أثره واستكشف الطرف الأيسر. انشق اللوح هناك أيضاً عن فجٍّ. عرف أن الألواح جدران معزولة نصبتها السماء على هيئة حصن خرافي عنيد. طاف

حول الفم عازماً أن يستكشف هاوية الظلمات. ولكن غلالات الضباب استمرت تتسكم حول الفوهة كاشفة، بين الحين والآخر، عن فتحات ظلماء في الهوة الجليلة. طاف السطح فلم يعثر على أثر لمخلوق. لا نقوش. لا رموز. لا ذرق لصقر، ولا جعر لوحش.

في فم الظلام علت هممة. أم أنها لغة الريح في الفجوات؟ وقف وأنصت. عاد السكون ينطئ بلغة الفناء. سكون الصحراء لغة الفنان. انحني فوق الهاوية وراقب كيف تسحب الغلالات في الفوهة مثل سحاب حبيس. تتمزق وتناثر ثم تعود فتلتلاقى وتتلاحم من جديد. استمرت الفوهة الكثيبة تنفس البخار في دفعات. تعلو أسماله في الفضاء فتحوّل إلى لثام يتحوّل حول الرأس بتكاسل يحجب الفتحة. حمت الشمس. رَفَرَ القبلي في وجهه صهدأً. ظلّ يحوم حول الفتحة. وجد أن الانحدار في باطن النصب، المؤدي إلى جوف الفوهة، ليس عمودياً كظاهره المكشوف للسهل، مما يجعل التزول في الجوف أيسراً من العودة إلى الوراء، خارج الصرح.

بحث عن موقع مناسب للهبوط.

طاف الضلفة الشرقية فوجد أن الرأس ازداد تكبراً وترفعاً والنصب يبالغ في الانتصار في كل المواقع. الجزء الوحيد المتواضع في الموقع هو الذي صعد منه. الموقع الذي سلكه أمغار العجوز عندما انقضه من السقطة.

حاول أن ينزل من هناك.

تشبّث بالصلد المصقول فوجد جسمه ينزلق ويؤول للسقوط. الريح، أو الزمان، أجلت الحجر وجرّدته من التنوء والبروز والمسام، وجعلت التشبّث به عملاً مستحيلاً. خُيل له أن بدن الحجر لم يكن لميساً إلى هذا الحدّ عندما صعد. أم أن الحمّى والتعب منعاه من الإحساس بجسد الصلد؟ أم أن أمغار الجنّي تولّ حمل الوزر فلم يشعر بنعومة الجزء العلوي للنصب؟

أم أن الجن سهرت الليل وأجلت الوجه لتفتّص منه جزءٌ طاوله وتعاقبه
على انتهاك بكارة الحَرَم؟

مزق من لثامه قطعة. مزقها إلى أربع خرق. لف يديه ورجليه بخرق القماش وعائق الحجر. نزل بحذر من الموضع نفسه، وحرص أن يتخذ طريقاً أفقياً في نزوله حتى يتحايل على نكبة النصب ويتنقّي عضيه وبطشه. تحرّك ببطء. التصق بالجدار المنحوت بكل جسده. استفرّ كل الحواس، استنفر الدم، وتحول إلى شوك ومخالب، تشبّه بالضبّ. استحضر الجدار ليمنحه القدرة على التشبّث بالجدران والالتصاق بالحجارة الغدارة. زحف أفقياً إلى أسفل. فزّ منه العرق. تمرّقت الخرقة الملوية على الكف اليمنى. ثم تبعتها قريتها في اليد اليسرى. أفلقه الحدث. ما الذي مزق القماش إذا كان الجدار مجلّواً إلى هذا الحد؟ أي يد سرية قطعت الخرقة غير يد الجن؟ أحس في راحة يده المكسوقة بحرارة. ثم انتقلت الحرارة إلى راحة اليد اليسرى. ثم سرت في كل الجسد. حرارة مشبوهة تفث في الصهد وتنهّر بالحّمّى. نار موقدة شبت في الحجر وانتقلت إليه من جسده الغدار. لم يتصف النهار حتى يستمد النصب من جلاد الصحراء هذا النصب من شعلة جهنم. لم يحس بحرّ يجعل الحجر ينفث الحمم المبكرة. فهل لاحقته أصابع أهل الخفاء؟ هل استبدلت الأفاعي بالنيران؟ هل قررت أن تحرّق بئار الحجر بعد أن أفلت من تخدير الأفعوان؟ مازا يخفى الجن؟ مازا يدبّر أهل الخفاء؟

انزلقت قدمه فبعتها الأخرى. انزلق عبر الجسد الحجري المصقول مسافة قاسية. نهش الجدار لحمه، لعّق دمه. وسمّه بالجروح. تشتّت بكمدة بارزة وشرع يلهث. ينزّ بالعرق، يفزّ من بدنـه الدم. أدهشـته وحشـية الجدار. جفـاء الجدار. إذا كان مـجلـواً وـناعـماً فـكيف نـهـش لـحـمـه بـهـذـه القـساـوة؟ إذا كان مـصـفـولاً فـمن أـيـن أـتـى بـالـأـسـنـان التـي مـزـقـ بـهـا الـبـدـن لـيـشـبـبـ قـطـرـاتـ الدـم؟ لـمـاـذا يـعـاملـه الـحـجـر الـعـارـي بـهـذـا الـحـقـد؟ أـم أـنـها مـكـيـدة مـنـ الجنـ أـيـضـاً؟ نـعـمـ. الـحـجـر الـآن مـمـسـوسـ. الـحـجـر مـسـخـرـ منـ قـبـلـ أـهـلـ

الظلمات. عليه أن يسترضي أهل الخفاء إذا أراد أن يلَّين قلب الحجر. إذا أراد التزول والنجاة.

رفع رأسه. لدهشته وجد نفسه يحوم حول نفس الموضع. لم يبتعد سوى خطوات. كل هذا الجهد كفاح ضائع. كل الدم الذي نزف، والعرق المسفل، وقطع اللحم المفقود. كله ضاع في الفراغ، ووجد نفسه يدور حول ضلعة النصب. وجد نفسه على مشارف الشق الأيسر من اللوح حيث تبدأ الفجوة التي تفصله عن قرينه الجنوبي. فهل هذه مكيدة الجن أيضاً أو أن الخدعة في انزلاقه الأفقي؟ أو أن السبب كله في حكمة العجائز التي تقول إن الصعود إلى القمم ليس بنفس صعوبة التزول منها؟.

احترق جسمه بالنار. نظر إلى أسفل فاحتجب الجبل بلجة ضباب حامت حول العنق المحفور بالطوفان الأول. غلالات الضباب حامية كألسنة النار. هذه الغلالات هي التي تسرّع النار في بدن الجدار.

زحف بحذر وعاد إلى السطح.

(٢)

سَفح العرق. استنزف المخزون. والزمزمية ضاعت في عراك الصعود. وحتى لو لم تضع فإنها نرحت ولم يبق بها إلا قطرات في القاع. ما زال جسده يشتعل بالنار المستعارة من الحجر. فماذا دهى المعشوق الحنون، اللميص، الذي كان يفاض رقة ولطفاً في بداية المسيرة؟ ما سر التحول في سلوك الحجر؟ تذكّر. قدّحت الذاكرة بالسر. سر الجفاء والصد. فقد دفعه الجسد الحميم في المرة الأولى بمجرد أن استعاد تينيري في قلبه. خان العناق وعاد بالقلب إلى امتلاك الأميرة. امتلك الأنثى الأرضية فملكته وأخرجته من نفسه. دخلت في قلبه فاغترب عن نفسه، فقد نفسه فغدر بالعشق، بالعناق، بالحجر، فعاقبه الحجر بالصد وتخلى عنه غيرة وانتقاماً. تخلى عنه إلى الأبد. ولو لا أمغار، لولا الجَد المقدس، لرقد الآن أشلاء في السفح. حجارة السماء ترفض الشرك بها وتغير من أنام الأرض. الحجر

المكابر لم يغفر له هذه الخطيئة حتى الآن. وما النار التي تسري في جسده إلا استمرار للصدّ وبرهان على الجفاء والهجر. فهل إثمُه كبير ويستحق هذا الجزاء؟ هل عشق المرأة أمر منكر إلى هذا الحد؟ هل تحقر جباره المكابرة مخلوقات الحضيض إلى هذا الحد؟ هل كُبُّ عليه أن يعاني الحرمان؟ هل حُرم عليه الاقتراب من البدن الغيور، الغضوب؟ أم أن كل ما يحدث مكائد من الجن؟

برغم الإنهاك قذح زناد الرأس مرة أخرى: منْ نزل إلى أسفل يصعد، ومنْ صعد إلى فوق ينزل. أي : «منْ نزل إلى أسفل لم يصعد، ومنْ صعد إلى فوق لم ينزل». هكذا تخبر وصيَّةُ الأَسْلَافِ، وهكذا فسَّرَ الوصيَّةُ بعكسها كما يليق بكل رموزهم وأثارهم. فَهُمُ الْآنُ، وهو ملقي بعجز على شعفة الجبل الخشام، أنه سار في الطريق الصحيح عندما قلب الوصيَّة. الأَسْلَافُ يعرِفُونَ كُلَّ الأَسْرَارِ، ولكنَّهُم يخفونَها بالغموض والإشارة. فهل اضطهدَهُ الجسمُ الحجريُّ بداعِ الغيرةِ وحدها أو أن ثمة سُرًا آخرًا؟ هل ورثَ الإمامُ الْدَّاهِيَّةُ إِيمَاءَ تَفِيدَ بِاستِحَالَةِ النَّزُولِ كَمَا أَسَرَّ لَهُ آخِمَادُ في تحذيره؟ ولكنَّ التَّحذيرَ منْ فمِ الدَّرُوِيشِ كَانَ أَوْضَعَهُ دَعَاءُ الدَّرُوِيشِ أَقْوَى مِنْ أَيِّ دَلِيلٍ. فِي دَعَاءِ مُوسَى نَعِيٍّ. كَيْفَ لَمْ يَرِ في دَاعِهِ النَّعِيِّ؟ قَالَ لَهُ إِنَّ فِي الْوَصْوَلِ رُؤْيَا، وَفِي الرُّؤْيَا، رُؤْيَا الدَّرِبِ الْمُظْلَمِ، عَلَامَةٌ بِاللَّاعِودَةِ. هُوَ رَاهِنُهُمْ عَلَى الْوَصْوَلِ، عَلَى الصَّعْدَةِ، وَهُمْ رَاهِنُهُ عَلَى النَّزُولِ. عَلَى الْعُوْدَةِ. فَخَسِرَا، كَلَاهُمَا، الرَّهَانِ. لَا هُوَ فَازَ، وَلَا أَوْخَا فَازَ. لَمْ يَخْسِرَا الرَّهَانِ إِنَّمَا خَسِرَا، وَهُوَ أَسَوَّ مَا فِي الْأَمْرِ، الْأُمَّرِيَّةِ. تَدْخُلُ الْقَدْرِ وَرِمَاهُمْ بِالخَسَارَةِ جَمِيعًا. هُوَ خَسِرٌ. أَوْخَا خَسِرٌ. وَ.. تَبَيَّنَرِي، نَفْسُهَا، أَيْضًا، خَسِرَتْ. خَسِرَتْهُمَا كَلَاهُمَا. بِدَأَ الْآنَ يَفْهَمُ السَّرَّ. السَّرُّ إِذَا نَسِيَ خِيَوَطَهُ الْقَدْرِ فَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَسْعَهُ الْعُقْلُ، لَأَنَّهُ يَكْفُ عنْ أَنْ يَكُونَ سُرًا بَشَرِيًّا.

لَمْ يَكُنْ أَوْدَادُ الْمُسْكِنِ يَعْلَمُ أَنَّهُ دَخَلَ طَرَفًا ضَدَّهُ خَصْمٌ لَمْ يَحْدُثْ أَبَدًا أَنْ هُزِمَ فِي مَعْرِكَةِ.

زَفَرَ القبلي . احترقت القمة بالصهد والشمس والبخار . استنزف آخر قطرة عرق فاستعار من مخزون الضب . عادت الغيمة تغمر الألواح وتلفُ النصب الأعلى . سمعهم مرة أخرى يتحاورون بهميمة واضحة . هميمة قريبة ، واضحة ، كان يستطيع أن يفك مفرданها ويتبيّن عبارات كاملة لو اتبه وأصغى في الوقت المناسب . ابتعد اللugu بالتدريب حتى اختفى . ويبدو أن المتحاورين جماعة عابرة ، أو قافلة من قوافلهم المسافرة . لقد التقى بمسافريهم وقوافلهم كثيراً في تادرارت . بل إنهم يحتكرون كل الطرق التي تعبر الصحراء من خلال تادرارت . ويقول الرعاع إنهم يسلكون تلك الدروب بسبب وعورتها وانقطاعها عن مسالك أهل الصحراء . لن ينسى كيف عرفهم أول مرة . كان يرافق راعياً عجوزاً لم يعرف وطناً غير كهوف تادرارت . ولد في الصخور الخرافية وتربيَ بين وديانها وحجارتها المطبوعة بخطوط الأسلام . تعلق بالوطن تعلق الأطفال بذيول أمهاتهم حتى قيل إنه يرفض الانتقال بدوايه إلى «مساك صفت» أو «مساك ملت» عندما تحن عليهما السماء بالسيول ، ويتشبث بالرقة الجديدة إخلاصاً لأرض الأجداد . انضم لهذا الراعي ورافقه طوال السنوات الأولى ليتعلّم صعود الجبال ويجرّب الصحراء . في ذلك اليوم أرسله إلى الوادي ليعود بالجمال من المرتع قبل حلول الظلام . ركع القرص المكسور وتلوّن الشفق بحمرة الاحتضار . نزل الوادي فوجده يعُج بالرجال والجمال . بعضهم يطوف حول النار ويعُد الطعام ، وفريق يعتنى بالبضائع ويزبح الأباء عن الجمال . وبعضهم يتلهي ويتسامر تحت أشجار الطلع ، في حين التحم الفتى وتصارعوا في العراء .

اعترضه شيخ وقور يكشف عن شفته العليا فتدلّى منها شارب ناصع ، جليل . صافحه بكلتا يديه ورحب به طويلاً . دعاه إلى مجلس العقلاة تحت الطلع . سامروه وشكوا من الجدب وتسقطوا أخبار المطر . جاءوا بالقصعة واستضافوه بطعم لم يذق اللّـد منه مدى الحياة . استمرّ السهر ورروا قصصاً شديدة وتباروا بأشعار لم يسمع أجمل منها . طلع قمر بائس ، مشطور إلى

نصفين، تعلوه حالة شاحبة من ساهور. لم يدر كيف أغفى. أفاق في قبس الفجر العذري. وجد على رأسه الراعي العجوز، يتربّع تحت الطلحة ويصنع الشاي. تسأله عن القافلة فابتسم العجوز بغموض. انشغل بخلط الشاي ثم أخبره، بلغة خفية أيضاً، أن القافلة رحلت. فقد المكان فلم ير أثراً يدلّ على وليمة البارحة. تابعه الراعي من طرف خفي دون أن يتنازل عن ابتسامته الغامضة ثم قال بصرامة مفاجئة: «لا يجب أن تعرّهم اهتماماً كبيراً. إذا قابلوك وحيدوك فرد بتحية أحسن منها. إذا استضافوك ب الطعام فكُلْ بالهنا لأنهم لا يُبَارون في إعداد الطعام. إذا عشقتك امرأة من نسائهم فاعشقها، واعلم أنهن أربع إناث الأرض في العشق. إنهم مخلوقات مثلك، يقابلون الإحسان بالإحسان، ولا يقايدون المحبة إلا بالمحبة. بل إنهم أفضل حالاً منا، لأنهم لا يقابلون الحسنة بالإساءة أبداً». فرك عينيه وهرش رأسه. اقترب يومها من العجوز وسأله بدهشة: «ولكن عَمَّن تتحدث؟ لماذا تحدثني بهذه اللغة؟ لم أقابل جنّا البارحة ولكنني ساهرت أهل الناس. تجارت قادمون من تينبكتو، عابرون بالبضاعة إلى غدامس. أذاقوني طعاماً...». قاطعه العجوز ضاحكاً: «أعرف. أطعموك بأكل لم تذق أشهى منه. قلت لك إن طعامهم شهي لأن النساء اللائي لا تستطيع إناث أن تنافسنهم في العشق هنَّ منْ قام بتطهيره. السحر في أنامل الأنثى العاشرة. ونسائهم دائماً عاشقات». عاد يهرش مؤخرة رأسه ثم قال: «لا أستطيع أن أصدق أنهم من أهل الخفاء. ولكن... قلت إن الطعام من إعداد الجنّيات. ولكنني لم أرّأني بينهم». ضحك العجوز مرة أخرى. قال: «وهل من الضروري أن تراها؟ إنهم ينكشفون لأنّي خار من الناس. ويسمحون بأن يخرجوا من الخفاء ويتبدّلوا من راقهم من أهل الأرض. وإذا لم تكشف النساء عن أنفسهن فهذا ليس دليلاً على غيابهن».

سكت زمناً ثم أكمل بيقين: «نسائهم لا يفارقنهم أبداً. وأنا أجد لهم العذر. لا يجب على الرجل أن يفارق نساء كنسائهم». شاء أن يداعبه فاستفزه بسؤال: «هل هنَّ مثاليات إلى هذا الحد؟ هل جرّبت الجنّيات؟». رفع إليه نظرة حزينة. ثم حاصر وجهه بلشامه وأخفي عينيه. راقب القمم

الخفية وسكت. تجنب، بعدها، أن يتحدث عن الجنّيات. تجنب التحدث عن العشق نفسه. ولكن الرعاة الخباء حدثوه عن ماضيه العاطفي. قالوا إنه وقع في غرام حسناً جنّية في شبابه. وروي آخرون أنه تزوجها وأنجب منها حسناً^(*) مارداً أخذته معها الجنّية إلى الخفاء عندما افترقا. ولا أحد يعرف سبب الفراق، ولكن كل الرعاة يعرفون أن العجوز ظلّ أعزباً وعاف نساء الأرض وعاش وحيداً، معزلاً.

بعد تلك الحفاوة آنس أهل الخفاء والتقاهم، بعدها، كثيراً، في أوقات مختلفة وأمكنة عديدة. ولكن الطعام الشهي الذي جربه في تلك الوليمة لم يذقه إلى اليوم.

(٤)

قام بثلاث محاولات أخرى.

تأكد، مع كل محاولة، أن صعوده كان معجزة، ونزوله يحتاج إلى معجزة ثانية. حدد الآن المكان الذي شهد الإعجاز. في جبين اللوح، عندما خان العهد وعاد بقلبه إلى السهل، حدث الصدف فهوى. ولكن تدخل الجد الحكيم لم يعده إلى الجبين فقط ولكن قطع به البرزخ وصعده إلى الشفعة، إلى القمة، إلى السماء. الإعجاز في تدخل الحيوان القديم. وهو، الآن، لن يتجرّس على المراهنة على تدخله من جديد. الوصية تقول إن السلف لا يتدخل في تقويم النجف إلا مرة واحدة. عليه الآن أن يشمر عن ساعديه ويتولّ الأمر بنفسه. عليه أن يعارض القدر وحيداً، عارياً، أعزلاً. قرر أن يعني. الغناء يقهر العطش والصهد و.. القدر. الغناء تعويذة العشاق. سلاح العشاق. وقف وراقب الشمس الهازبة. أحاط صدره بيديه وسحب الهواء المتصهور. أغمض عينيه وصاح بالموال الشجني. موال «أساهغ». ولدهشته سمع صوتاً آخر غير صوته، تماماً آخر، لحناً آخر.

(*) الخُن: مخلوق بين الإنس والجن (أبو منصور الثعالبي «فقه اللئن»).

خرج الموال مرتبكاً، مزيقاً. ردّ الجبل صدّاه كأنه يمعن في تعذيبه. أعاد النشار إلى أذنيه حتى يتيقن أنّ القدر ينوي أن يجرّه حتى من سلاح العشاق، من آخر سلاح. بعد الصدى سمع ضحكة شامته، مكتومة، ثم سمع بوضوح كيف أفلتت الضحكة وتحولت إلى قهقهة حاقدة. هل يسخر منه الجن؟ هل يهزا به القدر؟ أين طائر الفردوس؟ هل فرّ طائر الفردوس والغناء من صدره؟ تذكّر تحذير أخمام. الطائر لن يجتمع مع الأميرة في قلب واحد. الطائر الخفي الذي أسر قلب الأميرة تحرر وطار بمجرد أن دخلت تينيري واحتلت القلب. الطائر لا يشرك بالقلب أحداً. ما أن تلع الأنثى قلب الرجل حتى يفرّ ويخرج منه. من ملكه امرأة لا مكان فيه لعندليب الفرداديس. الاختيار قائم منذ الأزل: إذا سلم الرجل قلبه للملعوقة فقد عصفور النعيم، عصفور الحرية. ولكنّه وجد نفسه يفقد كل العصافير دون أن يكسب شيئاً بالمقابل. وهل يكسب شيئاً من خسر نفسه؟

خصمه يأبى إلأّا أن يأخذ كل شيء. يأخذ منه حتى نفسه. ولكن لماذا نزل عليه القصاص؟ متى ارتكب الخطيئة حتى يدفع هذا الثمن؟ متى تورط في اللعبة ليجد نفسه طرفاً في الخصم؟ يستطيع الآن أن يستعيد أين زل، ويستطيع أن يحدّد متى وكيف حدث ذلك. عاش متقللاً بين القسم. ينزل من جبل ويتعلق بجيد جبل آخر. ينام في الكهوف ويستكشف وصايا الأسلاف في جدران الصلد. يقرأ الحكمة ويحاول أن يفك رموزهم الخفية. رضع من ضرع أثى الودان وتأخى مع سلالتها إلى الأبد. صادق الطيور المقيمة وتعلم منها اللحن والغناء. وعندما استعانت أمّه بالسحرة لتعيده إلى حياة السهل لم تجد سوى المرأة لتخذلها مسداً تشدّه به. زوجته تناهت لتلوي حول عنقه الوهق. وقامت تناهات بالواجب فأنجبت له دمية تسلّيه في وحدهه وتنسيه عشق الرجال. اكتشف أن الوهق يزداد ضراوة وخشونة وشرامة كل يوم. امتد وتقسى وانسّك في سلسلة طولها سبعون ذراعاً. السلسلة الوحشية التي يبشر بها الفقهاء الخطة يوم القيمة. اختنق وعدّبه الحنين إلى الجنة في تادرارات. تخلّص من الوهق ورفض الدمية

و.. هرب. عاد إلى فردوسه فأحس بنفسه طائراً من جديد، عشبة تتشبث بالسفع، نسمة ريح ندية، شعاعاً ضوئياً في الفجر العذري، بذرة طلقة تسقط أرض المطر، ودانأ يخبر الشقوق ويقهر قمم المستحيل. كسب المجازفة واستعاد نفسه ولم يخسر، بالخروج، سوى وهق العييد وسلسلة الخطاة. رقد على التراب اللميس فداعبته النسمة الشمالية الندية. حدثه رؤوس العجال بسيرة الأسلاف ورقصت في وجهه عناقيد النجوم. طوقته قطعان الودان ورأى في عيونها الغامضة الفرح. اخترقه الشعاع البكر وسكن في قلبه.

أما العندليب فلم يكف عن الغناء طوال الوقت. قرر أن يحتفي باللقاء أيضاً فرفع صوته البهيج وردد معه أغاني الشوق والحنين.

غفرت له الصحراء الزَّلَة الأولى وقبلت توبته. ولكن الأمر اختلف في الزَّلَة الثانية. اعتبرت المكابرة هبوطه تحدياً وكفراً. عاد من الطريق نفسه ورهن قلبه ورقبته في يد امرأة. وبهذا نفسه بالعشق فخان العهد وطعن تادرارات مرة أخرى. تنازل في المرة الأولى ووضع القيد دون أن يفقد قلبه. دون أن يرهن نفسه. سلم نفسه للوهق ولكن قلبه ظلَّ طليقاً مملوكاً للصحراء وحدها. ولكن العشق هو الذي حَوَّل المغامرة، في المرة الثانية، إلى كفر. حلَّ الشيطان القديم في جسد الأنثى لتجربه، كما أجبرت جده، أن يقتحم الحرم ويأكل الحرام لينال المنفي والعقاب. هو أيضاً أخذ العشق فتنازل عن نفسه لامرأة. استبدل الصحراء ببنيري فتخلت عنه المكابرة وتركته للقدر الجبار.

باع الرمز السماوي وعبد الصنم الأرضي. الصحراء لا تغفر عشق الأصنام، عشق المخلوقات الأرضية. عرف الآن مكمن السر. عرف أن السر في العشق. الخطر في العشق. اللعنة في العشق. الخطيئة في العشق. القصاص في العشق. الغناء في العشق.

(٥)

حلَّ ظلام آخر. حلكة أخرى عرفها كثيراً. عرفها كل من اجتاز

الصحراء: غمام الظُّمَاءُ عندما يبلغ حَدَّهُ. يتراخى البدن. يتقلص القلب، يجف، يتحجّر، ويسحب الدم والحياة من العروق. يضعف البصر وينزل أَمَّا المقلتين ستار الظلمات. بعدها ترَأَى الرُّؤْيَ وتنطُّلُ الأَشْبَاحَ.

انهار عند الفوهة. تابِعُ الأَشْبَاحَ. استوى الليل والنهار. بدأ الستار يعقد مصالحة بين الظلمة والضوء. الرحلة تبدأ دائِمًا بهذه الصفة. يتَّخِرُ الماء، تقبل الظلمة. تحول النهار لِيَلًا. تظهر الأَشْبَاحَ. تجَرَّهُ عَبْرَ الليل. عبر الظلمات، في رحلة الظلمات. يمشي وراءها في النفق الطويل حتى يحل النسيان ويستوي كل شيء باللاشيء. النسيان يسْهَلُ الانتقال بالأشياء إلى اللاشيء. إذا نسي الظُّمَاءُ نفسه وكفَّ أن يعرف من هو سهل عليه أن يجاذب بالقفز في البئر، لأن النسيان، الغياب، يمسح الخوف من الهاوية ويُسْوِي الحياة بالفناء. أَجْمَعَ أُولَئِكَ الَّذِينْ قَفَزُوا فِي الْأَبَارِ وَانْقَذُوا أَنْهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ غَابُوا عَنِ الْوُجُودِ بِزَمْنٍ طَوِيلٍ. وَلَمْ يَحْدُثْ لَأَحَدٍ أَنْ تَذَكَّرْ شَيْئًا عَنْ السُّقُوطِ فِي الْقَاعِ. كَمَا أَجْمَعُوا أَنْهُمْ فَازُوا بِالصَّفَاءِ وَالْوَجْدِ بِمَجْرِدِ أَنْ فَقَدُوا الإِحْسَاسَ بِالْبَدْنِ وَعَبَرُوا بِرَزْخِ الْأَلْمِ. حَدَّهُ أَحَدُ أَبْتَاعِ الطَّرِيقَةِ الْقَادِرِيَّةِ فِي «سَرْدِلُس» أَنَّ الدَّرَاوِيْشَ يَرِيدُونَ الْوُصُولَ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ عَنْدَمَا يَسْتَلُّونَ السَّكَاكِينَ وَيَبْدَأُونَ فِي طَعْنِ صُدُورِهِمْ. قَالَ أَيْضًا أَنَّ لِيْسَ فِي الْوُجُودِ أَقْسَى مِنَ الْحَجَابِ أَوْ وَزْرِ الْبَدْنِ. يَوْمَهَا لَمْ يَخْبُرْ جَلِيسَهُ عَنْ سَرِّ الصَّحْرَاوِيْنَ. لَمْ يَقُلْ لَهُ إِنَّ الرَّعَاةَ يَصْلُونَ إِلَى الْحَالِ عَنْ طَرِيقِ أَقْصَلِ وَأَسْهَلِ وَهُوَ: الظُّمَاءُ. وَلَوْ عَرَفَ دَرَاوِيْشُ الْقَادِرِيَّةِ السَّرِّ لَمَا احْتَاجُوا أَنْ يَمْزُقُوا صُدُورَهُمْ بِالسَّكَاكِينِ. حَسْبُهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى الْفَلَةِ بِدُونِ مَاءٍ.

أَخْبَرَهُ أَحَدُ الرَّعَاةِ الَّذِينْ انْقَذُوا وَأَعْيَدُوا مِنَ الْفَنَاءِ أَنَّهُ أَحْسَنَ، عَنْدَمَا عَبَرَ الْبَرَزَخَ، بِحَالَةِ مِنَ الشَّفَافِيَّةِ وَالْأَنْتَشَاءِ تَعْجَزُ اللُّغَةُ عَنْ وَصْفِهَا. أَحْسَنَ أَنَّهُ قَبْضَةَ ضُوءٍ. نَسْمَةَ رِيحٍ، مَلَاكٌ بِلَا وَزْنٍ أَوْ بَدْنٍ. ثُمَّ تَحَسَّرُ وَفَاضَ بِهِ الشَّقَاءُ. بَكَى وَنَاحَ وَمَرَّقَ الْلِّبَاسَ عَلَى صَدْرِهِ وَرَدَدَ: «لَيْتَنِي بَقِيتُ هَنَاكَ إِلَى الْأَبْدِ. لَيْتَهُمْ تَرَكُونِي فِي حَالِي». تَرَنَّحَ وَتَمَرَّغَ فِي التَّرَابِ كَالْمَجْذُوبِ، وَاسْتَمِرَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ حَتَّى غَلَبَهُ التَّعْبُ فَنَمَّ. وَعَنْدَمَا صَحَا كَانَ الْقَمَرُ قَدْ

بدأ مسيرته. في آخر الليل أذاع له سرًا آخر. قال إنه لم يحس بيساس ولم يجرِب شقاء كما أحس وجرَب في تلك اللحظة التي فتح فيها عينيه وعرف (هكذا قال : «عرف») أنه بعث من جديد في نفسه ، في بدنـه ، في ذاكرته. وعرف أن لا وجود لخلود إلا في المحو. لا انتقال ، ولا كمال ، إلا في تبديل الجلد على طريقة الحياة التي خدعت الجد الأول وسرقت خلوده. لقد استعارت الطريقة واستأثرت بها لنفسها. بعدها سهرا الليل يتحدىـان عن تبديل الجلود. تولى هو الزمام وروى عدد المرات التي شاهد فيها أفاعي تُبدَّل جلدـها وتبعـث نفسها في ثوبـ جديد ، في بـدنـ جديد ، في شـبابـ جديد ، في حـيـاةـ جديدة.

عليه الآن أن يصمد ويصبر ويـتـظر. عليه أن يـتـظـرـ بلـوغـ حالـ المـحوـ. في المـحوـ نـسـيـانـ يـسـوـيـ بينـ السـهـلـ وـالـجـبـلـ ، السـمـاءـ وـالـأـرـضـ ، الـقـمـةـ وـالـحـضـيـضـ ، الـضـيـاءـ وـالـظـلـمـاتـ ، الـحـيـاةـ وـالـفـنـاءـ. لـنـ يـنـعـمـ بـالـخـلـاـصـ إـلـاـ في حلـولـ المـحوـ.

استلقى على قفاه. فتح عينيه. شخص بحـدقـتـهـ. انـقـشـعـ الـظـلـامـ. تـبـدـىـ السـتـارـ المـعـتـمـ عنـ فـجـوـاتـ بـلـوـنـ عـهـنـ وـرـقـيـ. هـامـتـ التـفـ أـمـامـ وجهـهـ بـكـسـلـ وـاسـتـرـخـاءـ. تـغـمـرـهاـ الـظـلـمـةـ فـتـشـتـ شـمـلـهـاـ وـتـمـزـقـهـاـ إـلـىـ مـزـقـ أـصـفـرـ. وـلـكـنـ التـفـ المـعـانـدـةـ تـعـودـ وـتـجـمـعـ فـيـ قـطـعـ أـكـبـرـ وـتـحـومـ فـيـ الـفـضـاءـ ، فـوـقـ فـوـهـةـ الـمـجـهـولـ. فـيـ الـثـغـرـاتـ أـطـلـ رـأـسـ أـشـعـثـ ، بـعـيـنـيـ دـعـجـاـوـيـنـ (أـمـ عـسـلـيـتـيـنـ؟) وـلـحـيـةـ مـخـرـوـطـةـ. اـقـتـرـبـ مـنـهـ فـأـبـصـرـ الـقـرـنـيـنـ الـجـلـلـيـنـ الـمـعـقـوـفـيـنـ إـلـىـ الـوـرـاءـ. أـسـبـلـ جـفـنـيـهـ ثـمـ عـادـ فـتـحـهـمـاـ. ظـلـ الرـأـسـ الـمـهـبـ يـنـحـنـيـ فـوـقـ رـأـسـهـ ، يـحـدـقـ فـيـ بـعـيـنـيـ الـإـنـسـانـيـتـيـنـ ، الـفـاطـمـيـتـيـنـ. اـسـتـجـمـعـ أـوـدـادـ قـوـاهـ وـحـرـكـ شـفـتـيـهـ وـتـمـتـ بـصـوتـ لـمـ يـعـرـفـ هوـ نـفـسـهـ عـمـاـ إـذـاـ كـانـ مـسـمـوـعـاـ أـمـ أـنـ قـلـهـ هـوـ الـذـيـ نـطـقـ :

ـ آـمـغـارـ؟ جـئـتـ لـتـأـخـذـنـيـ؟ هـلـ آـنـ الـأـوـانـ يـاـ آـمـغـارـ؟ إـلـىـ أـينـ تـرـيـدـنـاـ أـنـ نـذـهـبـ؟

(٦)

قـيلـ إـنـ الـوـدـانـ الـذـيـ تـعـودـ أـهـلـ السـهـلـ أـنـ يـصـفـوـهـ «ـبـالـمـسـكـونـ»ـ ، حـامـ حـولـ

المضارب وتسكع أيامًا قبل أن يخرج له الدرويش. قابله عند الراية المطلة على موقع بيت الزعيم عند الغسق، ورافقه عبر الحضيض، وشاهدهما الناس وهم يتجهان شرقاً نحو العراء السمح المؤدي إلى القمم البعيدة. قال آخرون إنهم سمعوا الدرويش ينادي الحيوان المسكون بـ«أوداد»، فرداً الفريق الذي يرافق له أن ينفي ويشكك في كل شيء: «وماذا في ذلك؟ وهل تريدون الدرويش أن يخاطب صديقه الودان بكلمة أخرى غير أوداد؟»^(*). فعاد الأولون، الذين يتшوقون لأخبار أهل الخفاء ويتبعون تحولات الجن، يتساءلون: «إذا كان الدرويش يرافق وداناً حقيقياً فلماذا ضاحكه وداعبه وخاطبه؟ سمعناهما يتضاحكان ويتحاطبان ويتبادلان الدعابات. سمعنا المخلوق المتخفي في الودان يتكلم بلغة المرحوم أوداد وصوته ولكته». رفض فريق الشك والنفي التسليم ويدار إلى الحجة: « يستطيع الودان المسكون بالجن أن يتحدث بآلاف لغة وبآلاف لكتة. لن يكون الجن جنًا إذا عجز عن هذه الحيلة الصغيرة. أما مخاطباته ومداعبته للدرويش فلا غرابة. لن يكون الدرويش درويشاً إذا لم يخاطب الجن. لقد سمعنا موسى يخاطب أشجار الطلح ويتسامر مع رميم القبور فهل يعجز عن مخاطبة أهل الخفاء الذين يتسامرون حتى مع الرعاء؟».

ولكن غياب الدرويش عن النجع استمرّ. مضت أيام، ثم أسبوع. بحث عنه الناس في وادي الطلح والصحاري المجاورة ولكن لا أثر. بعد أيام عاد به الرعاء من صحراء تادرارت. قالوا إنهم وجدوه نائماً في أحد الكهوف المعلقة.

استج gioوا الدرويش ولكنه رفض أن يعلق على رحلته الغامضة. تعقبته الشكلي حتى اختلت به في العراء. اعترضته ويدأت الاستجواب:

ـ كف عن التهرب وأجبني على سؤال: ماذا أخبرك الودان؟

ـ الودان؟

ـ نعم. الودان. أوداد. هل تظنين لا أعرف السر؟ هل نسيت أنني أمه؟

(*) أوداد: الودان (غاهق).

حاول الدرويش أن يهرب ببصره فأشاح بوجهه نحو الأفق. راقب فرصن الشمس يستحم في نار الغسق فلاحظته العجوز واعتبرت نظرته. غعمت بضميره:

- وهل يستطيع الودان المسكين أن يقول شيئاً؟

اقربت منه خطوة أخرى. حدق في عينيه بنظرة غريبة. خيل له أنها ترتجف. حشرت بوعيد مخنوقي:

- أنا أعرف السر. أنا أم.

ارتبك. تردد. فهددت:

- لا تكذب!

في النهاية وجد نفسه يعترف:

- مَنْ فَتَحَ عَيْنِيهِ عَلَى فِيمَا الظَّلَمَاتِ نَالَ عِقَابَ الرُّؤْيَاةِ. مَنْ رَأَى أُصَيْبَ
بِالْعَمَاءِ وَالْبَكَمِ.

حاول أن ينصرف فاعتراضه من جديد:

- هذا اعتراف لن يشفى غليلي . لن أدعك قبل أن تخبرني ماذا أخبرك .

- من رأى لن يخبر بشيء أبداً. من رأى فقد اللسان.

- هل بدأت تخاطبني بلغة الدراوיש؟

وقف موسى حائراً، عاجزاً، متردداً. لم يجد لغة أخرى غير لغة الدراوיש تصلح للحديث عن السرّ، المحظى، الحلول.

١٠ - المَرْثِيَات

«أهل السرّ: أهل العب، أهل العب: أهل الخطر»
م.ع. الشّنّري

أ- مرثية أهل السرّ

شَقَّتْ في الْطَّلْبِ كَمَا شَقَّتْ فِي الْفَقْدِ. بَلْ إِنَّهَا لَمْ تَتَبَّأْ، عَنْدَمَا تَضَرَّعَتْ
لِلسماءِ وَالْأَرْضِ، لِلْحِجَارَةِ وَالصَّوْرِ طَلْبًا لَهُ، إِنَّ الْاسْتِجَابَةَ سَيَعْقِبُهَا شَقَاءٌ
يَفْوَقُ الْطَّلْبِ. سَيَعْقِبُهَا الْفَقْدُ. لَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ أَنَّ عَطَاءَ الْقَدْرِ رَهْنٌ لِلْقَدْرِ.
هَمَّةُ الْقَدْرِ تَخَصُّ الْقَدْرَ. نَدْرُ الْقَدْرِ سَيَأْخُذُهُ الْقَدْرُ. وَكَأَيِّ أَنْثِي رَاعَهَا أَنَّهَا لَمْ
تُرْزَقْ بِالذِّرِّيَّةِ، خَاصَّةً بَعْدَ أَنْ مَضَى عَلَى الْاِقْتَرَانِ عَامَ دُونَ أَنْ تَحْبِلَ.
اِصْطَادَاتُ السَّحَرَةِ الْمَرَافِقِينَ لِلْقَرَافِلِ، اِشْتَرَتْ مِنْهُمْ تَمَائِمَ الْمَجَوسِ، عَلَقَتْ
فِي رَقْبَتِهَا أَحْجَبَةُ الْفَقَهَاءِ الْعَابِرِينَ وَقَابَيْضَتْ تَعَاوِيذَهُمُ الْقَرَآنِيَّةِ بِالذِّوَابِ، وَلَكِنْ
الْطَّلْبُ لَمْ يَتَحَقَّقْ. اِسْتَجَابَتْ لِوَصَايَا الْعَرَافَاتِ وَتَعَاطَتْ الْمَرَاهِمِ وَأَدْوِيَةِ
الْعَطَارِيْنَ وَلَمْ تَأْتِ الْبَشَارَةُ. يَئِسَتْ. نَاهَتْ. لَبَّتْ نَدَاءَ الْأَسْلَافِ وَنَامَتْ فَوْقَ
الْقَبُورِ.

إِدْبَنِي^(*) هُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَيْهَا بِالْاِتِّجَاهِ إِلَى الْوَدَانِ الْمَقْدَسِ فِي صَخْرَةِ
«مَتْخَنْدُوشِ».

لَمْ يَحْرِقَهَا أَنْ تَعَانِدَ الصَّحْرَاءَ بِدُونِ وَلَدٍ. وَلَمْ يَعْذِبَهَا عَبُوسُ رِجْلَهَا وَنَظْرَهَا
الْبَائِسَةُ لَهَا كَامِرَةٌ عَاقِرَةُ، وَلَكِنْ لَأَنَّهَا كَفَّتْ أَنْ تَرَى فِي نَفْسِهَا الْأَنْوَنَةَ. كَفَّتْ أَنْ
تَحْسَنَ بِأَنَّهَا اِمْرَأَةٌ. وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَخْلُوقٌ فِي الصَّحْرَاءِ أَشَقَّ مِنْ اِمْرَأَةً لَا تَحْسَنُ

(*) إِدْبَنِي: قَبُورُ الصَّحَراءِ الْكَبِيرِ ذَاتِ الشَّكْلِ الْهَنْدَسِيِّ الْبَيْضَوِيِّ، أَوِ الْمُسْتَدِيرِ.

بأنها امرأة. والمرأة لا تكون امرأة إلا إذا كانت منجابةً ثورة. بل لا يكفي أن تكون منجابةً وثورة، وإنما لا بد أن تذر على رجلها الذكور. وعندما ذهبت إلى الودان الجليل المعلق في الصخرة توسلت أن يهبها ذكرًا. الذكور وحدهم برهان الأنوثة في الصحراء. بعد مشورة إدبني اختلقت حيلة. قالت للزوج أنها عاهدت ولائًا في وادي متخندوش وترى أن تفي بالوعد. نزل بها في رأس الوادي. في الصباح خرج وراء الإبل فخرجت إلى الصخرة. ناحت عند حافر الودان وتوسلت أن يرحمها ببذرة البقاء، ويهبها الذرية، أن يلين ويعطيها الولد البكر.

نَذَرْتْ لِهِ نَاقَةً.

انتظرت أسبوع. لم يتغير شيء. عادت إلى الصخرة وركعت للودان. نذرت له ناقة أخرى. استمر الحال حتى وجدت نفسها قد نذرت له سبع نوقي. في ليلة ظلماء زارها رسول الأسلاف الذي رأته عندما توسلت القبر القديم. قال إن الودان لا يريد النوقي ولكنه سيهب الولد إذا نذرته له. قامت مفروعة، وناحت حتى الصباح. مضت أيام من النواح. تمايل مع الشكوة، متظاهرة بمخض الحليب، في حين تسكب دموع الفجيعة في صمت. ثم.. ثم زارها الودان العظيم بنفسه. لن تنسى هيئته وهيبته ونظرته المخيفة. كما لن تنسى ما نطق به. قال: «لا وجود إلا في الجود، والعطاء سر الحياة. لا يفقد إلا من يخل بالعطية». بكت وتوسلت: «ولكن ما حاجتي لأنخذه إذا كنت سأعطيه؟».

قال: «ما يؤخذ يد يعطي باليد الأخرى. كل ما أخذ تذر مملوك لمنْ أعطى». قالت: «ولكنه ولد. قطعة من الجسد». رفع صوته: «ما الولد إلا دمية. الدمية أجدر بالعطاء». بكت: «لا حياة لأنثى بدون ذرية. لا حياة لامرأة بدون ولد». عاد إلى القساوة: «هذا لن ينفي أنه دمية. والمرأة السعيدة هي التي تجود بالدمية إرضاء للآلهة». ولولت. استيقظ الرجل. اختفى الودان.

رحلوا عن متخندوش.

أقاموا في تادرارت شهوراً أخرى. فَكَرِتْ بالنهار وسهرت الليل. قالت لنفسها أنه سيدهب في كلا الحالين. إذا لم تأخذه الآلهة التي أعطته فسيأخذه التراب. وأن يكون وقفاً على الودان أهون من أن يأكله الرغام. ذهبت إلى إدبني وأخبرت رسول الأسلاف أنها قبلت العرض.

جاءت بعد أسبوع.

تعلَّبَت في الحمل والإنجاب ولكن زينة الحياة الدنيا عوضتها الألم وأنستها النبوة. ابتهجت به وبعث فيها روح الشور واعتزاز المرأة المنجب. أعادت لها الدمية ثقتها بنفسها فاسترخت وغفلت عن الوعد. سُمِّتْه «أوداد» تيمناً بالودان العظيم ولكن سعادتها به محظوظة في ذاكرتها الرمز الذي شاءت أن توسمه باسمه إرضاء للودان واستعطافاً له. نسيت النذر ولكن الودان لم ينس. ترعرع وركض وراء الجديان في المرعى فعاد من هناك بالإشارة التي ذكرتها بالوعيد الجليل. اصطاد بِهَمَّةَ وَدَان صغيرة وعاد بها إلى البيت عازماً أن يربيها. وما أن رأت الْبُهْمَةَ حتى نزل في قلبها الوحي. تشاءمت وبكت سراً. ترعررت الْبُهْمَةَ بين يديه وربطتها صدقة حميمة. وبعد شهور، في صباح شتوي بليل، فرَّت الْبُهْمَةَ. هربت إلى العجَال وانضمت إلى قطعان الودان. بكاهما أوداد أياماً. صام عن الطعام والشراب وراقب القمم ساهماً. طالت به الكآبة فخامرها شعور غامض. رأت في هرب الْبُهْمَة إشارة من الودان الأب. الودان الأب أراد أن ينبعها بقرب الميعاد. فهل ينوي أن يسترّ «حاجته» بهذه العجلة؟ هل في هذا إيماءة بنهاية السعادة؟ هل ستُفْرِّي الدمية من يديها؟

لم يطل الانتظار. بدأ أوداد يغيب في المراعي. وعندما تقصَّتْ، مع الزوج، ضياعه المشبوه اكتشفا أن الولد يترك الجديان في السهول ويتسلق الجبال بحثاً عن الْبُهْمَةِ الضائعة. لم تستطع أن تثنية عن صعود العجَال، كما فشلت في إيقاعه بعثت البحث عن الْبُهْمَة لأنها التحقت بالقطيع وكبرت وأصبحت وَدَانَ يصعب التعرُّفُ عليه. ولكن المنع زاده عناداً وضاعف لهفته في استعادة الْبُهْمَة. احترف تسلق العجَال واستمرّ حياة الكهوف. فشلت تماثيم السحرة وتعاريف الفقهاء في إزالة من القمم وإعادته إلى السهل. مرّت

أعوام قبل أن توحى لها غريزة الأنثى أن المرأة هي المخلوق الوحيد، هي التميمة السحرية الوحيدة، التي تستطيع أن ترَكَ الرجل وتنزله من السماء السابعة. دَبَّرت له الوهق وربطه بالفاتنة «تافاوت». ولكنه تمرَّد على الوهق بعد زمن قصير فأيقنت أنها تتحدى الودَان القديم. تتحدى مَنْ وَهَبْ. تتحدى الآلهة. أقنعت نفسها أن التراجع عن الإستئثار وقبول الأمر الواقع أهون من فقد. أهون من استفزاز الودَان - الأب ودفعه للغضب. رأت في قبول الأمر الواقع إيفاء بالعهد.

هذا عن السرّ الأول.

أما السرّ الثاني فكان خيئاً، منذ الأزل، في مربع الصِّلْدِم المرفوع على رأس الجبل المستحيل. سلَّمت بالجبال قدرَأ له ولكنها فزعت عندما وصلها خبر الرَّهَان. أدركت أن الرَّهَان ما هو إلَّا إشارة تنبِئ عن حلول أوان الفراق. لأن الضَّبَّ، جَدُّ الأَتَابِعِ، زَحْفٌ إلى الجبل واحتكم للودَان في مأساته.

حدَّثَهُ كيف أثار غضب السماء عندما استحَمَّ في الغدير ونَجَّسَ الماء ليجد نفسه ممسوحاً يزحف على أربع وطلب من الودَان أن ينتقم له من أهل الصحراء الذين وشوا به وتسبيوا في تحوله في الضَّبِّ البائس. انتصر الودَان العظيم لمحنته ووعده أن ينتقم له من الصحراويين الأشقياء. منذ ذلك اليوم بدأ حملته، وأصبح يصعد بالناس إلى القمة المستحيلة ويرميهم، بالتعاون مع الجن، في فوهة الظلمات. منذ ذلك اليوم ذهب إلى الأبد كل مَنْ وصل إلى الرأس ووقف على رأس الضَّبِّ وشاهد الفوهة. أمَّا الضَّبُّ اللثيم فنال الصَّبا إلى الأبد. لأن الودَان عُوْضَهُ خسارته وخلع عليه لباساً يستطيع أن يغيِّرَ كلما شعر بالشيخوخة فيستعيد شبابه.

وها هو الودَان يستدرج أوداد إلى هُوَةِ الظلمات ليأخذه إلى الأبد. إذا تسلق الألواح وجلس على الضَّبِّ فلن ينزل مرة أخرى. الآن أَحَسَّ أنها اخطأت لأنها لم تعرف للولد بالحقيقة. لم تخبره بدم الودَان الذي يجري في عروقه. لم تبح له بالسرّ الفاجع. بِأَبْوَةِ الحيوان المطبوع على صخرة

متخندوش. الآن ستدفع الثمن وحدها. ستحزن وحدها. ولكن.. ولكن هل يمكن أن يغير الاعتراف من الأمر شيئاً؟ هل تستطيع أن تنتهي مصيراً كتبه عليه القدر قبل أن يولد؟ هل تستطيع أن تحفظ بالدمية رغمَ عن الوهاب الذي أعطاها؟

لو حاولت لكان ذلك تحدياً للأسلاف والوَدَانِ و.. النبوة.

ب - مرثية أهل الحَبَّ

كل الأنام تبكي. كل الخلق يتساءل: لماذا لا يعودون؟ لماذا يستمرُّون الظلمات ويخفون إلى الأبد؟ هل السبب في بشاعة ديننا؟ أو في بهاء الخفاء وسكون الظلمة؟ وهل يمكن أن يكون الخفاء بهيأة؟ هل يمكن الاستئناس بوحشة الظلمة؟ وهل وجه البدائيات قبيح إلى هذا الحد؟ هل الصحراء قاسية وبائسة حتى يقدر المسافرون أن يهجروها إلى الأبد؟ وهل العويل تعبير عن الحسرة على المسافر الفقيد أم عجز عن فهم اللغز وفشل في إدراك حقيقة المصير؟

هذا حال الخلق. هذا لسان الأنام.

ولكنه يستطيع أن يقف على السر. ولم يتوقف عن استنكار الاحتياج إلى عندما عرف السر. الخلاص القاسي من قبو الوعاء، المعاناة الوحشية لحظة الخروج من القفص. إنعتاق العصفور الخفي والتحاقه بالأصل الوضاء، بالفِيَض السماوي. في اللحظة العسيرة تتحقق الرؤية ويتم الميلاد. الميلاد لا يتم إلا بعبور صراط الرؤية. ولكن العصفور لا يفوز دوماً بدخول بوابة الفردوس إلا بعد قطع طريق طويل من التقلب والانتقال والتحول. الحظيرة بالنعميم عبر جحيم البعث. أوداد قطع الشوط الأول ودخل في الوَدَانِ. عندما اعترضه عند حضيض الجبل سأله عن التقلب: «قل لي: هل تالمت كثيراً؟ هل كان البعث قاسيّاً؟ هل أوجعك الحلول؟ حدثني: كيف تجد نفسك الآن؟ أليس وعاء الوَدَانِ أرحم من هيكل الإنس؟ أليس مأوى الحيوان أنعم من مثوى البشر؟ ولكن.. ولكن لماذا ألمي في وجهك بالاستفسارات

البلهاء؟ أنت ودان منذ البدء. أنت ودان منذ الأزل. كنت ودان طوال الوقت.
ها. هل تظنني أجهل السر؟».

رفاقه في رحلة الصحراء. في الطريق استجوبه مرة أخرى: «الأ杰در أن تحدّثني عن نفق الظلمات. كيف هي الفوهة؟ هل هي مخيفة؟ قل لي : لماذا يؤثّر المسافرون أن يبقوا هناك إلى الأبد؟ لماذا تقطع أخبارهم؟ لماذا يخفون عن حال الغيب؟ لماذا يحرمونا أن نعرف المصير؟ لماذا يحرمونا أن نعرف ويزيدون الطّلسم غموضاً بغيابهم المبهم؟ لماذا يضاعفون شقاءنا؟ لماذا؟ لماذا؟». إكتأب الودان العظيم. تباطأ في خطوه. حجب العزنَ الْأَنْ مقلتيه العسليتين. طفرت دمعة صغيرة من عينه اليمنى. تعلقت بأهدابه الطويلة ووضعت في قرن الشمس كقطرة ندى. لم يلاحظ رفيقه كيف شهد كالمتبول.

عاد الدرويش إلى الاستنطاق: «ولكن لا تقلُّ. أعرف أن البكم قصاص الرؤية. أعرف أن العجز عن النطق جزءٌ من فاز بالرؤية. أعرف أنك لن تنطق ما حييت. لا تخفْ. هذا ثمن يدفعه كل من يشرف على الغيب. المحو قدر المخلوقات. محو الذاكرة وقطع اللسان. هذه حيلة لقطع الطريق على ثرثرات الخلق. لو لا هذه الحيلة لبُطل العجب وكفَّ المجهول عن أن يكون مجهولاً. لو لا المحو، لو لا البكم، لا نكشف سرَّ الصحراء. وإذا عُرف السر انقلب الكوكب وتبدى الباطن واحتلَّ الميزان وانتهت السكينة. وحتى لا تحلُّ الفوضى وتطير الصحراء بجناحين وتنزل السماء إلى الأرض اصبر على العقاب. اصبر على البكم، وعلى المحو. هل تعدني أن تصبر على الجزاء؟».

ارفع قرن الشمس.

أسرعا. هرولا. تبدَّلت القمم المكابرة برؤوسها الرمادية وجلالها الأبدى. صالح الدرويش دون أن يتوقف عن الركض: «في قلبي سرٌّ عن صراط البعث. لن أبُوح لك به حتى لا يفسد. أنت لا تعلم كم يفسد اللسان الكريه الأشياء عندما ينطق بها. أنت لا تعلم شيئاً عن ابتدال النطق، عن قدرة الصوت، الحرف، في انتهاء الحرمات، في فضٍّ بكاره الحرمات. النطق

مجرم يخرب ويذنس ويفترع . النطق رجس من عمل الشيطان . أنت أسعد مخلوق ما ظللت عاجزاً عن النطق . الصمت حرمك والنطق كفرك . أنت الآن ملاك وأنا شيطان رجيم . أحسدك برغم أني أحاول أن أقاوم الرجل وأأسكت . وعندما أعجز عن السكوت أذهب إلى الجبل أو الطلائع وأحدثه بالأمر . ولكن الرياح تأتي فستنطلق الطلائع وتستجوب الجبل . تنزع منها السر وتأخذه إلى كل مكان . كن سعيداً في حرمك حتى يحنَ الله ويخصني بما خصك به . ساعتها ستعرف أمري بدون نطق ، دون أن أضطر لتخريبي بالرجس » .

أضاءت مقلتنا الودان ببهجة فعرف الدرويش أن في قلب الرفيق نزلت سعادة .

ج- مرثية أهل الخطر

أخذها بالطائير . أخذها بالغناء . لولا تعلق أهل الصحراء بالشعر والطرب لما امتلك السلطان على قلبها . ضعف الصحراويات أمام الغناء ، عشق الصحراويات لهذا الحرم هو الذي مكّنه منها ، من قلبها ، من خطف العصفور المحبوس في صدرها . هذا العشق المجهول ، المشوب ، المجنون ، الذي لم يهدى من جذوته حتى أصلها الحبشي ، بل ضاعف ، ربما ، من أجبيجه وجذونه . فورة الدم الحبشي زادت تعلقها بالشعر . . بالعشق أيضاً . الحياة يكبح جموح العصفور الدفين في صدر الصحراوية الأصيلة ، ولكن الدم الحبشي الذي يجري في عروقها هو الذي صنع منها هذا الهجين الجسور الذي أصبح أمراً يتحدث به لسان الصحراء الوسطى ، هو أصل الاندفاع العاطفي الذي جعلها تنزل من سماوات الإمارة والسلطان لتعشق راعياً ضائعاً من الأتباع يسكن الكهوف ورؤوس الجبال . شيخ «واو» أرجعوا المجازفة إلى غرابة أطوارها ، ووجهاء القبيلة ، الذين لم يستطيعوا أن يتحرروا من عدائهم القديم لرنج الأدغال ، علّقوا السبب في رقبة الجنون وخفّة العقل التي يتميّز بها العبيد . وصلها أنهم استنكروا تعلقها بأوداد ورأوا في ذلك تنازلاً عن أوخا وإهانة لكل النبلاء فقالوا : «ولكن ماذا يمكن أن يُرجح من امرأة

مشبوهة تجري الدماء الزنجية في عروقها؟ العرق دسّاس حقاً!». ذهبوا إلى السلطان وحاولوا أن يُؤلّبوا ضدّها، ولكنه صدّهم. بلّغها أنه قال لهم أنه لا يستطيع أن يحملها على ما لا ت يريد تنفيذاً لوعد تقدّم به أمام السلطان أورغ قبل الانطلاق، ولن يحيث به حتى لا يرضي الأحياء على حساب الأموات. حدّثها بعضُ الخدم كيف أمر بنحر الذبائح وإعداد الوليمة لوفد الوجهاء حتى يغريهم بالإستماع. إنّكأ على الجدار وسهر الليل كله وهو يروي لهم أحكاماً قال إنها مستعارة من آنهي، وقصصاً شيفة أخرى عن سلطة المرأة الآيرية وجاهها القديم حتى انتهى إلى تقديس رجالهم لهذا المخلوق الغامض ووضعها في مستوى الآلهة. ذكرهم أيضاً أنه استمدّ هذه الأحكام من تراث الأسلاف الذي نسيه أهل آزرجر بسبب إنشغالهم بمحاربة بنى آوى وشنّ الغارات على سكان الأدغال. أخبرتها جارية نبيه أنه قال بالحرف: «هل يعلم الوجهاء الأفاضل لماذا يرونني بدون زوجة؟ هل يدرى النبلاء لماذا لم أركن إلى اعتاب هذا المخلوق المقدس؟ لأنّي أعرف سرّاً لا يعرفه كلّ البليهاء الذين يجازفون بالإقدام على هذه الخطوة. أعرف أن الواجب يقضي على الرجل الذي قرر أن يربط مصيره بإمرأة أنّ يهبها نفسه كلّها، لأنّ يسخر لها وجوده، لأنّ يركع لها، لأنّ يبعدها، لأنّ يحوم حولها كما تحوم الفراشة حول النار. لأن المخلوقة، الإلهة، ستتعاقب بأشرّ جزاء إذا لم يفعل ذلك. ستقلب نعيمه وتحرقه بالنار. سيسقطي، ولن يجد للحياة طعمًا ولا معنى. ولما كنت لا أرى في نفسي الكفاءة في تسليم نفسي لها فقد آثرت أن أبتعد وأحترف التجارة. التجارة لعبة أهون خطورة من المرأة. تستطيع أن تخسر صفقة في التجارة، صفقات ولكنك تستطيع أن تستعيد الخسارة وتربح مرات. أمّا مع المرأة فإن الخسارة تحدث مرة واحدة. صدّقوني إنها مرة واحدة وأخيرة». ضحكت يومها على فرّاسته، وأعجبها رأيه في المخلوق الغامض، كما يروق له أن يسمّيها، وعرفت لماذا يتحاشى أن يفصح عن آرائه بحضورها. عرفت أن التزامه بدستور الحياة العائلي ليس السبب الوحيد في تجنبه لآرائه في الحياة والمرأة والتجارة. السلطان يخفى سرّاً أكبر، تجربة أكبر تجهلها كما تجهل أشياء كثيرة أخرى عن حياته.

صُدُّهُ الحكيم لشکوی الوجهاء كان تصريحاً رسمياً لها بحرية الاختيار. الاختيار الذي كُبِّلَها بأصفاد من نوع آخر. قيدها بأوزار جرى عرف الصحراء أن تكون امتيازاً في عنق النبلاء، قيدها في عنق الأحرار. العبيد كانوا أكثر حكمة عندما اختاروا العبودية وسلموا زمام الأمر للسادة. والساسة كانوا أغنى مائة مرة لأنهم رضوا بتسليم زمام الأمر وأنطلت عليهم الخدعة. ولا أحد يتصور صعوبة الزمام وقوتها صراط الحرية إلا بعد أن تنزل المأساة ويفوت الأولان. الاختيار ضللها أيضاً وأفسد حياتها. وإذا استطاع هذا المارد أن يحطم حياة أقوى الفرسان ويدفع أعنى السادة إلى التهلكة فكيف لا يفسد حياة امرأة وحيدة، يتيمة، مهاجرة في أرض الأغرب، تخلى عنها ولِي أمرها وتنازل عنها للأقدار بدعوى حرية الإختيار؟ هذه الحرية هي التي جعلتها تعشق في أوخا نبله وكبرياته والتزامه بالمراسيم كما عشقت في أوداد قلبه وتعلقه بالغناء والجبال. طالما تمنت أن يكون أوخا بقلب أوداد كما تمنت أن يكون أوداد بهيئه أوخا، أن يَحْلُّ قلب أوداد في بدن أوخا. بهذا الحلول يتحقق الكمال. يكتمل الجمال، الأسطورة، الرمز الصحراوي القديم للرجلولة، للفروسيّة، للبطولة. وما ترددتا بينهما، الذي بدا للناس مشيناً ومهيناً، إلا ثمرة لهذه الرؤية. هكذا رأتهما. هكذا أحبتهما. هكذا ربطهما، فأصبحا رجلاً واحداً، معشقاً واحداً، يكمل أحدهما الآخر. ولو لا هذه الجسارة، التي عرفت الآن أنها لم تكن إلا وهماً ووحاحة وزندقة صنعتها الاختيار الفاجع، لما ترمنت قبل أن تفرح، لما فقدت قبل أن تجد. ولو تولى السلطان الأمر عنها كما يحدّر بولي الأمر، لو اختار لها كما يختار السيد عبداً لأمهاته المملوكة لتحاشت الفجيعة واستقام لها الأمر. تذكّرت نبوءة الدرويش عندما حذّرها من الخطر، حَطَّرَ أن تُؤْدِع قلبك في وعائين في آن معاً. القلب لا يتحمل أن يُرْهَن لمعشوقين. الكفر أن تشطر القلب إلى نصفين حتى لو كان الشطوان نذراً لإلهين. استهانت بالنبوءة فنالت الجزاء: خسرت الراهن.

* * *

١١ . القدر

«هناك شيء واحد أقوى حتى من الآلهة: القدر!»
جواب إله دلفي عن سؤال للملك كريز
هيرودوت «التاريخ»

(١)

آبَا تميَّزَتْ عنِ الجَمِيعِ. عَجُوزُ الْهُوْسَا اخْتَلَفَتْ عَنْ كُلِّ مَنْ أَحاطَ بِهَا فِي الطَّفُولَةِ. مَا زَالَتْ تَحْفَظُ فِي قُلُوبِهَا لِهَذِهِ الْمَرِيَّةِ الْحَكِيمَةِ بِذَكْرِهِ خَاصَّةً. عَامِلَتْهَا الْأُمَّ بِرُودٍ يَصِلُّ حَدَّ الْخُشُونَةِ وَالْجَفَاءِ. لَمْ تَقْدِرْ أَنْ تَمْحُو هَذَا الْانْطِبَاعَ مِنْ قُلُوبِهَا، كَمَا لَمْ تَسْتَطِعْ، إِلَى الْيَوْمِ، أَنْ تَغْفِرْ لَهَا هَذِهِ الْقَسَوَةِ بِرَغْمِ مَحَاوِلَاتِ آبَا لِلتَّخْفِيفِ عَنْهَا وَتَعْوِيْضِهَا الْحَنَانَ الْأُمُومِيَّ الْمَفْقُودِ. وَالسَّبِيلُ لِمَ بَغَ عَنْهَا حَتَّى فِي الطَّفُولَةِ الْمُبَكِّرَةِ، لَأَنْ هَمَسَاتِ الْجَارِيَاتِ الْفَضْولِيَّاتِ نَقَشَتْ فِي صِدْرِهَا أَسْبَابًا تَتَحَلَّلُ الْأَعْذَارَ لِلْأُمَّ. سَمِعَتْهُنَّ كَثِيرًا يَتَهَامِنُ بِأَنَّ الْجَبَشِيَّةَ كَانَتْ تَنْوِي أَنْ تَهْدِي السُّلْطَانَ الْمُحْرُومَ مِنَ الْذُرْيَةِ، ذَكَرَأَ يَسْاعِدُهَا فِي الإِسْتِيَّلاءِ عَلَى فَرْزَادَ السُّلْطَانِ وَسَلْبِ السُّلْطَانَةِ. كَانَتْ تَرْسِي كَكِلَ الْجَبَشِيَّاتِ أَنَّ الْوَلَدَ أَمْتَنَ وَهُقِّ يَمْكُنُ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ. وَعِنْدَمَا رُزِّقَتْ بِتَبَيْرِيِّ، بِذَلِكَ الْوَلَدِ الْمُنْتَظَرِ، أَصْبَيَتْ بِالْخَيْيَةِ وَظَلَّتْ تَنْوَحُ وَتَمْرَقُ وَجْهَهَا طَوَالِ أَيَّامِ الْتِفَاسِ.

وَتَنَاقَّلَتِ الْأَلْسُنُ الْفَضْولِيَّةُ رَوَايَةً تَقُولُ إِنَّهَا لَمْ تَوْقَفْ الْمَرِيَّةَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَدْخُلَتْ آبَا نَفْسَهَا وَهَمَسَتْ فِي أَذْنَهَا أَنَّ السُّلْطَانَ قَرَرَ أَنْ يَطْلُقَهَا وَيَعِيْدَهَا إِلَى بَلَادِهَا إِذَا اسْتَمْرَتْ فِي الْعَوِيلِ.

أَمَّا مَعَالَمَةُ الْأَبِ فَكَانَتْ أَكْثَرَ حَنَانًا. وَبِرَغْمِ مَا تَرَدَّدَ فِي الْقَصْرِ مِنْ أَقَاوِيلِ قَبِيْحَةِ تَهَمَّهُ أَنَّهُ رَفَعَ السَّلَاحَ وَغَدَرَ بِعَمَّهِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَسْدِّدْ يَوْمًا هَذِهِ

الشائعات. وظلَّ الدفء رباطهما المشترك. ولكن الأب كان سلطاناً. وأباً
قالت لها أن على الفتاة الذكية، على الأميرة، أن تقنع من عاطفة الأب بقدرِ
إذا كان سلطاناً. أبناء السلاطين لا يتظرون أن يفزوا بإهتمام أكثر مما يسمع
به وقت الآباء عندما يكونون سلاطين. الأبوة والسلطنة لا يجتمعان. هكذا
لقتها المريمة. لا تستحضر ذكريات الطفولة إلا و تستثار العجوز النحيلة،
المقصوصة الوجгин، بالنصيب الأول. فتحت عينيها على القصر وجدت آباً
تجوس في ردهاته. لم تجد الأم ولا الأب ولكنها وجدت عجوز «كانو»
فعلمتها الرطانة. لم تعلمها الهوسا وحدها، ولكن هي التي علمتها «تماهق»
وهي التي علمتها «الأمهرية» أيضاً^(*). علمتها اللغات كما لقتها الحياة.
قالت إن ثمة حياة سرية في كل لغة، ومنْ تعلم لغة واحدة عاشر مرة واحدة،
ومنْ تعلم ثلث لغات عاشر ثلث مرات. قالت أيضاً أن اللغة تفتح الرأس.
والمرأة أول منْ يحتاج للرأس المفتوح لاستعماله في غرض المصير. لا تنسى
كيف كانت تأخذها من يدها وتحلس بها في الفناء الخلقي، للتمتع بشمس
الصبح في أيام الشتاء. تأتي بالدهون والطيب والرماد المحمي، ليبدأ في
مراسم الشعر. تغسله بالماء الدافئ. تمشطه بعناية. تسرّحه وتعرضه
للشمس، ثم تلطّخه بالرماد وتحفنه بالماء الدافئ من جديد. تجففه وتركه
يشرب من شعاع الضحى. في المرحلة الأخير تُشع في تغذيته بالدهون
ومساحيرات النبات لتضفره في جداول طويلة، دقيقة، تحيط بالوجه من
الجانبين، ثم تشي إلى الوراء، لتطوّق الجيد من الخلف. في البداية أثارت
فيها الطقوس ضجراً فحاولت أن تمرد وترفض. ولكن آباً الحكمة أخبرتها
أن على الأئم أن تتمتع بتسريح شعرها وتتلذذ بجمالها طالما مَنْ القَدْرُ عليها
وخلقها امرأة. اعتادت خلال العمل أن تسلّيها بالأساطير، ومع تدفق الزمن،
وتقديم العمر، بدأت تنزل من سماوات الماضي وتقترب من أرض الحاضر.
تروي لها سير النساء الذكيات والغبيات. يوم تروي فيه سيرة امرأة غبية، ويوم
مخصص لرواية سيرة امرأة ذكية. وكانت تسمع، بالروايات التربوية، أن

(*) الأمهرية: لغة الأحباش.

تصل إلى النتيجة التي أعلنتها أخيراً، وظلّت تُلْقِنَها لها طويلاً.

قالت: «الرجل قَدْرُ المرأة. ولا يمكن أن يكون للمرأة غاية في الحياة سواه. وكل النساء اللائي بحثن عن شيء آخر، هدف آخر، سَرِّ آخر، ضيَّعن حياتهن وضعن. الله لم يخلق في الكون شيئاً بلا معنى. وعندما خلق المرأة مخلوقاً جميلاً قَدْرَ للرجل أن يقطف هذه الشمار. والشمار تذبل وتندثر في الفناء إذا لم يقطف في موسم الحصاد. المرأة الذكية هي التي تهيء نفسها للقطاف. المرأة الحقيقة هي التي تتزين وتتجمل لتكون أبهى وأشهى إنسجاماً مع شريعة الكون وامتثالاً لإرادة الآلهة. ولذا فإن المرأة الذكية دائماً سعيدة. أمّا المرأة الأخرى، الشقية، فمخلوقة غبية إذا بحثت في الحياة عن شيء آخر غير الرجل». لم تكتف آياً بجعل الرجل إلهاً للمرأة ولكنها روجت لفكرة أخرى أكثر إثارة. قالت لها إن المرأة حُلِّقت لتكون مُلْكَةً لكل الرجال، أو، بالأصل، الرجال هم الذين خُلِّقوا ليكونوا مُلْكَةً للمرأة. المرأة الذكية، التي تطبع الله في شريعة الكون، هي الساعية للاستيلاء على أكبر قدر من الصير، من الرجال. وعلى العكس، فإن المرأة الغبية، الضعيفة، الشقية، هي التي تكتفي ب الرجل واحد وتوقف عند هذا الحد. هذه المرأة شقية لأنها توقف على حافة الفناء، لأن تكريس الحياة ووقفها حكراً على رجل واحد مجازفة خطيرة، تقلب دائماً على رأس المرأة. ولكن المرأة الحقيقة يجب أن تكون ثعلباً يحفر سبعة جحور، حتى إذا حُوصر في حجر تسلل، عبر المنفذ السري، ودخل الحجر الثاني، فإذا داهمه الخطر هنا أيضاً، قفز إلى الباب الثالث في السرداد. على المرأة أن تتحاط على طريقة الثعلب. على المرأة أن تحتذى بالمهاجر الصحراوي الذي لا ينطلق في الرحلة إذا لم يعرف موقع البئر الذي سيرده. بئر واحد خطر على حياة المرأة. لا بدّ للمرأة من آبار في رحلة الصحراء، رحلة الحياة. لا بدّ للمرأة من بئرين، وهو أضعف الإيمان. وهي لا تلتجأ إلى هذه الحيلة الحكيمية انقياداً للشهوة أو سعيّاً وراء الذكور، ولكن هذا ضروري لتنقية مزاج الرجال المتقلب. المرأة التي تريده أن تحمي نفسها لا يجب أن تثق بالرجل أبداً. عليها أن تحبه، تداعبه، تحنو

عليه ك طفل كبير، ولكن عليها أن تعلم أنها ستخسر الرهان في اللحظة التي تمنحه فيها الثقة. الثقة جوهرة نفيسة لا ينبغي وضعها في يد الطفل حتى لو كان يدعى أنه رجل. والمرأة لن تعرف أبداً لماذا يرroc لهؤلاء الأطفال الأشقياء (الذين نسميهم رجالاً) أن يخونوا الثقة لأنهم يجهلون السبب هم أنفسهم. وأغلب الظن أن هذا يحدث استجابة للنداء المجهول الذي يدعوهم للتحرر من القيد ويوهمهم بأن في ذلك وصول إلى «واو» التي لا وجود لها لا في الصحراء ولا في السماء. قالت لها أن «واو» لا وجود لها إلا في خيالهم، في عقولهم. «واو»، في رأيها، وليدة العقل الطفولي، شقاوة طفولية. وشوّقهم إلى هذه الواحة، وبحثهم الوحشي، دليل على أن كل رجال الصحراء هم أطفال كبار، أطفال أشقياء. وعلى المرأة أن تتولى أمرهم وترعاهم بحكمة الأم الرحيمة. الطفل يضيع إذا لم تتوله الأم وتضع حداً لمعاقراته الخطرة. البحث عن «واو» إحدى هذه المغامرات، وخيانة الثقة، التنصل من الواجب أمام المرأة، المغامرة الثانية، المجازفة الأخطر التي ستدفع المرأة ثمنها: المرأة الغبية. أما الذكية، الشيطانة التي تفكّر وتمتنق سلاح الشطارة فعليها أن... .

هنا توقف أناملها النحيلة، النشطة، عن اللعب والتمسّيد وشدّ خصلات الشعر. ترفع رأسها المنكّس بسبابتها ثم تحدّق فيها عينين حمراوين مخيفين وتنهيأ للتلقيين. تكمل الجملة بإهتمام وغموض: «... عليها أن تقيد الطفل الشقي، عليها أن تحفظ بالرجل الفدّار، بشيئين. بهذين...» تضرب رأسها بقبضة يدها. وتهض على قدميها بخفة لا تتناسب مع سنهما، وتضرب على فخذتها اليمنى بيدها ثلاثة مرات متتالية قبل أن تهداً وتتعدّل للجلوس. تكمل: «... الرأس والفخذ شرك الرجل. بالرأس والفخذ تستطيع المرأة أن تربّي الطفل الشقي، الرجل المغامر. بهذا الفخ تمنعه من المجازفة والغدر». ولكنها تعود في مرات أخرى للتحدث عن الاحتياط، عن البئر الثاني، عن امتلاك الرجال الآخرين. رأت في الحيلة يقظة، استفاراً، كثراً دفيناً تستعمله المرأة عندما يحين الوقت.

في البداية استمعت للتعاليم بلا مبالاة طفولية. ثم بدأت تهتم وتندهش

وبتسم. وعندما وَعَتْ في نفسها الأنوثة واستدار الرِّدفان وتَكُورَ فيها النهدان، أصبحت تُشَرُّقُ وتصغي لها بمعنة فتاة تفتح وتتلهَّف لفهم لغز الحياة والرجال.. إلى أن تدخلَ رجل من الحاشية ليفتح عينيها على دهليز آخر كان مغوراً بالظلمات. كان يتوَلِّ المخازن ويشرف على التموين. طوبل القامة، هزيل البنية، يتلَّع بعمامة بيضاء يحرص على نظافتها دائمًا. يجرُ رجلاً عرجاءً أصيَّت بسهم مسموم في إحدى معارك الأدغال عندما كان محاربًا في جيش السلطان. ويُقال إن مواهبه الحربية قُرُبَتْه من السلطان فقرَّبه وسلَّمه مفاتيح المخازن ليشرف على تموين القصر. اسمه دودو، ولكن السلطان يدَّله ويناديه بـ«امنوكال»^(*) من باب الدَّعابة والإجلال لماضيه الفروسي. جاءها امنوكال في أحد الأيام وأخذها من يدها ليختلي بها في الزاوية. كانت آباً قد ألقَتْ عليها درساً مدهشًا عن كيفية تحرير الطفل الشرير (بروق لها أحياناً أن تصف الرجل بـ«الطفل الشرير» بدل «الشقي») من المرض الخبيث الذي يعني منه كل الرجال، من الوهم القبيح الذي كان سبباً في شقاء المرأة، وهم الحرية. لا تُنكر الآن أنه كان درساً شيئاً. ولكن امنوكال حذرها من تعاليم العجوز وأخبرها أن كل ما علِّمته لها هو من تعاليم المجنوس. وعندما سأله عن تعاليم المجنوس قال لها بعجلة مَنْ يتَجَنَّبُ الجواسيس: «إنهم يؤمنون بالذهب بدل الله. شربُتُهم التُّبرُ وليس القرآن». تلك الإشارة فتحت عينيها على الصراع في القصر بين الخدم المسلمين والآخرين الذين يعتقدون المجنوسية. وظلَّ الصراع يشتدُّ كلما استدانَ السلطان التُّبرَ من زعماء الأدغال ليُنشَط حياة التجارة في السلطة.

راقبت الخلاف بين الطائفتين وهو يتضاعد ويتحول إلى أحقاد ودسائس، ولم تندهش عندما شهدت اليوم الذي اختفى فيه امنوكال من حياة القصر، فاستنتجت انتصارَ عبدة التُّبرِ وسيطرة دين المجنوس. وهو دين لم يتصرَّ داخل القصر إلَّا بعد أن تسلَّط على السلطة ورَكعَ تينكتور كلها. ولم يمض وقت طوبل على زيارة زعيم بامبارا إلى الواحة حتى تهامت الجاريات الفضوليات

(*) امنوكال: الأمير (تماهن).

في ردهات القصر برأؤيا السلطان. ورغم التحرير الذي فرضه أبوها على النبوة إلا أن فضول الجاريات وتعطشهن للقليل والقال جعل الإبقاء على الأسرار أسراراً في القصر عملاً مستحيلاً. روت لها الرؤيا جاريتها الحبشية. لم يطل بها المقام بعد الرؤيا. وعندما آن الرحيل ودعتها آباً باكية وأوصتها أن تحفظ وصايتها. ولكن العجوز لم تتبناً بأنها، بينما تنهك في ضفر جداول الأميرة وتديرها للرجال، كان القدر يُعِدُ لها مصيرآ آخر.

(٢)

فرَّت من هاوية آمناي فلاحقها إلى آزجر برسوله القبلي. الذاهية تيميط أول من عرف السر فأسكنتها بنصيحة من آناي. اشتربت منها السكوت بالتبُّر وقطع الذهب مستعينة بعقيدة المجنوس التي تدعى لجس نبض المرء ببريق الذهب فإن رأيت في عينيه ميلاً للمعدن النفيس سهل شراء ذمه. سهل عليها أن تستميل العرافة وتشتري صداقتها مستعينة بسلطان الذهب كما اشتربى السلطان الإمام وسخره لمساندته في بناء «واو» مستعملأً نفس الوسيلة. وأول شيطان اهتدى إلى السر هو الدرويش. هذا المخلوق أول من نبه إلى خطورة الذهب على السهل مدفوعاً بآراء صديقه الزعيم. الدرويش والزعيم أخطر من في السهل، لأنها تعلمت، فيما بعد، أن أحضر الناس على من يمتلك الذهب هم أولئك الذين يعادون الذهب ويرون فيه معدناً منحوساً. الكل حذرها من هذه الفتة. السلطان أول من حذرها.

وعندما أهدت السوار الذهبي للدرويش ككراء على تبليغ الرسالة أدركت أنها ارتكبت خطأً. أدركت أنها غفلت وخالفت الوصية عندما أخبرها الخدم بالطريقة القبيحة التي عامل بها السوار فسخر منها ومن هديتها. ويُقال إن هذا الشيطان (أم الملائكة؟) ورث هذا العداء للمعدن من أجداده المرابطية الأوائل الذين فحروا الأدغال ودعوا للزهد وشنوا الحملات على عَبَدة التبر والأوثان. أما الزعيم فأصرmer له العداء بسبب ما زعم من أنه لعب دوراً في هلاك جدته على يد الجن الذين يعتبرهم أهل الصحراء الوسطى ملائكة الذهب الأصلبيين.

وإذا كان المعدن قد أضاع تمييز والإمام كما أضاع الآلاف من سكان الصحراء الجنوبية قبلهم، فإن ضياعها دخل إليها من باب آخر غير التبر. ضياعها جاء من حيرتها في الاختيار بين الرجلين وترددتها الذي سماه الدرويش الشيطان «التردد القاتل»، بين النقيضين. تعلقت بالعصفور الشفاف الذي يعني في صدر أوداد ولا يحط إلا على القمم المجاورة للسماء. وأحبت في أوكا فخامة النبلاء ورجلة المحاربين. إنقادت إليه بعين أصلها الأ Zhu، بعين الأميرة، بعين الكرياء ورؤيا المكابر. الدم الأزجري، الانتماء إلى قبائل «أوراغن» التي يستمد منها أبوها أصوله، قادتها إلى أوكا، وشدتتها الهيئة المكابرية بحبل من مسد، بسلسلة من حديد. في حين قادها دم آخر، إنتماء آخر، أمومي، جبشي، خفي، و.. طلبيق، إلى جنة الطلاقاء، إلى رقعة الخلاص، إلى السراب اللعب، إلى الخلود والحرية، إلى طائر الشعر والشوق والفردوس، إلى أوداد الذي يحمل في صدره جوهرة النور.

لم تكتشف هذه الإزدواجية إلا أخيراً. لم تكتشف أصول الإزدواجية إلا الآن. لم تتوقع أن يتكلم فيها الهجين بهذه اللغة. لم تتوقع أن يرتفع فيها صوت الدم والسلالة والأصل بهذه الوحشية. استهانت بالكائنات النائمة في زوايا القلب، في ظلمات الوعاء، ولم تظن أن هذا القفص الصغير يمكن أن يخفي الصحراء الكبرى كلها بين ضلوعه. لم تظن أن في القفص ملاكاً خفياً يجمع التناقضات ويسجل الذكريات المنسيّة. هنا تكمن أصول الحيرة. هنا بدأ التردد القاتل. هنا فتح الزناد بشرارة الخطر.

(٣)

شهدت الانهيار في ليلة واحدة. انهٌ المثال، تداعى النصب المكابر في مرة واحدة. الحوار المجنون. رقصة الوداع. الرأس الحاسر. السوأة العارية. العورة القبيحة. الفم البشع، المفتوح، والأذنان الكريهتان، المتديلتان كاذني جحش. العينان المحمرتان، الوحشيتان. الوجه الدامي، المغفر بالرّغام. حدث كل هذا في ليلة واحدة. في النصف الأخير من ليلة الميعاد. تمرق اللثام فانكشفت الهيئة. احترق الحجاب فبأن العراء. ظهر

الوعاء. الهيئة التي خدعتها وأخذت بها. الإناء الذي فتها دون أن تعرف لون مائه. قناع الكيراء الذي أخفى عنها الوجه الآخر لهيئة الفارس. اللثام حجب الأسطورة. اللثام صنع الأسطورة. فهمت الآن سر اللثام. وجدت المبرر للجد الذي اخترعه. وجدت الحكمة المجهولة التي دعّت السلف لاختراع القناع. إخفاء العار عمل إجباري لمخلوق يريد أن يحترم نفسه. عمل مشروع لرجل يريد أن يستعرضه، ويحترم بدنـه. لم تكن تستطيع قبل اليوم أن تبصر القناع المزيف، الآخر، الذي يخفـيه اللثام الجليل لو لم يتمـرّق اللثام. رأت أن قطعة القماش الشقية تـستر كـيراء مـزيفـاً، كـيراء شـيطانـياً مـضـلاً. هذا الكـيراء هو الذي ضـللـها وأـخـفـى عنـها أوـخـا الحـقـيقـيـ. هو الذي أغـواـها وـجـعـلـها تـضـعـرـجـلاًـ فيـ صـرـاطـ وـتـضـعـ الأـخـرـيـ فيـ الـصـرـاطـ الـآـخـرـ. الكـيرـاءـ هوـ الـحـجـابـ. حـجـابـ النـفـسـ وـالـرـوـحـ وـالـحـقـيقـةـ. الدـرـوـيـشـ تـحـدـثـ دـائـماًـ عـنـ هـذـاـ الـحـجـابـ وـلـكـنـهـ لـمـ تـفـهـمـهـ إـلـاـ إـلـاـ. الدـرـوـيـشـ الـمـلـاـكـ حـذـرـ مـنـ دـائـماًـ وـلـكـنـ لـمـ يـفـهـمـهـ أـحـدـ. كـانـ مـسـتـحـيـلـاًـ عـلـىـ النـاسـ أـنـ يـفـهـمـهـ لـأـنـهـ جـمـيـعـاـ يـحـمـلـوـنـ فـيـ قـلـوبـهـمـ نـفـسـ الـقـنـاعـ. يـضـعـوـنـ عـلـىـ قـلـوبـهـمـ نـفـسـ اللـثـامـ. الدـرـوـيـشـ هـوـ الـذـيـ أـخـبـرـهـاـ بـالـبـنـاـ الـفـاجـعـ عـنـدـمـاـ جـاءـهـاـ بـقـطـعـةـ الـقـمـاشـ الـذـامـيـةـ. هـوـ الـذـيـ قـالـ لـهـاـ أـنـ أـوـخـاـ أـقـنـعـ آـخـمـادـ بـأـنـ يـفـصـلـ رـوـحـهـ عـنـ بـدـنـهـ بـالـخـنـقـ. إـخـتـارـ الـخـنـقـ حـتـىـ لـاـ يـخـرـبـ الـبـدـنـ، الـوعـاءـ، الـإـنـاءـ الـفـارـغـ. آـثـرـ الـفـقـصـ وـفـضـلـهـ عـلـىـ عـصـفـورـ الـنـورـ. زـنـدـقـةـ أـوـخـاـ فـيـ إـيـثـارـهـ لـلـمـسـتـدـوـقـ الـفـارـغـ عـلـىـ عـصـفـورـ الـنـورـ. هـكـذـاـ نـعـاءـ الدـرـوـيـشـ. بـهـذـهـ الـقـساـوةـ قـرـأـ عـلـيـهـنـ الـبـنـاـ.

الآن، بعد أن شاهدت الهيئة البشعة، أُبَيَّنت أن الدرويش على حق. أحـسـتـ بـالـدـوـارـ وـفـزـ مـنـ بـدـنـهـ عـرـقـ غـمـرـهـ. تـرـتـحتـ حـتـىـ أـسـنـدـتـهـ الـجـارـيـةـ. رـكـضـتـ هـرـبـاـ مـنـ الـمـواجهـةـ. عـرـثـتـ فـيـ الـحـجـارـةـ فـسـقـطـتـ وـشـرـعـتـ تـقـيـاـ. حـمـلـهـ الـخـدـمـ إـلـىـ الـبـيـتـ وـسـهـرـتـ عـلـىـ رـأـسـهـ الـعـجـائـزـ. زـارـهـ الـسـلـطـانـ بـعـدـ طـلـوعـ الـشـمـسـ فـقـرـاتـ فـيـ عـيـنـهـ كـلـ شـيءـ. قـرـأتـ فـيـ عـيـنـهـ الـاـكـتـابـ وـالـتـعـاطـفـ وـالـعـزـاءـ. قـالـ لـهـاـ بـالـبـصـيرـةـ أـنـهـ بـدـأـتـ الـحـيـاةـ وـدـفـعـتـ ثـمـنـ الـاـخـتـيـارـ. قـالـ بـالـعـيـنـ النـاطـقـةـ أـنـهـ لـمـ يـشـأـ أـنـ يـخـتـارـ لـهـاـ لـأـنـهـ لـمـ يـشـأـ أـنـ يـمـارـسـ الـحـيـاةـ نـيـابـةـ عـنـهـ. بـدـأـتـ

تفهم معنى أن تختار، وأن تحتار، وأن.. تحيا.

(6)

ولكن القدر لم يرحمها.

حررها من الوهم ولم يقدم لها الحق بديلاً. جرّدها من أوخا، ولكنه لم يأت لها بأوداد. لم ينزل لها أوداد من السماء. ظلت طوال ثلاثة أيام تستعد للقاء. تحلم بهالة النور، بالمخلوق الطليق كالهوء، بالوَدَان البري الذي يحمل الحرية شعاراً على الرأس، علامه في الوجه، إشارة من ضوء، لتهز إليه وتخبره بما فعله بها الاختيار. الاختيار: صراع الضدين اللذين ورثهما في الدم، في السلالة، في الازادوج المتولد بالهجين. ستخبره أيضاً بشيطان الكبارياء. حجاب الكبارياء الذي خدعها وقادها طويلاً. سترُّ له البشارة أيضاً. ستقول له أن أوخا انتهى. انتهى في قلبها قبل أن ينتهى في البئر. ترّعّته من صدرها حتى لو كسب الرهان. تجرّدت من الوهم. تحررت من التردد القاتل. اختارت أخيراً. اختارته حتى لو لم يصعد. حتى لو خسر الرهان. ولكن.. ولكن الهمسات الشيطانية في القصر منعها من الابتهاج. الشائعات ترددت على السنة الجاريات الفضوليات اللائي لا يخفى عنهن شيء. ثم تحولت الهمسات إلى إيماءات شريرة. سمعتهن يتهمسن سرّاً بأن أوداد لم يعد. لن يعود. يستحيل أن يعود. قلن إن جميع الحكماء يعرفون أن صعود الجبل المستحيل ليس كالنزول منه. صعود القمة ليس كالهبوط. بلغت بهن الواقحة حدّاً جعلتهن يرددن الكفر. قلن بالجزم أنه لم يحدث في تاريخ الصحراء الوسطى أن صعد مخلوق إلى القمة ونزل منها إلى الأرض من جديد. الصاعد إلى الألواح دائماً مفقود. ففوق الرأس يوجد سرّ. الرأس يشرف على فم الظلمات. ومن بلغ الفم ورأى الظلمات غاب واختفى. هذا ما ترويه الشريرات، الجنّيات. الشيطانات، الخادمات، جنّيات القصور. الخدم شياطين القصور.

انخفضت الحرارة. تراجعت العمى. شعرت بتحسن. تحاملت على

نفسها ونهضت على قدميها. استدعت العرافين للمشاركة. تعللوا بجهلهم للصحراء الوسطى. تواطأوا مع باقي الحاشية وأخفوا عنها حقيقة الجبل. تحسرت على غياب تيميط. استدعت الدروش. في البداية تهرب. في النهاية قال بلغته الغامضة:

- من رأى جنًا لم يعد إلى حظيرة البشر.

استفزّتها لغة الدروش أكثر مما استفزّتها العبارة. هبّت غاضبة:

- هل الجن حكر على القمة؟ هل الجن حكر على الجبل؟ الصحراء كلها وطن الجن. إنهم يجوسون في كل مكان.

تردد طويلاً قبل أن يدخل معها في حوار التفاصيل:

- الصحراء وطنهم حقاً، وما نحن إلا ضيوف عندهم. والخلاف الأول هنا، في تصرفنا كضيوف. إننا نتصرف كأصحاب أرض، كملّاك للصحراء. نحن أسوأ ضيوف شهدتهم الصحراء. ثم إنك جئت من آير ولا تعرفين عن الإتفاق شيئاً.

- الإتفاق؟ أي إتفاق؟

- نعم. الاتفاق. العَهْد المبرم بيننا وبينهم. لقد تنادوا منذ زمن طويل وقرروا أن يجمعوا شتاهم الموزع في كل الصحراء في «ايدينان» الهارب من زحف الرملة. فصلوه عن قرينه الجنوبي واشتروا ذمته مقابل أن يحموه من غزوات القبلي. انتهت الصفقة بأن أقاموا فيه وطناً. لم يكفوا بإقامة الوطن، ولكنهم جمّعوا كنوزهم المخفية في الصحراء وجلبوا إلى الوطن. وقعوا مع أجدادنا عهداً أن نتخلى عن التعامل بالذهب إذا أردنا مراعاة أصول الجيرة. جئتم بالتبّر من آير وتعاملتم بعملتهم. كل منْ تعامل بالمعدن الحرام موعد بالقصاص. كل منْ ملك الذهب أصيّب بالمس ونال مصير العرافة والإمام.

- ولكن أوداد لم يملك الذهب يوماً!

- أوداد تطاول على الوطن. اعتدى عليهم بالعين، بالرؤبة، بالمشاهدة.

أوداد تجسس ونفرج على وطن الظلمات.

راقبته بشك، بفضول. كان الجنية ت يريد أن تقرأ في عينيه سراً آخر قرر أن يخفيه إلى الأبد.

(٥)

تسللت من القصر في الظلمة. استغفلت العسس عند السور. اتجهت إلى الجبل. هامت في الغراء. تسكّعت عند الحضيض. تفقدت السفح. تسللت السند مستعينة بيديها. كافحت الحجارة الحزازة. سلخت يديها وأدمنت القدمين.

فز منها السائل الحار فلم تعرف عما إذا كان عرق التعب أم نزيف الدم. بلغت الحضن.

أقْتُت وأنْصَت لِهِمْمَةِ الفناء، لِغَةِ الْمَوْتِ، سُكُونَ الصَّحْرَاءِ. مَا أَجَلَ السُّكُونَ فِي الصَّحْرَاءِ. انتظرتَ أَنْ تَسْمَعَ الْجَلِيلَ، جَلْبَةَ الْجَنِّ، تَمْتَمَّاتَ أَهْلِ الْخَفَاءِ الَّذِينَ يَنَامُونَ فِي النَّهَارِ وَيَسْهُرُونَ اللَّيلَ. وَلَكُنْهُمْ تَوَاطَّلُوا أَيْضًا مَعَ الْفَنَاءِ وَتَحْدِثُوا بِلْغَةِ السُّكُونِ. السُّكُونُ الْكَتُومُ الَّذِي يَخْفِي أَمْرًا، يَدَارِي سَرًا، يَرْدِدُ الْمَرْثِيَّةَ، يَرْطِنُ النَّعِيَّ بِصَوْتٍ لَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ وَلَكِنْ يَحْسَهُ كُلُّ النَّاسِ. يَتَكَلَّمُ النَّعِيَّ بِلْغَةَ لَا يَفْهَمُ مَفْرَدَاتِهَا أَحَدٌ، وَلَكِنْ يَدْرِكُهَا الْجَمِيعُ. سُكُونُ الصَّحْرَاءِ نَعِيُّ الْأَحْيَاءِ، كُلِّ الْأَحْيَاءِ. سُكُونُ الصَّحْرَاءِ مَرْثِيَّ الْخَلْقِ. خَبَرَ أَيْهَا السُّكُونَ: أَينْ خَيَّاتُ طَائِرِ الْفَرْدَوْسِ؟ قُلْ بِا مَكَابِرُ: أَينْ غَزَالُ الْبَرِّ؟ وَذَانُ الْجَبَلُ؟ نَسْمَةُ الشَّمَالِ؟ قَبْضَةُ النُّورِ؟ الْعَلَبَانِ؟ مَزِيجُ الْمَلَكِ وَالْإِنْسَانِ؟

إِرْحَمْ يَا لَوْحَ السَّمَاءِ. أَعْذَّ لِي قَدْرِيُّ الَّذِي لَمْ أَفْرَجْ بِهِ قَدْرِيُّ الَّذِي مَاتَ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ. ضَيَّعْتُهُ قَبْلَ أَنْ أَجْدَهُ. فَقَدْتُهُ قَبْلَ أَنْ أَهْنَاهُ بِهِ. أَغْوَانِي الشَّيْطَانُ الْمَنْفُوشُ فَضَلَّنِي وَقَادَنِي فِي صِرَاطٍ أَخْرَى لِيَعْدِنِي عَنْهُ. الْعَلَبَانُ الَّذِي احْتَوَيْتَهُ بَيْنَ يَدِيكَ قَدْرِيُّ قَبْلَ أَنْ أُولَدَ، قَبْلَ أَنْ أُبَعْثَ. الْعَشْقُ بَيْنَنَا مَوْرُوثٌ مِّنَ الْأَزْلِ. كَنَّا كَلَّا وَاحِدًا فَتَغَرَّبَنَا، افْتَصَلَنَا، تَهَنَّا فِي صَحَارِيِّ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ. بَحْثَنَا عَنْ نَفْسِنَا طَوَالَ الْأَزْلِ. بَحْثَنَا عَنْ بَعْضِنَا لِنُسْتَعِدْ وَحْدَنَا، اتَّحَادَنَا، التَّحَامَنَا. كُلُّ

الرحلة الماضية بحث الجزء عن الجزء. بحث الفصل عن الأصل، الفصل عن الفصل. حنين الفصل إلى قفص الصدر. فارحٌ يا لوح الجن؛ أعدّ لي أصلي. أعدني إلى الأصل. أعدني ضلعاً في صدر المعشوق. و.. اغفر لي كفري. زلّي في التملّك. أردت أن أملك رجلين فقدتهما معاً وفقدت كل الرجال معهما. الظمآن إلى رجلين خطيئة الفصل. مَنْ أراد أن يفوز بكل شيء لم ينل شيئاً. سبب الزلة تقىدي بوصية المجنوس.

فهل ثمة أمل، يا جبل؟

(٦)

استعرَّ الجسد. احترق الجوف. ارتجفت الأطراف بالحمى. نَرَ العرق. نزلت السفح. بلغت الحضيض. خسرت الرهان. فقدت الأمل. لا أمل. لن تستعيد الوحدة. لن تلتجم بالكل. لن تتوالٌ في الأصل. لن تهتدى إلى الصدر. لن تجد الفردوس. لن ترتوي من أنهار اللبن. ضيَّعت «واو» وضاعت. القدر كتب عليها فقد والثي. خطف من يدها الأمل لحظة الوجود. وما خطف بيد القدر لن يوجد. لن يعود. فحكم عليها بشقاء المحرومين من البعث، من التواصل في الكل، من الالتحاق بالأصل. جَنَّت ثمار أهل الخطر. حصدت محصول النبوءة، نبوءة الدرويش. موسى نبي، ملَّاك، عَرَاف، نذير. موسى يعشقاً أيضاً. رأت في عينيه العشق. ليس من الصعب على ضلع الفتنة أن يرى الشوق في عين العاشق. عين الفصل لا تخطيء ورمض الحنين إلى الجزء المنفي عن أصله. يومها تجاهلت الإشارة فأفلتت الملَّاك وذاب في أشعة الشمس. بلبتها القوة الخفية، القدرية، وأربكت لها الحساب. استهانت بالإيماء فدفعت الثمن. فلماذا لا تحاول أن تصلُّح ما أفسدته يداها؟ لماذا لا تشجع وتستعيد الملَّاك التائه؟ لماذا؟ مَنْ؟ هل هذا شبح الدرويش؟ هل نزل الملَّاك من السماء؟ الدرويش جن إذا فكرت فيه حضر. الدرويش ملَّاك إذا استنجدت به نزل.

تشجّعت وسألت:

- هل أنت الدرويش؟

- ها.. ها..

زلزل السكون بقهقهته. إنه الدرويش. في نزوله إشارة. في ظهوره نبوءة.

تشجعت بالنداء الخفي فخاطبته بلغة العشق:

- مكتوب في مخطوطات الصخور أن خلاص أهل الخطر لن يتم إلا على
يد أهل النور...

اقرب الشبح. استجواب للحوار:

- ها.. ها. هل تتكلّم الأميرة لغة الدراوיש؟

- لغة الدراوיש لغة الخلاص. منْ فقد العصفور في الجبل لا بد أن
يبحث عن الطريق في مكان آخر، في لغة أخرى.

- الخلاص ليس في اللغة.

- في الطريقة. هل الخلاص في الطريقة؟

- ها.. ها ليس في الطريقة. ليس في الطرق.

- أين الخلاص؟

- ويل لمنْ لم يجده هنا.

ضرب على القفص بقبضته يده. تقدّمت منه خطوتان. توسلت:

- لماذا لا تستجيب لندائي إذن؟ لماذا لا تجيب على العرض؟

- ...

- أردت أن أتحق بالقفص. سترافق. ستصبح كلاً واحداً. يلتحق الجزء
بكلّ ويعود الصلع الضائع إلى الأصل في القفص. أليس هذا نعماً؟

- ها.. ها.. ها..

زلزل العراء بالضحك. طعن السكون الجليل بالقهقهة. قهقهة شيطانية لا

تليق بدروش. لا تليق بملائكة. فقهة جنونية، ماجنة، توحى بالكفر والشماتة. فهل أخطأت يا ترى؟ هل الشبح شيطان رجيم؟ هل كان الشبح جنباً؟

استمر يقهقه حتى اختفى في ظلمة الخلاء. مشت وراءه. هامت في العراء. وجدت نفسها تقف على فوهة البئر.

(٧)

انتشلها الرُّعَاة في الصباح.

وجدوها منفوخة، جاحظة العينين، طافية فوق سطح الماء. خرجت «واو» ودبَّ السهل. أقبل السلطان وحمل جثمانها بين ذراعيه. سار به إلى القصر بيضاء، ووجوم، وجلال. مشت وراءه الحاشية صامتة أيضاً. دخل الأرقة الكثيبة، المعتمة. في القصر اختلى بالجثمان في الدار. رَوَتْ الجواري فيما بعد أنه سَجَّاها على الكليم وناجها طويلاً. بعضهم قلن إنه ركع بجوارها صامتاً. وأكَدتُّ أخريات أنهن سمعته يعترف بمسؤوليته عن هلاكها. قلن إنه قال: «أنا القاتل. أنا المدبر. دمك في رقبتي. أردت أن أخلصك من هاوية أمناي فأخذتك إلى هاوية القدر. أنا من أساء تفسير الرؤيا. أنا الذي اجتهد دون كفارة. أنا الذي استعار دور العَرَاف دون علم بمزاج الآلهة، بسلوك القدر. أردت إنقاذه فأسأت التدبير وقدتك بيدي، قطعت بك الصحراء، كي ألقى بك في البئر الذي رأه أبوك في المنام. كيف أَسْدُ فراغ الصحراء بدونك؟ كيف أطرد وحشة الإغتراب لوحدي؟ ما طعم «واو»، ما معنى الفردوس، بدونك يا صغيرتي؟».

وقبل أن يقيم المأتم ويعلن الحداد روى بعض العقلاء من أفراد الحاشية أنه حبس نفسه بعد انتهاء مراسيم الدفن، وظل يشتم عدواً مجهولاً ويتوعّده بالحساب طوال ثلاثة أيام. تهams الشفاعة منهم ودهدوا التراب كي يحفقوا الخطر وعَقُّوا بالقول إن العدو المجهول لم يكن سوى القدر نفسه!

بعد أن توارت الأميرة تحت التراب سمع الخلق دمدة لم يسموها منذ سنين، عربدة خفية، حركة مجهولة، إشارة سماوية. زار الهدير واقترب فوجس الناس. تصنَّت السهل واستجابت الصحراء للنداء بالترقب والشوق والإنتظار.

اقرب الزثير الخافي. بدأت الصحراء تتحمي بستائر العتمة، بنقاب الخفر، بغلالة العروس المهجورة. تخضَّب بحناء الحياة احتفاء بالفحل، فرحاً برسول الذكرة، ياله الخصب والللاح.

في الأفق فَدَحَ الزناد بأول إشارة.

سَطَعَ خيط ناري متعرج ورشق الصحراء بال بشارة. أعقبته زمرة مكتومة للجمل الخافي الهائج. رفرف قلب الأرض المحرومة وازداد وجوم القسم. مَرَقت الصبايا حناجرهن بالزغاريد وصنعن بأصواتهن العذرية كفناً للقبلي، نعيَا للعدو المسلط على رقبة الصحراء. تراجع إله الصحراء الجنوبية. مُنِي رسول المحبس بالهزيمة وعاد إلى المجهول والأدغال. انسحبت الريح وراء الحدود.

اقرب الرزف. ظاهر الأفق بالغمام. قعع الجمل الخافي الثائر. تمَرَّق الأفق بخيوط النار. سكتت الصحراء. تمَدَّد السهل. هتف كل شيء بالشوق والحنين والإنتظار. سقطت قطرات الأولى. قطرات كبيرة، نهمة، ظماء لمعانقة الأرض. قطرات البتول، التي تحرق للقاء، وتتوق للالتحام بذرات الرَّمل العطشى. تبعتها قطرات أخرى. توالى سقوط الماء، فاستغاثت الأرض شوقاً وندَّ عنها فحيح. انطفأت النار المحبوسة في صدر الأرض منذ ألف عام وبدأ الوحش يحتضر: وحش الجدب والجفاف والقبلي. تنفست الصحراء الصعداء وفتحت ذراعيها لاحتضان معشوق غاب طويلاً، وانتظرته طويلاً.

ارتفع بخار من الأرض احتفاء باللقاء المستحيل، انتصاراً للمعجزة. تداعى الصبيان إلى العراء. خلعوا لباسهم. رقصوا في أمواج البخار، تحت

خيوط الماء. تقافروا عرَّاً. هتفوا بِأغنية المطر الموروثة عن الأسلاف:
امطري، امطري، امطري،
فالخباء قد خوى
ولم يبقَ من التمر سوى حبات النَّوى.

استجابت قافلة السحاب لوصية الأجداد، لنداء الأحفاد. اشتدَّ نزول
الماء، فغَنِيَ، مع الصبيان، كل شيء في الصحراء.

* * *

القسم الرابع

١ - المكيدة

«قدر الرجال ألا يحصلوا على السعادة إلا مع شيء من الكتاب».

كلود ليفي ستراؤس (الفكر البري)

(١)

عقب عودته من رحلة طرابلس لم يعتزل في بيته أكثر من ثلاثة أيام. وعكس ما توقع الخدم والأعوان وأهل الفضول من أهالي غدامس، فإن الحاج خرج من البيت في اليوم الرابع تعلو وجهه سكينة خفية لم يعهد الناس أن يروها على وجه مَنْ فقد كل ذويه في يوم واحد ليجد نفسه أعزَّ، معزولاً، وحيداً. وتردد على ألسنة أهل الفضول أنه ردَّ على تحيات الأعيان وتجاهل إيماءات الخصوم الخفية عندما عبر سوق الواحة المزحوم قاصداً عين الفرس خارج سور.

عند باب السور الموحش صَرَّفَ الخدم وسار نحو الأحراش وحيداً. دخل دغل النخل وأنصت لغاء الجنادب وهديل الحمام في رؤوس النخيلات التي تطُوّق العين لتحميها من شراسة القبلي. وراء عرقوب الرملة لَوَّنت الشمس الأفق وزرعت ذيلاً طويلاً، قانياً، وهي تحضر.

سكنت الصحراء.

لأول مرة أحسَّ بالسكون، بطعم السكون. قطع القارة الصحراوية من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، عشرات المرات، ولم يعرِفَ أنَّ وراء سكونها الموحش لغة خفية، أنَّ وراء الصمت الكثيب، القاسي، حناناً، ولهفة، وعشقاً. وربما لم يسمع السكون لأنَّه لم ينصل. لم يسمع لأنَّه لم يتتبَّه. لم يتتبَّه لأنَّه لم يعشق. لم يعشق لأنَّ في قلبه بلبة أخرى. البلبة

كانت في قلبه قبل أن تكون في رأسه. بلبلة الذهب والمقاييس والحسابات. فهيهات أن ينصل لغناه السكون، لمعزوفة الأبدية، للغة الخلود، مخلوق لم يتحرر من بلبلة الأسواق ورنين التبر المصنوع.

واليوم، بعد أن تحقق الأمر، وتبدد الوهم. اليوم بعد أن تيقن أن الأولاد عبروا البحر الشبع مع أمهم وأصبحوا غنيمة في يد النصارى إلى الأبد، عرف أن في الصحراء العظمى سكوناً جليلاً، ينطق بلغة الخفاء، بلغة الله، ويبيح بسر الأسلاف. عرف أن القارة العارية جسد خرافي عجز طوال السنين الماضية أن يبصر فيه امتداد القد، وعفاف الصورة، وسخاء البهجة، و.. روح المحبة والتعاطف. داس الصحراء ولم ير في جوفها سوى الكنوز.

طلب كنوز الخفاء الممسوسة ورفض أن يأخذ كنوزاً أنفس ظلت تعطيبها له كل صباح وكل مساء. عاش في قارة سحرية أخرى ولم يشعر طوال عدوه المجنون أنه يدب على الصحراء. نفس الصحراء. لم يرفع رأساً لعنقائد النجوم، ولم ير وجهاً لقمر. لم يفتح عيناً على عراء، ولم يسمع لغة السكون. لم يتمتع بروءة ظبي أو ودان ولم يتذوق الطعم الآخر، السحري، للماء. فالماء، الماء، معجزة أخرى في الصحراء. ينصل الآن لخربير التَّبَع، فيكتشف أن لسعيه في الحجارة شقاوة، وعناداً، وإغراء. إنه لعوب، مناور، مثل صبيَّة حسناء.

ولكن... هل يستطيع أن يخاطب الماء مِنْ أغמד مدية في قلب مخلوق؟ هل يجسر قاتل أن يعود من منفاه إلى الأرض، إلى الصحراء؟ هل تغفر الصحراء التي اغترب عنها دائماً، وقايضها بمعدن لم يجر عليه سوى الخصومات والنحس؟ هل تصفح الأرض، الأم، عن الولد الضال الذي رواها بدم قربان بشري؟ هل يجرؤ أن يركع، ويترمَّغ، ويطلب الغفران متعللاً بإيقاذ النسل والإبقاء على الذرية؟ هل تصفح السماء أم الصحراء عن الصم البكم العميان؟ هل تصفح عن المختوم على أشدهم وبصائرهم بالظلمات؟ هل تُقبل التوبة، وتحدث المعجزة بعد أن رفع يداً وسفح دمآ؟ كان يستطيع أن يطمع في الغفران لو استبدلته عند اللطمة الأولى، لو اتبه

للإشارة الأولى . ولكنه تمادي وكاد وطلب المزيد فخسر الرهان . خسر نفسه . حدثه الهاجس الخفي في العين ، ولكن جهل وتجاهل وسعى ضد السيل . إعتقد أن تبر العرافة يكفيه ليسترداً امرأته وأولاده وشرفه الصائغ . نازعه الإمام فسلط عليه أحد الأعوان فأزاحه . فقد رأسه وتحول بنفسه إلى تيار وسيل . اندفع إلى غدامس كي يردد الكيل لأعدائه فوجد أن القدر سبقه ودفع العائلة إلى أيدي المراقبين . طاردهم إلى طرابلس ولكن مركب النصارى عبرت بهم البحر . عاد بثروته الدموية واعتكف في البيت .

والآن يكتشف أن في الأرض صحراء . وفي الصحراء سكون ، وفوق السكون يطوف قرص كبير ، عجيب ، من ضياء . طوق من الفضة يسبح في الأفق فهل هذا أنت يا قمر؟ اكتشف أنه ركض أكثر من نصف قرن دون أن يرى قمراً ، دون أن يستنشق زهرة رتم . دون أن يلتفت إلى القلاع ويلتقط كمة . دون أن يصغي لثرثرة الماء في الحجارة . دون أن يشاهد زحام السحب وهي تحفل وتزاحم لتمطر وتعاشر الحمادة الجدباء . بل دون أن يرى امرأته ويلاعب أولاده . بل دون أن يعرف حتى نفسه . أنسنة المقايدات في أسواق الواحات أن الله خلق البضاعة كي تكفل الستر وتسد الحاجة . تدخل نحاس النحس وأخذه من دنياه وأولاده ونفسه .

أقفي تحت نخلة مكابرة وعيث بالرمل الليلي الودود . تابع القمر وأنصت للغو الجنادب وثرثرة ماء النبع في حجارة الساقية . سرحت به شعائر الصحراء فوجد نفسه يدخل حرم الطفولة . ركض حافياً في الأزقة المترفة وذاق مداعبات الحصى والرمضاء والحزيز . طارد الجديان الشقية في الوديان المجاورة وعاني من شقاوتها ككل الأطفال . تعرى في مواسم المطر ورقص تحت وابل الشبوب مردداً نداء الإخضاب :

أمطري ، أمطري ، أمطري ،
فالجباء قد خوى

ولم يبق من التمر سوى حبات النوى
فتلتفت الصحراء الظمئي النداء ل تستعطف به السماء .

إلى أن . . .

تململ في القفص عصفور. ظهرت الصبية الحسناً من تحت الأرض كجنيّة، فرفف عصفور القفص بالعشق. سرحاً مع الجديان، وشاكسته في الأزقة كثيراً. غيرته بوجهه المستطيل، ويسريحة شعره التي تشبه عرف الديك. حلق شعر رأسه فقالت إنه لن يستطيع أن يغير من وضع وجهه المستطيل. تجاهلها. هجرها. امتنع عن مبادرتها الكلام، فطاردته وشاكسته وطلبت منه أن يغفر لها شقاوتها. ر肯 إلى صلح لم يدم طويلاً. إذ ولته ظهرها، مثل أي أنتي خبيرة، بمجرد أن تنازل لها. صادقت صبياً بديناً يشتغل أبوه بالتجارة. قالت إن أهم ما في الرجل أن يكون غنيّاً. فقرر أن يكون غنيّاً منذ ذلك اليوم. عرف أن الذهب مصيدة الصبايا وسيد السوق.

بدأ بالمقايضة، واحترف التجارة.

وأستمرت تلك الرحلة منذ ذلك الوقت، منذ الصبا، حتى اليوم.

نجاح في الحرفة وخسر نفسه. نجح في التجارة ونسى الحياة. لأنه لم يعرّف أن الحرفة قائمة منذ الأزل على لعبة تقول إن الذهب لن يعطيك نفسه إلا إذا أخذ نفسك بالمقابل. لقد سمع حكيمًا مجوسياً يتكلّم بهذه النبوة في كانوا، ولكن مضاربات المعدن الشيطاني أنسّته التفكّر في النبوة. أنسّته أن العرّاف المجوسى كان يعنيه هو بالذات. لو تفكّر وقتها لكان ثمة أمل في الخلاص. في الخروج من اللعبة. ولكنه كان قد توغل بعيداً. فهل يطمع في الخلاص منْ خسر نفسه؟ هل يمكن أن يخسر الإنسان نفسه مرتين؟

الخسارة الوحيدة التي لن تليها خسارة أخرى هي هذه الخسارة.

يستطيع الآن أن يستعيد التفاصيل التي بها تركّب السلسلة. الصبية اللعوب دفعه إلى الذهب والتجارة. الذهب صنع له العداوات والخصومات. العداوات جرّدته من الشرف ورهن الخصوم عائلته في غفلة. لم يكن أمامه طريق إلّا أن يهرب إلى الأمام فطلب المزيد كي يحرر نفسه وشرفه وعائلته، فغرق في الوحل، وتورّط أكثر. ارتكب الكبائر فاستحال الغفران. تذكر

الخسارات، خسارة الأولاد والشرف و.. النفس. تلظّت في صدره جذورة وصعدت إلى الحلق. فز من عينيه دمع كالصديد.

واسته الصحراء. اكتأب القمر. حشرجت التخلة فوق رأسه وانتجحت. توقف الماء عن اللغو ومسد وجه الحجارة بحنان العشاق. قالت له الصحراء مواسية: باطل. كله باطل. الذرية باطل. الزوجة باطل. الشرف باطل. وأنت نفسك باطل الأباطيل.

ولكن هل يسمع صوت الصحراء مِنْ تغَيَّب عنها منذ الطفولة، وباع قلبه للبريق؟

(٢)

ادخلوا عليه «ماتارا». عجوز خلاصية رفيعة. نبيلة الملامح. طولية القامة. تحمل عكازاً أنيقاً مصنوعاً من أبنوس الأحباش. أجلسها الحاج على الفرش الوثير بجواره. أتى لها الخدم بأطباق الكعك والفطائر ولحوم الحيوانات الصحراوية المجففة، وأكواب اللبن وشراب التمر. قضمت من الكعك ودخلت حرم المجاملات:

- أَحَمَّ اللَّهُ الَّذِي أَمْدَدَ فِي أَيَّامِي حَتَّى دَخَلْتُ هَذَا الْبَيْتَ وَهُوَ عَامِرٌ بِرَبِّ الْبَيْتِ. وَبِقَدْرِ مَا يَسْعَدُنِي هَذَا بَقْدَرِ مَا أَحْسَنَ بِالْمَرَأَةِ لِخَلْوَتِهِ مِنْ أَهْلِهِ. فَلَا زِيَّةَ لِيَتَ بِإِذَا لَمْ يَكْتُمْ فِيهِ أَهْلَهِ.

- صدقَتِ الْعُمَّةُ «مَاتَارَا» وَأَطَّالَ اللَّهُ فِي عُمْرِهَا حَتَّى تَشَهَّدَ فِي الْبَيْتِ أَهْلًا.

ضربت عجيزتها العجفاء بيدها النحيلة وهتفت:

- يَسْعَدُنِي أَنْ أَسْمَعَ هَذَا. يَسْعَدُنِي أَنْ أَرَاكَ سَعِيداً تَقْلِبُ فِي حَضْنِ بَنْتِ السَّبْعَةِ عَشَرَ عَامًا.

اعتراض الحاج:

- أَخْشَى أَنْ الْعُمَّةَ الْجَلِيلَةَ لَمْ تَفْهَمْنِي تَمَامًاً. لَيْسَ فِي نِيَّتِي أَنْ أَدْخِلَ لِلْبَيْتِ اِمْرَأَةَ تَكُونُ رَبَّهُ لَهُ.

- لا أفهم.

- أنت تعرفين أن شيطانة في صباعي أخرجتني من الواحة ومن صوابي، وأريد أن أعود إلى الصحراء بامرأة أيضاً.

- ربما لا تعرف أن الزمن الغلاب ختم على رأسي بعصابة نسج الشيطان خيوطها من النسيان وضعف الذاكرة، فبدأت أنسى لغة الأسياد والوجهاء.

ضحك الحاج بتسامح. حاول أن يختصر الطريق:

- إذن اسمعي حجتي وأجيبيني على سؤال. ماذا يفعل الرجل النبيل إذا نُكِبَ في امرأته وأولاده؟ ماذا يفعل إذا وجد نفسه وحيداً محاطاً بالخصوم. نفس الخصوم الذين دُبِّروا المكيدة وباعوا أهله للنصارى في سوق العبيد؟

- إذا لم تخدلني الذاكرة فإن الرجل لا بد أن يرداً لهم الكيد.

- أحسنت! ولكن لن أستطيع أن أرداً لهم الكيد إذا لم أستعن بصديق قديم. وهذا الصديق هو أنت!

ضربت العجوز صدرها بيدها:
- أنا؟

تمهل البكاي فأضافت ماتارا بدهشة حقيقة:

- هل يعقل أن يستعين الداهية القديم، كبير تجار غدامس وسيد القوافل والذهب بامرأة عجوز تحايل على الزمان بالتعاويد حتى لا يدخل إلى بيتها زائر الفناء؟

- أنت الوحيدة!

- هل قلت الوحيدة؟

- ليس في غدامس مَنْ يستطيع أن يساعدني في صنع انتقامي غيرك.

- أفضح قبل أن يقتلني الفضول!

- اسمعني إذن.

تمهل مرة أخرى. قال فجأة:

- أَرِيدُ أَنْ أَنْالَ امْرَأَةً كَبِيرَ التَّجَارِ!

انقضت العجوز وأشاحت بوجهها ذعراً. هدّدت الفرش بيدها كي تبعد الشر. تمنت بالتعاويذ السحرية فوائلن البكاء بحسارة:

- امرأة الصغرى. أصغر نسائه وأجملهن. آخر زوجاته الأربع. أنت الوحيدة التي تستطيع أن تقوم بدور الوسيط. سأجزل لك العطاء بعملة الذهب. ذهب كثير. أما هي . . .

سكت لحظة. أغمض عينيه لحظات. فتحهما فجأة ونطق بالرقم الفلكي:

- ساعطيها خمسة وعشرين كيلو من التبر، . . . ثلاثة أكيال من الذهب المصوغ. حلي لم تحلم امرأة بجمال صنعتهن.

ومض بريق في عيني العجوز. عاد الدم إلى وجهها الشاحب. انتفض قلب الحاج بمجرد أن رأى الإشارة في عينيها. قالت بصوت آخر:

- أُعترف يا سيدى الجليل أن ما تعرضه يكفي لشراء كل نساء الأرض، ولكن . . .

قاطعها الحاج ودفع في وجهها بالمغريات:

– سأدفع لك كثيراً. لن أبخل على الوسيط. صدقيني!

احتى الوميض في عينيها. ابتسمت بخيانة يعرفها البكاء.

(۲)

قال مساعدة دهشون بابتهاج الشهوانيين:

- صغرى زوجات كبير التجار أشهرى امرأة في غدامس. أشهرى امرأة في الصحراء كلها. نافسه فيها أغنى الأعيان. ولكنه لم يفز بها بفضل المال وحده.

لم يلحظ على وجه البكاء إشارة توحى بفضول فأكمل:

- أحسن سيدى الاختيار. كبير التجار أيضاً حصل عليها بفضل الجنية
ماتارا!

هتف الحاج فجأة:

- حقاً؟ لم أعرف ذلك من قبل.

ابتسم دهشون بدهاء:

- خبرة سيدى في أسرار التجارة هي التي أهدته إلى المفتاح. المرأة
كالتجارة، للوصول إليها يلزم سرّ لم يمنّ به الله إلا على الآخيار.

- أوقفك. المرأة شرك لامتهان المقايسة. بل إن المقايسة هي المرأة.
خرجت للتجارة أول موة كي أرضي امرأة.

- غداً يبدأ الفرح. غداً ينتهي الفرح.

ثم فرّك يديه بشوق طفولي. ولكن الحاج قال بتصميم مفاجئ:

- أريدها بشهود. لن يتم فرحي إذا لم يكن شهود.

أجفل دهشون ففك البكاي عن لغته الغموض:

- أذلّني بشهود. باع ذريتي وامرأتى في سوق العبيد أمام الناس. وأريد أن
أذله بشهود. أمام الناس. العين بالعين..

تجرأ المساعد وقاطعه بسبب الدهشة والفزع:

- ولكن هذا هو الشيء الوحيد في الدنيا الذي لا يفعله الناس إلا خفية.
شرائع الأرض وشرائع السماء قضت فيه بالخفاء. ألم تقض فيه بالخفاء؟

- الشرائع اليوم شرائعي. لن يكون الانتقام انتقاماً إذا لم يسن المتنقم
شرائعه حين يحين الانتقام.

أعقب ذلك بضحكه كثيبة، غامضة أيضاً.

تابعه المساعد. تكلم الحاج جاداً:

- ستختر بعض الأشراف. إحرص أن يكمنوا في الدار المجاورة

للمخدع، فإنْ هتفت باسمك فأدخلهم علىَ. هيء - هيء - هيء ..
تابعه المساعد بنفس الجمود. تغضُّن جيئه بسؤال وعلا وجهه شحوب.
استمرَّ الحاج يسرد خطته:

- إحرصْ أن تأتي بكل الخصوم: إيدير. دعباش. بوجبة. الدركاس. ولا
بأس أن يكون الإمام بينهم. الوليمة ناقصة إذا لم يحضرها الفقهاء. هيء -
هيء - هيء - هيء ..

لم يعهد دهشون في سيده الضحك الخبيث، ولكنه أرجع غرابة طوره إلى
غرابة اللغة. ظلَّ يحدُّق في البكاي جاماً مثل النصب، إلى أن قرر الحاج
أن يختتم قصته:

- سوف تدعوهم إلى وليمة حقيقة. ستبدأ في إعداد الوليمة من الليلة.
هل تظن أنتي أمزح؟ ألم تقلْ بنفسك منذ قليل إنه فرح؟ هيء - هيء -
هيء ..

جاراه دهشون بالضحك، وبعد لحظات وجد نفسه يقهقه في ضحك
 حقيقي، مُنكر، لئيم. في عيني الحاج برق وهي الجنون. تماذى واقتصر:

- انتظِرْ! الشيطان ألهمني الآن بما هو أجرس وأجمل ..

مال نحو دهشون بوجه مجنون تماماً. قال بنبرة مخنقة:

- لماذا لا تستدرج كبير التجار نفسه إلى الوليمة؟
فُزْ دهشون، استنكر:
- كبير التجار؟

- الوليمة مصيدة الوجهاء. الولائم أفخاخ صنعتها الشيطان لاستدرج
التيوس أمثال كبير التجار! ها - ها - ها ..

قطع ضحكته القبيحة وعاد ينسج خيوط المكيدة:

- سوف تستدرجه بالوليمة. سوف تستدرجه بالصلح. ستقول له إنني أدعوه

إلى وليمة الصلح. نعم. أخبره أني أعلنت التوبية وقررت أن اعتزل الخصومات والعداوات والتجارة. قل له أني تبت وندمت وانضمت إلى دراويش القاديرية. ها - ها .. قل له أني سأخرج من الحلبة بمجرد أن يغفر لي. سأتخلى عن المكابرة والمعاندة وأتحقق بالزاوية حال أنال مغفرته. هيء - هيء - هيء ..

المكيدة فاقت كل تصورات دهشون فعجز عن مجاراته. تابعه ذاهلاً، جاحظ العينين .

(٤)

أدخلتها عليه ماتارا من الباب الخلفي. قادتها من يدها حتى أجلستها بجواره على الفراش. صبيّة من صبايا الفردوس. عروس ترتدي ثياب العروس. تدس فتنتها وراء رداء فضي مخطط. تطأطئ عينيها الكحلاوين في حياء العرائس فلا يزيدتها خضر العذرارات إلا سحراً وبكارة. يداها مخضبستان بالحناء. يدان صغيرتان مزبورتان بخطوط الأقحوان ورموز الجنّات. الأنامل مرصعة بخواتم ذهبية تلمع رؤوسها بفصوص الحجر الكريم. على الصدر النافر، المتمرد، المكابر، رأى فلادة عجيبة الطراز من الذهب. بدخولها عبّقت الدار كلها بأريح الفرداديس. خليط من بخور وعطور ومستحضرات الزهور. طار به الدوار وحلق في سماوات الانتشاء. تتمم بذهول :

- الله ! الله ! الله !

علقت ماتارا لأول مرة :

- أردت عروسًا فجئت بعروس. فهل وفيت بوعدي؟

ولكنه ردّ في وجله :

- الله ! الله ! الله !

تبادل نظرة مع العروس وعادت إلى الاسترباء :

- علّني وفيت بالوعد. هل يرى سيدتي أني وفيت بوعدي؟

خرج الحاج من دنياه :

- كيف تسأل ماتارا الحكمة هذا السؤال وهي تعلم أنني طلبت منها صبية من الدنيا فجاءتني بأية من فردوس ، بملك من السماء؟
مَدَ يَدَأْ مُرْتَجِفَةً إِلَى الصَّدْرِ الْمَارِدِ . دَاعِبُ الْحَلْمَةِ النَّافِرَةِ بِرَاحِتَهِ فَأَحْسَ
بِالْخَدَرِ يُسْرِي فِي جَسْدِهِ . هَامَ مَرَّةً أُخْرَى بِالْتَّمِيمَةِ :

- الله ! الله ! الله !

تُورَدُ وَجْهَ الْفَتَاهُ وَنَكَسْتُ رَأْسَهَا . تَدْخُلَتْ ماتارا :
- عَلَى سَيِّدِي أَلَا يُفْزِعَ الْمَلَكَ بِحُضُورِ الْغَرَبَاءِ . الْمَلَكُ لَا يُنْقَادُ إِلَّا فِي
الْخَلْوَةِ !

- مَاذَا أَفْعَلَ إِذَا أَفْقَدَنِي مَلَكُوكَ صَوَابِي وَوَقَارِي؟ هَلْ فِي الدُّعَابَةِ إِثْمٌ؟
- لَا إِثْمَ بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ . خَلَقَهُمَا اللَّهُ لِلْلَّتِحَامِ وَالْعَنَاقِ . هَلْ يُمْكِنُ أَنْ
يَكُونَ قَدْ خَلَقَهُمَا لِغَيْرِ ذَلِكِ؟

- الله ! الله ...

- إِذَا اجْتَمَعَ رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ فَإِنْ حُضُورَ طَرْفِ ثَالِثٍ هُوَ الْإِثْمُ . فَلِيَسْمَعْ لِي
سَيِّدِي بِالْأَنْصَارَفِ .
- أَلَنْ تَشَارِكَنَا الْمَائِدَةَ؟
- مَايَدَنِي فِي عَطِيَّتِي !

صَفَقَ الْحَاجُ بِيَدِيهِ وَابْتَسَمَ . دَخَلَتْ جَارِيَةٌ زَنْجِيَّةٌ وَوَقَفَتْ عَنْدَ الْبَابِ فِي
خَشْوَعٍ . خَاطَبَهَا الْحَاجُ وَهُوَ مَا يَزَالُ فِي دُنْيَا الْغَيْبَوَةِ :
- رَافِقِي خَالِتِكَ إِلَى الْفَنَاءِ وَقُولِي لِدَهْشُونَ أَنْ يَعْطِيَهَا حاجتها .

قَالَتْ ماتارا وَهِيَ تَهْمُّ بِالْخَرْجِ :
- سَمِعْتُ هَرَجَّا فِي النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى أَفْزَعِنِي .
ابْتَسَمَ الْحَاجُ . قَالَ :

- هَؤُلَاءِ ضَيْوَفِي . دَعَوْتُ ضَيْوَفًا . أَلْمَ تَنْقَعُ عَلَى أَنِّي عَرِيسٌ؟

ابتسمت ماتارا بخثث قبل أن تتوارى خلف الباب.

(٥)

برغم أن الأنثى كانت السبب في رحلة شقائه، إلا أنه لا يستطيع أن يحسب نفسه عضواً في فريق الرجال الشهوانيين الذين لا تستهويهم النساء فقط، ولكنهم لا يرون في الحياة هدفاً يستحق الممارسة غيرهن. وإذا سمح لنفسه بأن يستثني بعض المغامرات العابرة مع نساء قادتهن إليه الصدفة أثناء عبور الواحات، فإنه يستطيع أن يحسب نفسه عضواً في الفريق الآخر، الذي يقف على التقيض. ولزاماً عليه أن يعترف الآن أن السبب ليس زهداً في النساء، أو نفوراً من العلاقات العابرة، خاصة وأنه يعرف أن الدافع الأول في تغريبه وخروجه كان امرأة، ولكن السبب في انقلاب الوسيلة وتحولها، مع توالى الأيام والأسفار، إلى غاية. خرج من الواحة وراء بريق التبر، ليس حباً في التبر نفسه، ولكن كي يتخدنه شرّاكاً يقتنص به قلب المرأة التي أذله. كان حكيمًا في إدراك سرّ المرأة، ولكن غاب عنه سرّ المعدن الرهيب. خانته الحكمة فاستدرجته عملة المجروس والشياطين وقادته من أنفه طوال أمد يزيد عن النصف قرن دون أن يتبه إلى أنه هو الذي وقع في الفخ الذي أراد أن ينصبه لاصطياد قلوب النساء في بداية صراط الإغتراب.

مرة واحدة أقام علاقة جدية بامرأة.

كانت ماردة خلاسية من كانو. مديدة القامة، ببشرة أبنوسية ملساء، في محجريها تدور عينان دعجاوان وضيستان بالاندفاع والغموض. على يديها ذاق صنوفاً من فنون الغرام لم يعرفه لا من حلاله ولا من نساء العلاقات العابرة في الواحات. يصل من الرحلة فترين وتتطيب وتتدخن بالبخور. تدلك جسدها الأملس بزيوت من مستحضرات العشب والزهور وترتدى ثوباً فضفاضاً يزيد جسدها جمالاً وغموضاً وسرية. تستقبله في الدار المفروشة بكلم من جلود الوحوش، المبخرة بأتايب ساحرات الأدغال وتقدم له غليون الخشخاش. يبدأ في سحب أنفاس الفردوس على رائحة الشواء. يرفع قمر الأدغال رأساً

خجولاً فتبدأ طقوس مجوسيّة أخرى. طقوس تتقنها الماردة الخلاصية، فتخرج به من خشونة الصحراء، صحراء الحياة والناس والمقاييس، لتدخل به باباً سرياً آخر، يفضي إلى حرمات التعبّم.

استمرّت العلاقة السحرية سنوات، ولكن لا بدّ أن يأتي اليوم الذي يملّ فيه الإنسان الجاحد من فردوس الآلهة، ويبحث عن معلول يخرب به الحرم.

استدرجه أصحابه التجار إلى مغامرة عابرة مع حشيشات مستهترات، ولم يكن من الصعب أن يصل خبر المغامرة الطائشة إلى الماردة الخلاصية. عاد في ليلة فوجدها محمومة. ترش صدرها العظيم بالماء البارد وتهذّي بالهوسا. اختفى غموض الأدغال في عينيها الكبيرتين وعلا شفتيها زبد. سأّلها عن مصابها المفاجي، فأشاحت بوجهها، حاول أن يداعبها فاستكترت ونهرته بخشونة لبؤة. مرر يده على شعرها المفلفل فأجفلت. احتضنها وراودها فاستنكرت ودفعته عنها. لاحظ تورّم جفنيها وشحوب الوجنتين. لم يكن صعباً أن يحدّس السبب برغم أنه لم يتخيّلها رقيقة، حساسة، غيورة، إلى هذا الحد. في الصباح قدّمت له مفاجأة أخرى:

- من حسن حظك أني لست ساحرة حتى أديرك القيد الخفي الذي يشدك إلى، كما لا أملك المال حتى أكتري ساحرة تفعل ذلك نيابة عنّي. فقدت الأب، وكذلك الأخ، حتى لا يكسر رقبتك انتقاماً لي. أنت محظوظ ومحبوب من الآلهة، وأنا بائسة ولا أملك سلاحاً غير قلبي الذي وهبته لك فقدرت به.

فاضت عينها الواسعتان بدموع وأكملت قراءة الإتهام:

- ما أشقي منْ يهب قلباً هذه الأيام! ما أشقي منْ لا يملك سوى قلبه هذه الأيام!

لاحظ أنها أعادت هذه العبارة القاسية ثلاثة مرات كأنها تقرأ تعويذة مجوسيّة ورثتها عن الجدّات الحكيمات، ثم.. خرجت.

خرجت إلى الأبد.

هربت. بحث عنها في كل كانوا فلم يجدوها. سخر التجار والأصحاب والعرافين فعجزوا أن يدلوا على الطريق إليها. وأكثر ما آلمه هو غفلته. وهي غفلة ناتجة عن الجهل بطبيعة ماردات الأدغال اللاتي لم يكن بإمكانهن إتقان طقوس الفردوس السرية لو لم يكن عاشقات. وهو لم يغفر لنفسه جهله بثراء هذا القلب الحساس، المجهول، كما لم ينس حريقاً شبًّ في صدره وفجيعة ما زال يحملها معه إلى اليوم.

(٦)

استعاد تلك اللحظة بعد أسابيع وهو يضع رقبته تحت رحمة السيف. ولو لم تستغرق اللحظة هذه الروح الإعجازية لما قايسها برحمة جنونية مدهشة اسمها الحياة وقايسها بها وهو يهب رأسه للجلاد ويتأهب للعبور الجانب الآخر.

واللحظة الأسطورية بدأت كما تبدأ أي لحظة مماثلة بين رجل وامرأة. بل بين ذكر وأنثى.

استعان بغليون الخشاش كما علّمه ماردته الخلاسية الضائعة ليتزور بالشجاعة ويقتل الجن. فالرجل جبان بطبيعته مهما أدعى الشجاعة عندما يتطلب الأمر تخريب القداسة ومدّ اليد إلى شمار شجرة الحرام. ولكي لا ترتعش اليد ويسطير على رجفة الجن الخفية استعان بالخششاش و.. تجاسر. ذكرته بشرتها الحريرية ببشرة ماردته المفقودة. ولكن ما لم يعرفه، ما لم يذكره بأي شيء، ما استعاده حتى وهو يقف على حافة الفناء، هو ما حدث بعد اللمسة، بعد التماس البكر، الأول. الانطباع الذي خلق الأسطورة، وأعطاه العزاء فقايس اللحظة السماوية بحياة لم يعتقد يوماً أنه يستطيع أن يقايسها بأي شيء آخر حتى لو كان الفردوس والخلود. فهل هي وهم؟ أم لحظة شيطانية، جنونية؟ هل تقدر مخلوقة وديعة ملقوفة بالحفر والحياة أن تصنع معجزة تحرق تجربة الحاج البكاي وتحوّل حكمة الصحراء الكبرى إلى رماد وهباء؟ أم أن هذه اللحظة هي التي قايس بها جدنا الأول ملوكوت الله

فتازل بسيبها عن الفردوس والسعادة واستبدلها بشقاء الأرض؟ نعم. هذا هو التفسير الأقرب. هذا هو التفسير الوحيد الأقرب لحقيقة اللحظة وجلالها.

بعد التماس استعرت الجنية بـألف شعلة. استحال الخفر والحياء والوداعة إلى نار. وتحول هو، الذي هذبته تجارب الأسفار وزوجته الصحراء بالحكمة والوقار، إلى فراشة ودبعة تحترق في النار. تبادل مع الأنثى الخجول التي داعبها منذ قليل وعاملها كطفلة، الأدوار. تحول هو إلى طفل جهول وتولت هي التربع على عرش الخبرة والحكمة.

هذا الجنون كاد ينسيه كلمة السر. جنحت به اللحظة الجنونية حتى كاد ينسى مقتاح الخطأ ويفسخ المكيدة. ولو لم يكن هاجس الانتقام أقوى من كل شهوة لما أفاق من الحلم. ولو لم يدفع ثمرة العمر وكتوز الأرض ثمناً لتدبره لما صاح في الغمضة الأخيرة التي سبقت انفشار اللحظة: «دهشون! دهشون! دهشون!». خرج النداء كحشرجة حيوان ذبيح، كخوار ثور. ولكن دهشون المستنفر الذي يبدو أنه مل، وطال به الانتظار في الدار المجاورة، استجاب للنداء في الوقت المناسب، وهرع إليه مصحوباً برتل الوجهاء. توافق دخولهم مع الشعفة، الشهقة، صيحة البعث، أو، ربما، زفارة الاحتضار وابتهال النزع الأخير. تفقدتهم بنظرية غائبة، بطيئة، ذاهلة. استعاد الحياة والأنفاس ورث بروح مَنْ عاد من رحلة في الفناء:

ـ الحمد لله!

إلى جواره، في المخدع، بدأت المخلوقة النارية تنهش وسادة الجلد جاحظة العينين. بين الرجال المتجمعين في المدخل تبَّينَ كبير التجار. ثم بدأ يكتشف الخصوم واحداً، واحداً.

ساد سكون الصحراء.

عاد يتفقدتهم مرة أخرى. توقف عند كبيرهم الذي علّمهم المكائد والعداوات والسحر. رأى في وجهه ألوان قوس قزح. أدرك لأول مرة ماذا حدث بالضبط. عاد إلى الحياة، إلى الواحة المكبلة بتلال الرمال فغمّرته

سعادة لم يتخيل أن مخلوقاً يمكن أن يفوز بها على الأرض. سعادة غامضة، خفية، ولكنها، يقيناً، سعادة كثيرة.

جرح جلال الصمت عندما رُتل بصوت عالٍ :

- الحمد لله !

فيما استمرت المخلوقة النارية تلتهم سبور الجلد المتسلية من الوسادة. حول شفتيها الشهيتين فزّ زبد كثيف.

(٧)

رفع بابا رأسه عن كدس الأوراق الصفراء. لوح بيده المبتورة في الهواء على عادته وسائل المتهم :

- هل تقر بالتهمة البشعة الموجهة إليك؟

ابتسم الحاج البكاي. سكت طويلاً قبل أن يجيب:

- وهل يحتاج القاضي إلى براهين أخرى لإثبات تهمتي؟ هل تحتاج إلى اعتراف لإثبات جرم وقف عليه كل الوجهاء شهوداً؟

تابعه بابا بفضول. استمر ي Finch به عينين جاحظتين ثم سأله مرة أخرى:

- وما الذي يحمل رجلاً وجيهها ووقوراً مثلك على ارتكاب هذا العمل القبيح؟

أفلت الحاج ضحكة ساخرة. عبث بمنبت لحيته الفضية قبل أن يجيب:

- وما الذي يجبر رجلاً وجيهها ووقوراً مثلك على أن يقطع الصحراء من بلاد شنقيط إلى تينبكتو، ومن تينبكتو إلى «واو»، ومن «واو» إلى غدامس، إن لم يكن شهوة الانتقام؟

تبادل الحضور نظرات ذات معنى. تهams بعض الوجهاء. تشاروأعونان القاضي. أما بابا فخرج من المأذق ببراعة الشالب. تضاحك وواجه الاتهام

على أنه دعابة. لوح بمعصمه المقطوع في الهواء وعلق بتسامح مفتعل، مسموم :

- يخطيء المتهم الجليل إذ يلقى في وجه القاضي بهذا الإتهام الشنيع. فالصحراء شاهد على غاية مسعاي. وإذا كتب ليَ القدر أن أشقي وأتنقل بين الواحات فإن ذلك حدث لتنفيذ العدالة وليس لإزال قصاص مزعم في حق أعداء وهمين خلقهم خيال الفضوليين والعاطلين. يستطيع الشيخ البكاي أن يصدق أو يكذب: لا أعداء لي في هذه الصحراء!

انحنى فوق كدس الأوراق لحظة ثم رفع رأسه فجأة وأكمل بلوئم:

- ولكنني لا أنكر أنني أتعقب الخطأة أينما حلوا إحلالاً لملكت العدل. هل ترى في الصحراء مهمة أكثر قداسة من إقامة عدل الله؟ استمرَ الحاج يداعب لحيته التي انحرس عنها لثامه، ويتسم بغموض. قال بنبرة ساخرة:

- لا اعتراض. حاشا أن يعترض متهم على حكم القاضي.

هب الشفطي:

- انتظر. أنا لم أحكم بعد..

- أعرف أنك لم تنطق بالحكم، ولكنني أعرف أيضاً أنه حكم جاهز منذ زمن بعيد. جاهز قبل أن أجهز على العرافة في «واو»، وقبل أن أصفي الحساب مع الإمام. جهزته وأنت ترى أمك تنتقل بين أحضان الرجال، وأعددت له الصيغة القضائية عندما انخرطت في مدارس مراكش. نعم. أراهن أن دراسة علوم القضاء لم تكن سوى حيلة صغيرة لإعداد الصياغة: صياغة المنطق القديم الذي أصدرته في الطفولة للانتقام، لإشباع هذه الشهوة التي أوقفتك أنها لا تعادلها شهوة أخرى. لقد فرقت يديك عندما حدثت أول جريمة في واحة آزجر وقلت لنفسك: «الحمد لله الذي هداني إلى «واو» ووحبني الفرصة كي أحُز الرقاب!». ولكن الفاعل أفلت. أراهن أن

حسك القضائي لم يخنثك، وكنت تعرف أنني الفاعل الحقيقي، وعندما هربت أردت تقديم قربان آخر لعدالتك المزعومة، لعدالة آلهتك المجنوسية، وووَضعت يدك على رقبة الدرويش المسكين. ولو لم يبعث له الله النذير، لولم يبعث له بكبش الفداء للبحثه إرضاء لإله الانتقام. ولكن حادثة الكبش، معجزة النذير، كانت إشارة سماوية لم تغب عن سلطان عاش كل العمر وهو يتعامل مع نبوءات العرَّافين ورموز السحر. السلطان رأى في الواقع إيماءة إلهية تهدد مملكته وكان ملزماً بابعادك. ولكن هيهات أن يتراجع عن صراط الدَّم من جُلَّ على الكراهة في الطفولة. تناولت عصاتك. وسافرت في أثري إلى غدامس..

قاطعه القاضي :

- تريد أن تقول إني لم أتول القضاء في الواحة إلَّا كي أنتقم منك. ألا ترى أن في هذا طعناً في مرسوم الوالي وتشكيكاً في تزكية القائمقام؟

- لا أرى في هذا طعناً في أي مرسوم، ولا تشكيكاً في تزكية القائمقام. من أين للوالى أو للقائمقام أن يعرفا سرّك؟ من أين لهما أن يكتشفا الشهوة التي ترقد في قلبك؟

- لا تنسَ أنك اعترفت منذ قليل، وأمام هذا الجمع من الشهود، بجريمة أخرى، بل بجريمتيين سابقتين، غير تهمة الزنى.

- ليطمئن القاضي. لم يكن الاعتراف سهواً أو غفلة مني. فعلت ذلك متعمداً كي أثبت لك أن الإنسان لا يعنيه أن يُتهم بثلاث جرائم إذا كانت واحدة من هذه الجرائم تكفي للنطق بحكم بفصل الرأس عن الرقبة. فأنت، يا سي القاضي، لن تستطيع أن تقتضي مني إلَّا على جريمة واحدة ما دمت لا تقدر أن تقتلني ثلث مرات. هي - هي - هي... هل يستطيع وحش الانتقام أن يجرِ القاضي على أن يذبحني ويحرّ رأسي عن رقبتي ثلث مرات؟

- لا يدهشني أنك اخترت الجزاء. لا يدهشني أن تنطق بالحكم نيابة عنِّي.

- إذا قطعت رأسي بالتهمة الأولى فلن تستطيع إلا أن تسلخ جلدي بالتهمة الثانية. أما بالثالثة فستتمثل بجثتي. ولكن الشاة لا يهمها سلخها بعد ذبحها. هل نسيت؟ هيء - هيء - هيء ..

قطع ضحكته العصبية. ارتدى قناعاً آخر. أُسْدَلَ على وجهه عمامة من اكتتاب. قال:

- قلب القاضي كبير وسوف يغفر لي دعاباتي القاسية. ولكن ما أتمناه حقاً هو أن يتسامح إلى النهاية ويأذن لي باعتراف آخر، أخير.

همهم جمع الوجهاء في الزاوية فواصل الحاج البكاي:

- وإذا كنت أعتذر الآن عما سلف فهذا لا يعني أنني أتراجع عما قلته منذ قليل عن الانتقام. بل إن اعترافي الآن سيعطي هذه الشهوة الشيطانية قداسة إلهية خاصة ستترفع بها عن باقي الشهوات الأرضية الذميمة. وعلى جناب القاضي ألا يندهش إذا سمعني أقول إنني لم أقصد إدانته إطلاقاً عندما تحدثت عن سرّه، بل أعترف الآن أنني أعتبر نفسي قريناً له وشريكاً وسندأً في كل ما يتعلق بالانتقام.

اعتذر في وقته. رَمَقَ صف الوجهاء. التفت إلى السجّان الزنجي العلّاق كأنه يستأنده. سحب نفساً عميقاً وبدأ مرافعته بسؤال:

- هل يصدق القاضي أن بإمكان الإنسان أن يضحي برصيد الرحلة الجنونية مرة واحدة مقابل نزوة عابرة حتى لو كان مجنوناً؟

استوقفه باباً ملؤحاً بيده البتراء:

- انتظِرْ. فليحاسبني ربِّي إِنْ كنت فهمت شيئاً.

- صبر القاضي على ثرثري طويلاً، فليكافئه الله إِذْ يصبر على قليلاً. أردت أن أقول إن الرجل لا يقدّم نمرة تعبه في حياة الصحراء والشقاء كي يبال امرأة مهما كان غبياً. وإذا فعل ذلك فلا بد أن ثمة سرّ أكبر. ولا أخفي أنه سر أرى أننا نشتراك فيه. إنه نفس السرّ الذي استعرّته من قماط الطفولة وحملته معك

في أسفار الصحراء لخطأة تنزل بهم القصاص. إنه الانتقام يا سي القاضي. رغبة الانتقام هي التي دفعتي لأن أغسل يدي بالدم في «واو» كما غسلت جسدي بالخطيئة في غدامس. لا تصدق أني قتلت العرافة تيميط كي أستعيد امرأتي وأولادي. لا أتفى أن هذا مبرر ذكي يصلح للدفاع عن النفس أمام قضاة يبحثون عن مبررات. ولكنني أعرف أيضاً أنه مبرر عديم النفع أمام قاضٍ يخفى في قلبه سرّاً مثل الشنتفطي بابا. وهذا الاكتشاف لا يحتاج إلى فراسة خاصة. هذا اكتشاف لا يستدعي أن تتمتع بمواهب العرافين أو السحرة. إنه يحتاج فقط إلى أن تملك قلباً مثل قلبه وتتخد من هذا القلب كهفاً تخفى فيه نواياك السرية، مثل نُسَاك الصحراء تماماً. إنهم يدارون هزيمتهم في الخلوات والكهوف، ويقتلون أنفسهم بالصيام عشرات السنين ليطعموا غول الانتقام من العالم. غول العداوة لبني الإنسان. نعم. غول الانتقام هو الذي أفقد الحاج البكاي صوابه فقدم جوالات التبر، ثمار الشقاء والأسفار والجريمة، رصيد الجنون والحياة، مقابل أن ينال امرأة كبير التجار!

التفت إلى صَفَّ الوجهاء فاللتقي نظره بكبير التجار. نَكَسَ الخصم المهزوم رأسه فواصل البكاي خطابه بانتشاء وحماس:

- أستطيع أن أقسم أن الله لم يخلق شيئاً أَلَّا من لحظة الانتقام. أستطيع أن أقسم أن الفردوس في لحظة الانتقام.

تعالت أصوات الاحتجاج. سمع الحاج احتجاج الفقيه:

- أستغفر الله من تجذيف المجروس. أعود بالله من قَسْمِ الزناة.

أسكتهم القاضي بإشارة من معصمه المبتور، فواصل البكاي المرافعة:

- تظن يا سي القاضي أني اخترت الجزاء بمكيدتي الأخيرة. يؤسفني أن أقول إن التوفيق لم يحالفك هذه المرة. لقد اخترت جزائي منذ زمن أبعد بكثير. اخترت قصاصي منذ استسلمت للغرابة الأولى فغرت عن نفسي، وعن الصحراء، بالخروج طلباً للثُّبُر المشؤوم إرضاء لها. ولكنني لم أفهم جوهر اختياري إِلَّا أخيراً. لم أفهم خططي إِلَّا بعد فوات الأوان. ولم يكن فقدان

امرأتي وأولادي إلأ حلقة صغيرة من هذا القدر. وقد أيقنت بهذا المصير نهائياً عندما وصلت طرابلس متأخراً. وصلتها مُحَمَّلاً بائقال التُّبر كي أحمر العائلة. ولا أخفى عليك أني حاولت طوال الرحلة أن أختنق نداء مجھولاً ظلّ يحدثني طوال الوقت باللأجدوى. وعندما وصلت ووجدت السفينة قد أبحرت قبل وصولي بيومين لم أفاجأ كثيراً. لحظتها قررت أن أمضى في الصراع الذي رسمه لي قَدْرِي فبدأت أنسج مكيدتي الصغيرة. ها - ها - ها . . . قررت أن أكافيء نفسي على المتعاب وأعطي غول الانتقام حقه. وإذا كنت قد تجاسرت منذ قليل وتحدثت عن لَذَّة الانتقام فليس مني باعتراف آخر.

تلَّفت حوله بهدوء. رمق الخصوم بنظرة انتصار. اعتدل في وقته. أَوْمَأْ له القاضي أن يتبع. برق مقلاته بوميض خبيث. هَرَشَ رأسه وَحَدَّجَ غريمه قبل أن يقول :

- فليس مني الله ولكن لَذَّة الانتقام تساويها لَذَّة واحدة لم تخطر لي على بال وأنا أنهمك في تنفيذ خطتي. لم أكن من أنصار الشهوات يوماً ولم تستهونني النساء منذ استبدلت الغاية بالوسيلة ونسرت الهدف من تكديس الذهب، ولكن امرأة كبيرة التجار، هذه المخلوقة الوديعة، الخجولة، الصغيرة، قَلَّبت خطتي وقدّمت لي الدليل على أن ثمة شيء آخر يستطيع أن يساوي نشوة الانتقام. شيء اسمه العناق! إني أشعر بالعار إذ أتحدث أمام خصمي القديمي عن حَرَمِه المصون، ولكن الإعجاز أنها منحتني سعادة فاقت سعادة الانتقام نفسه. لا أُفْشِي سرّاً إذا قلت إنها منحتني أتعاب الرحلة كلها في لحظة واحدة. دفعت لي ثمناً يفوق جوالات التُّبر التي دفعتها لها. قَلَّبت المقايسة القديمة عندما أضعت الطريق إلى المرأة في غمار بحثي عن سلاح الإغواء، فأعادتني، بالصدفة، إلى قلب المعادلة. وجدت حواء الحقيقة التي أضعتها عندما كنت مهتمكاً في صنع شرُك الانتقام. ولكن الإنسان لا ينال السعادة إلأ بعد فوات الأوان!

التفت إلى كبير التجار وقال بصوت هامس :

- صدّقني أيها الكبير الفاضل أنك كسبت امرأة لا وجود لمثلها إلاّ في الفراديس. وليطمئن السيد الفاضل أني سأحمل لها الذكرى إلى يوم أبعث حيّا. هذا دينّ علىّ!

سكت، ثم سأّل فجأة:

- ولكن قل لي: هل ما زالت تلتّهم وسائد الجلد؟

أعقب السؤال بقهقهة شريرة، شيطانية، كريهة.

(٨)

لم يندهش أحد في الواحة عندما انتشر الخبر بعد يومين. وبعد خروج كبير التجار من دار القضاء ذهب إلى بيته. أغلق الباب بالمزلاج وشنق نفسه.

أما القاضي الشنقطي فلقي مصرعه أيضاً بعد ثلاثة أيام من تنفيذ الحكم في الحاج البكاي.

وما أدهش الأهالي هو أن مصرعه حدث بنبوة من البكاي، وفي اليوم الذي حدّده تماماً. فقيل إنه قال في نهاية المرافعة: «نحن لسنا رفيقان في سرّ الانتقام وحده، ولكن النجوم ربطتنا بمصير واحد أيضاً. ستموت بعدي بثلاثة أيام، وينفس الطريقة» فسخر منه القاضي وسأله: «هل هذه نبوة؟ هل أنت عَرَاف أيضاً؟». ولكن المتهم اكتفى بابتسامة خفية كأنه يذكّر بابا بسيرته القديمة مع قاطع الطريق الذي بتر يده عملاً بشرعية العين بالعين والسن بالسن.

بعد ثلاثة أيام، في الموعد المحدد، تحققت النبوة.

هاجمه ثلاثة أشقياء، وفي رواية أخرى أربعة، وهو في طريقه إلى بيته.

قيّدوا يديه وراء ظهره وذبحوه بوحشية. رويت أساطير كثيرة عن الأحداث التي أعقبت هذا العمل البشع. قالوا إنه ركض وراءهم وهو يتزف ويصبح

بحشرجة ذبيح . وأشار آخرون أنه وصل دار القضاء ، ولفظ أنفاسه الأخيرة هناك .

ظللت الواحة الفضولية المعروفة بظماءها التاريخي للأساطير والشائعات تتحدث طويلاً عن المحاكمة وما نتج عنها من أحداث دموية . تحدثوا أيضاً عن النبوءة فقالوا إن البكاي اللثيم اشتري قطاع الطرق بال-tier قبل أن يموت كي يتولوا أمر القاضي إذا نفذ فيه حكم الموت ، فذهب مكيدة وهو في القبر العن من تلك التي دبرها وهو على قيد الحياة .

٢ - دِيَاسِبُورَا^(*)

«في ذلك الزمان صعد عبيد نبوخذنصر ملك بابل إلى أورشليم فدخلت المدينة تحت الحصار. وجاء نبوخذنصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصر ونها. فخرج يهوياكين ملك يهودا إلى ملك بابل هو وأمه وعيده ورئاسته وخصيائنه وأخذه ملك بابل في السنة الثانية من ملكه. وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل آية الذهب التي عملها سليمان ملك إسرائيل في هيكل الرب كما تكلم الرب. وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جباررة البأس عشرة آلاف سبي وجميع الصناع والأقيان. ولم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض».

المهد القديم
سفر «الملوك الثاني»
٢٤ الإصلاح

(*) دِيَاسِبُورَا: (كلمة يونانية) الشتات. السبي. الانتشار.

(١)

يكاد أهل الرأي ورواة الأثر يجمعون أنَّ أسطورة واحدة لم تكن ل تستقيم في الصحراء إذا لم يشارك في صنعها الجنَّ وينفحوا فيها من روحهم. وبرغم ما في هذا الرأي من تطرف إلا أنَّ الطريقة التي توارثها الأجيال عن أحداث صنعت زوال «واو» تجبرنا أن نصدق الصيغة الأسطورية التي رأها أهل الرأي وروهاها أهل الذكر.

ولكن أهل الخفاء لم يتولُّوا صياغة الأسطورة فقط، بل شاركوا في صنع الأحداث وساهموا في إزالة معبد الذهب ومحوه من الصحراء الوسطى. في رواية أخرى أنهم أشقياء بني آوى، تnadوا وجمعوا أشنانهم لأخذ الثأر والانتقام من آرجر. ولكن حتى هذه الرواية لم تتفَّق مشاركة الجن في الغزو. فقيل إنَّ زعيم بني آوى استنجد بهم وذَّكرهم بتحالف قديم أبِّرمه الأسلاف، فهربوا للنجدة وتَنَكَّروا تحت أقْنَعَة ابن آوى، وهو وحش غَدَار أيضًا تَبَرَّكَ به القبيلة الشقية، ولا تَخُذ من رأسه تاجًا في الغزوات أو الحفلات فقط، ولكنها تعتبره سَلَفًا، جَدًا، إلَّا تَقْدُمْ له الذبائحُ وَتُسْفَعْ لِأرْضَائِهِ الْقَرَابِينُ. ولكن عشاقَ التيهِ، الذين يسمِّيُّهم أتباعُ الْقَادِرِيَّةِ زُهَادًا وَطَلَابًا لِللهِ، أجمعوا أنَّ محاربي بني آوى حتى وإن شاركوا لم يكونوا سويَّ قلة، لأنَّهم لن يقدروا على الفتك ببيان «واو» المرصوص في ساعات مهما كان عددهم. وأرجعوا البلاء إلى تدخل الجن. وأضاف عشاق الله والتيه أنَّ الخلط خرج على «واو» في الهزيع

الأوسط من الليل من فم الظلمات المرفع إلى السماء بقرون الشياطين، وانتشرت الأشباح في السهل كله قبل أن تنقض وتبدا العدون.

في حين روى الرعاء وسكان الكهوف المجاورة رواية شيقة عن الغزوة. قالوا إن الحلف تكون من الأجناس الصحراوية الثلاثة: الجن والإنس والحيوان. فقبيلةبني آوى لم تنجاس على الحنث بالعهد القديم وتعبر الحدود إلا بعد أن تشجع بحيوانها المؤله الذي خرج لها من الأدغال وسار في المقدمة مقرراً أن يتولى الأمر بنفسه ويثار لقبيلته من أعدائها القدامى. وحذى الرعاء وهوة الخرافات تفاصيل كثيرة عن الطقوس المجنوسية التي مارستها القبيلة قبل أن تفوز بباركة ابن آوى الإله. وقال هؤلاء الهوا أن زعيم القبيلة ذبح بنفسه سبعة أطفال وثلاث عذراوات قرباناً لإله الغدر قبل أن ينال موافقة الحيوان ويأخذ الإذن بالتحرك. وقد تولى أهل الخفاء دور إخفائهم عن الأنظار فهربوهم عبر النفق الرهيب الذي يبدأ من إيدينان ويفضي إلى الصحاري المتاخمة للغابات. وما أن نزلوا إلى السهل حتى حل فيهم الجن جميعاً، فبدأت وحوش ابن آوى تنهش العباد وتمزق الأجساد، فيما تولى الجن والإنس ضرب الأعنق، وتحطيم المصارع والأبواب، وإشعال الحرائق في البيوت والدكاكين والأزقة.

ولكن عشاق الله والتبه الأبدى انتحلوا الأعذار للجن ووجدوا المبررات للغزو. فرددوا، بتنزعتهم التشكيكية، أو فلنقل الزهدية، أن أهل الخفاء جاءوا ليستردوا كنوزهم، ويأخذوا ثروتهم القديمة التي آتوا على أنفسهم أن يجمعوها في الجبل الخفي وتعاهدوا بشأنها مع أهل الصحراء بأن يتجلبوا. ولئلا كان أهل الصحراء هم الذين حثّوا بالوعد وخانوا العهد فقد كُتب عليهم القصاص ورمادهم القدر بالبلاء.

(٢)

لم تشهد الصحراء، في تاريخها، غزوة خلت من بطولات. والمثير في بطولة الغزوة الأخيرة هي أن صاحبها كان السلطان نفسه. فجاء

أن كثافة الغَرَّة وشراسة القوى المغيرة تكفي لإزالة «واوٌ» في ساعات، ولكن بسالة السلطان في دفاعه عن فردوسه الأرضي هي التي أجبرت الأعداء على التراجع ورَدُّتهم إلى جبل الظلمات مع طلوع الفجر. وروي أنهم فشلوا في إصابته طوال العراق. جرَّبوا الحِرَاب، والسيوف، وكذلك النبال المسمومة دون أن يُصاب الجنَّي «أناي» بأي جرح. سَلَّطوا عليه ابن آوى ليمزقه بالنَّاب ولكن الوحش لم يفقد أنيابه فقط، بل ضاع بضربة وحشية من سيف السلطان. تكأأ عليه الحلف الثلاثي، المزيج البشري، الحيواني، الجناني، دون أن يفلح الخليط في إصابته بأذى. عادوا في الليلة التالية وواصلاً العراك. حصد منهم، بسيفه الأسطوري، في رواية أخرى الذهبي، العَشْرَةَ بل المئات. ولم يتمكنوا منه إلَّا بعد تدخل خصمهم القديم إيدكران المجدور! فُزِّ العَرَافُ المَجُوسِي إلى زعماء الفرق الثلاثة وأمر بِيَقْافِ القتال. وقف أنياي على الرابية، يشرِّ الرَّبَدَ ويغتسل بالعرق، أحاط به الوحش من القبائل الثلاث في حين اجتمع إيدكران مع الزعماء على إنفراد. قال لهم: «إنِّي أعرَفُ سَرَّ هذه التَّعويذة. السُّلْطَان مَحْصُنٌ ضدَّ كُلِّ الأَسْلَحةِ ولن يموت إلَّا بالحِبَال». بدأت معركة حِبَالِ المَسَدَّ. كان المقاتلون يلوُّحُون على رقبته حِبَالَ الْوَهْقِ ولكنَّه نجح طوال الوقت أن يصيَّبها بسيفه الذهبي العجيب ويُمزقها في قطع صغيرة. اقترب النهار فَرَّ الغَرَّة واعتصموا بالجبل. في الليل عادوا من جديد، مسلَّحين بخطة جديدة. أشار عليهم إيدكران أن يستعملوا طريقة الإطاحة بالجمال الفتية. أحاط به أشرس المقاتلين. انقسموا إلى فريقين كبيرين. شدُّوا حِبَالاً طويلاً من المسَدَّ الطازج. تحركوا نحو الرابية يقودهم إيدكران بنفسه. أقبل عليهم السلطان شاهراً سيفه الخرافي فسارع الوحش وطافوا حوله بالحِبَال الشرهة. استطاع أن يمزق حِبَالاً كثيرة ولكن حركة السيف في يده كانت أبطأ من سعي الأعداء فتمكَّنوا منه والتَّفَّ بعض الحِبَال حول رقبته كثعابين الأدغال. استمرَّ يقاوم. قطع حِبَالاً أخْرَى ولكن الغَرَّة كانوا قد احتاطوا للأمر فهجم فريقان آخران بحِبَالٍ جديدة تضمن استمرار الإنفاف وشدَّ الخناق. استمرَّ السلطان في المقاومة واستمرَّ الوحش في خنقه بالحِبَال إلى أن صاح إيدكران: «توقَّفوا. الآن دعوه لي».

هَجَمَ عَلَيْهِ بِيَدِيْنِ عَارِيَتِيْنِ. سَقْطُ السِّيفِ مِنْ يَدِ السُّلْطَانِ. تَرْنَحُ جَاحِظُ الْعَيْنَيْنِ. انْحَسَرَ لِثَامِهِ عَنْ فَمِ مَزْبَدِهِ وَلِحَيَّهِ بِيَضَاءِ. وَلَا أَحَدٌ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمْيِّزَ، تَحْتَ ضَوْءِ الْقَمَرِ، عَمَّا إِذَا كَانَ الْبَيْاضُ فِي الْلِحَيَّ نَاتِجاً عَنْ غَمْرِ الرَّبْدِ أَمْ هِيَ إِشَارَةُ الزَّمَانِ. عَلَى صَدْرِهِ، بَيْنَ التَّعَاوِيدِ الْمُخِفَّةِ، لَمَعْ مَفْتَاحُ الْخَزَائِنِ الْأَسْطُورِيِّ عِنْدَمَا انْكَسَرَ الشَّعَاعُ الْفَضِّيِّ الْخَجُولُ عَلَى سَطْحِ الْمَعْدَنِ الْمَمْسُوسِ.

الْتَّحْمُ الْجَنِيَّانِ.

اسْتَمَرَ الْصَّرَاعُ طَوَالَ اللَّيْلِ. وَيَبْدُو أَنَّ الْصَّرَاعَ، أَيِّ صَرَاعٍ، يَصْبُحُ قَاسِيَّاً، وَحَشِيَّاً، لَا إِنْسَانِيَّاً، عِنْدَمَا يَكُونُ دَائِرَأً عَلَى الْمُصِيرِ، نَاشِبًا فِي سَبِيلِ الْحَيَاةِ أَوِ الْمَوْتِ. وَبِرَغْمِ هَذِهِ الْقَسَاوَةِ، وَالْوَحْشِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ فَإِنَّ الْفَنَاءَ يَعْطِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَيَضْفِي عَلَيْهِ جَلَالًا وَقَدَاسَةً لَا يَتَمَيَّزُ بِهِمَا أَيِّ عَرَكٍ آخَرَ.

وَقَفَ جُنُودُ الْفَصَائِلِ الْثَلَاثِ. لَمْ يَتَدَخَّلْ أَحَدٌ. لَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ. إِلَى أَنْ أَطْبَقَ أَيْدِكَرَانَ الرَّهِيبِ بِيَدِيهِ عَلَى رَقَبَةِ السُّلْطَانِ وَخَنَقَهُ. قَالَ عِنْدَمَا فَرَغَ مِنْهُ: «عَابَ عَنِكَ أَنَّ الْحَصْنَ يَبْطِلَ التُّبَرِ. وَلَنْ يَنْجُو مِنَ الْهَلَاكِ مَخْلُوقٌ اتَّخَذَهُ إِلَهًا. فَاتَّكِ يَا مَسْكِينٍ. كَمَا فَاتَ قَبْلَكِ كَثِيرِينَ، أَنْ مَنْ أَمِنَ بِهِ وَعْدَهُ كَفَرَ بِإِلَهِ التَّوْحِيدِ وَالْقُرْآنِ. فَمَنْ مَنَّ مِنَ الْمَجْوُسِيِّ يَا سُلْطَانَ التُّبَرِ؟».

انْتَزَعَ مِنْ صَدْرِهِ الْمَفْتَاحُ الْذَّهَبِيُّ وَأَلْقَى بِهِ فِي الْهَوَاءِ. وَمَضَّ تَحْتَ ضَوْءِ الْقَمَرِ قَبْلَ أَنْ يَتَلَقَّفَهُ مَقَاوِلُ الْجَنِّ.

(٣)

فِي عَتْمَةِ الْفَجْرِ تَرَحَّكَ الْقَافِلَةِ.

سَارَ الرِّجَالُ فِي طَابُورٍ طَوِيلٍ مَقِيدِيِّ الْأَيْدِيِّ، مَشْدُودِيْنَ بَعْضَهُمْ إِلَى بَعْضٍ بِحَالِ الْمَسَدِ، يَحْرِسُهُمْ أَوْغَادُ بْنِي آوَى بِالْعَرَابِ الْمَسْمُوَةِ. خَلْفَهُمْ سَارَتِ النِّسَاءُ فِي صَفٍّ آخَرٍ، مَحْرُوسَاتٍ بِجُنُودِ الْجَنِّ. أَمَّا الصَّيْبَانُ وَالْفَتَيَانُ فَمَشُوا فِي الْخَلْفِ مَقِيدِيْنَ أَيْضًا يَهْشُمُهُمْ وَحْشُ ابْنِ آوَى كَقْطِيعٍ مِنَ الْأَغْنَامِ. وَرَوَى

الرعاة وسكان الكهوف، الذي إدعوا أنهم شاهدوا المسيرة، أن جل السبايا كانت من القبيلة. وأرجع الرواة سر ذلك إلى ما تعرّضت له «واو» من تخرّب وقتل ونهب بسبب احتوائها للذهب وتمسّك أهلها بمعدنهم. أمّا القبيلة فنالت تنكلاً أقل برغم ضراوة رجالها في مقاومة الغزاة. وفي رواية لعشاق التيه أن واحة المجوس تعرّضت للزوال والإبادة لأنّ عنة الجنّ هم الذين تولوا أمرها. ولكن العقلاة يرون أن في الغزوة، كما في الخرافة، يبقى سرّ تظل الأجيال طويلاً تبحث له عن تفسير مقنع.

(٤)

أطلال «واو» ظلت قائمة في السهل لأكثر من قرن. بقيت آثاراً يتشاءم منها الرّحل ويرون في أنقاضها خرائب مسكونة بالأشباح والجن إلى أن جرفتها السيول الشهيرة عام ١٩١٣ فزالت حتى الأطلال ولم يبق منها حجر على حجر.

(٥)

يُرجع حكماء الصحراء معظم الطقوس إلى تلك المسيرة الخفية عبر نفق الظلمات التي استغرقت شهوراً، وفي قول آخر، سنوات. فبعد مضي أيام من المسيرة تُشبّ خلاف بين السلالات الثلاث حول اقتسام الغنيمة. ذلك أن جنودبني آوى أرادوا أن يستولوا على النساء فصَدَّى لهم الجن ورأوا أن تكون النساء من نصيبهم. اعترض زعيمبني آوى وحاججهم بالقول إن الإستيلاء على الذهب والنساء معاً هي قسمة جائرة، ولكن ملك العجان ذُكره بأن العُرف جرى أن ينال حصة الأسد منْ قام بدور ملك الغابة في الغزوة. وهذا الدور الذي قام به الجن هو الذي جاء بالغوز. انتهى الحوار إلى أن يكون نصيببني آوى طابور الرجال، وأعطى ملك الجن طابور الصبيان والفتیان لوحش ابن آوى، وبقيت النساء حریماً في الظلمات.

في هذا البقاء بدأ تحرير النساء ذكر أزواجهن بالأسماء، كما حُرِّم على أولادهن الخُسْنُ^(*) أن يتسبوا إلى آبائهم من أهل الخفاء، فتوطد في الصحراء تقليد النَّسَب إلى الأم. كما خلَّفت تلك الرحلة كنزاً من الأساطير ما زال الصحراويون يتناقلونها إلى اليوم.

(*) الخُسْن: مخلوق خليط بين الإنس والجن.

٣ - الكفن

«وقال الرب لإبراهيم: اذهب من أرضك ومن عشيرتك
ومن بيت أبيك، إلى الأرض التي أريك»

سفر التكوين إصحاح ١٢

(١)

قال الدرويش: «ذهبت لزيارة وادي الطُّلُح فغفوت هناك قليلاً. ولكن هل يعقل أنني نمت خمسة أيام حقاً؟». أفادت تناولت: «خرجت وراء الجديان في الوديان الجنوبية. تعبت فهجمت في كهف. لا أصدق أن تلك الغفوة استمرّت أياماً!».

التقيا في الخرائب. جاء هو من الشرق وصعدت هي من الجنوب. هاما في الخراب ودارا بين الجثث، حتى تقابلوا مثل شبحين. لم يتكلما. تفقدا الضحايا صامتين. ولكنهما نسيا القربان الذهبي الذي تقدما به للجن يوماً حتى عندما تحاورا وبحثا عن المبررات لتفسير النجاة.

(٢)

اجتازا رماد النجع. بلغا بوابة السور: الضلفة اليسرى أكلتها النار، ولكن الفحمة الهائلة ظلت تتشبّث بطرف الجدار، فيما انخلع الجزء العلوي من الضلفة اليمنى وبقي الباب معلقاً في الحائط من عقبه. حول البئر انتشرت أحداث الموتى. دبت الديدان فوق بعض الجثث، ورقدت أخرى في برّك من الدّم والدهن والصديد. في حين حنّت الشمس جثثاً أخرى فلم تصب أجسام هؤلاء الأخيار بأذى. لم يتزلف لها جرح ولم يتضّصد من البدن دهن ولا صديد ولا قبح، فظلت جاحظة، تحدّق في الفراغ كأنها استلقت لتنعم بعفوة

القليولة. بل إن موسى لاحظ على شفاه هؤلاء ابتسامات ساخرة، وأخرى سعيدة كأنها تبتهج إذ نالت الخلاص أخيراً.

فوق واو حامت الغربان وتصاعد دخان العرائق وعفن الجثث.

تقىات تفاوتت ثلاث مرات. اشتكت من الدوار والصداع ودعنته للخروج من الواحة. ابتعدا نحو الجنوب الشرقي. رقمهما ايدينان المغورو بحزن وتلقيا منه العزاء. قعدت تفاوتت على حجر ورکع سهل الخراب تحت قدميها. تلوّن وجهها بالشحوب والحمى. قالت بصوت غائب:

- لم أحلم في طفولتي إلا بولد. كنت أبكي وأزحف وراء أمي وأطلب ولداً. انتهتني. ضربتني. رأت لي مستقبلاً خليعاً. قالت إن بنتاً في سني تطلب ولداً ستجلب الشؤم والعار على الصحراء. ولكنها كانت تعزى نفسها وتقول إن الأنثى خلقت للعار. للرجل. لكل الرجال. إذا جاءت أنثى إلى دنيا الصحراء فهي ملك لجميع رجال الصحراء. قدرها أن تغوي وتمتلك جميع الذكور. استبدلت الذكور بالرجال في النهاية. ولكنني لم أتوقف عن المطالبة بالولد. تحايلت جارتنا العجوز وصنعت لي ولداً شفياً من الخرف وأعواد الحطب. كانت له عينان حمراوان كعيني جنٌ صنعتهما الجنية العجوز من الخرز الأحمر. فرحت به خلال الأيام الأولى ثم ما لبثت أن مزقه وقضيت عليه عندما اكتشفت أنه ليس ولداً حقيقةً: مجرد دمية يملكونها كل الصغار. رفعت الاحتجاج إلى أمي فضربتني وربطتني بالحبل إلى وتد. تركتني أيام بلا طعام. ولكن العقاب لم ينل مني ولم يجربني على التراجع. طالبت بالولد حتى أيقنت الأم أنني بنت جنية. غافلها أهل الخفاء واستبدلوها بابتئهم. قالت إن الاستبدال حدث عندما خرجت إلى المرعى وتركتها وحيدة بدون حماية. نسبت أن ترشق المدية بجوارها لإرهاب لصوص الجن، كما سَهَت في ذلك اليوم ولم تحصّن معصمها بصرة الشیع. يومها حدث الاستبدال. تصيّدت الفقهاء وجَرَّت السَّحَرَة كي يساعدوها في استعادة ابتها الحقيقة. ولكن الصحراء، لسوء الحظ، عانت تلك السنوات من غياب السَّحَرَة الأكفاء بسبب الجدب وتوقف القوافل عن المرور بوديان «مساك صطفت».

توقفت. أنشئت لعين الغربان. تابعت سرباً آخر من الطيور أقبل من الشمال ونحام حول السهل.

أكملت:

- ولكنني كبرت وعرفت أنني لن أفوز بولد إذا لم أحصل على رجل. عرفت أن طريقي لا بد أن يمر عبر الرجل. بدأت أهتم بالشبان، واخترت «أوداد» في النهاية. لم اختره بسبب القرابة أو النسب ولكن استهوانني فيه اللون الأخضر. أردت ولدأً أخضر لأن عجائزنا تقول إنه لون الخلود والأولاد الخضر لا يموتون أبداً. إنهم كجدهم الضب، يتارون وراء الحجارة فقط ليعودوا مرة أخرى. نلت ما أردت. أوداد أعطاني الولد. الدمية الحقيقة. و.. هرب.

عاد إلى جباره. كان ولدأً مثلث يعرف ما في الصدور. أدرك غايتي فوهبني عطبيتي وانسحب. لا تظن أنا تحدّثنا عن الأمر يوماً. ولكن كل شيء كان مرتبأً حسب نية خفية. كأنه تدخل من القدر. وعندما انسحب لم أحتاج. ولم أجبر وراءه. ولم أطالبه بالطلاق. أعطاني ولدي وأعطيته حريته. هكذا تمت الصفقة.

سكتت مرة أخرى. هب نسيم شمالي رطب. لاحت في الأفق سحب بعيدة. بدأت الشمس تزحف نحو العرش لتوسيط السماء. تابعها موسى صامتاً. استمرّت:

- ولكن القدر لعب معه أيضاً فدبر له مصيرأً آخر. أعترف الآن أن هذا مصير لم يخطر لي على بال. مسكين منْ استرخي وترك أمره للقدر! .
ناحت على طريقة الأتباع. تمايلت كالمجذوبة ولكنها لم تسفح دمعة واحدة. الشحوب وحده أشار لفجيعتها. تساءلت:

- فلماذا لا يعود الغياب؟ لماذا لا يعود الغياب في الصحراء؟

حالو أن يعزّيها:

- السبايا يعودون.

هَبَّتْ كأنها كانت تنتظر هذا الغَرَاءِ :

- متى عاد الأسير الذي سَبَاهُ الجن؟ هل سمعت بمخلوق واحد عاد بعد أن دخل إلى نفق الظلمات؟

- . . .

- أجبني!

سكت الدرويش. استغَرَّها السكوت عادت لأسئلة النواح :

- لماذا لا يعودون؟ لماذا يختفون إلى الأبد؟ أين يتوارون؟ في الحجر؟ في تراب الأرض؟ في الفراغ؟ في الضوء؟ في الريح؟ في ذرات الرمل؟ في سكون الصحراء؟

انتهز الدرويش الفرصة :

- قلت منذ قليل أنهم يتوارون وراء الحجارة كالضَّبْ ليعودوا مرة أخرى. ألم تقولي إن العجائز تقول ذلك؟ ألا تعلم العجائز أكثر مما نعلم؟

تمتمت نائحة :

- يعودون في ثياب أخرى، في لباس جديد، بعد أعوام طويلة. بعد أن أكون أنا قد غبت، قد ذهبت بحثاً عنهم. أنا أريد ولدي الآن. ولدي الأخضر. يافجعيتي في ولدي المسكين. لماذا لا تحب؟ لماذا هجرتني؟ لماذا آثرت الإقامة في كهف الظلمات؟ لماذا انفصلت عن أمك وقايسنها بجنية لعوب؟ نعم. أعرف أن الولد لا يهرب من أمّه إلّا إذا أغونه امرأة. إلّا إذا استأثرت به جنية. ولكن احترس! لعب الجنية سُمّ زعاف. السم في فم الأنثى حتى لو لم تكن جنية. احترس!

تابع موسى خطابها مدهوشًا. حام حول رأسها. تجنب إشارتها. تركها للفجيعة. ولكنها لم تذرف دمعاً. قال في نفسه أن المفجوعة تبكي بالقلب. تألم. أحسن بقصارة القدر. بكى بالدموع نيابة عنها. أخفى عينيه بزمalte وشعر بالسائل يمزق وجنتيه. سمعها تستسلم وتمتم :

- لا فائدة. رثائي لن يعيده. فجعيتي لن تعيده. تركني والتحق بائيه.

نسيت أن الولد لا بد أن يذهب وراء الأب يوماً. سعادتي به أنسنتي أشياء كثيرة. ولكن القدر لا ينسى ولا يسهو.

ثم أُلْحِقَتْ هذينها بلاحتجاج مفاجئ:

- خَبَرْنِي . حَدَّثَنِي عن السبب. أَجِبْنِي : لِمَاذَا لا يعود المهاجر؟ .

لِمَ يَجْبَهَا . أَلْقَتْ فِي وَجْهِهِ تَهْمَةً :

- الست على علاقَةٍ حَمِيمَةٍ بِالله؟ أَلْسْتَ وَلِيَهُ الْأَثْيَرُ؟ .

- لَسْتُ وَلِيَّاً .

- مَنْ أَنْتُ؟ .

- أَنَا الدَّرْوِشُ !

- وَمَنْ هُوَ الدَّرْوِشُ إِنْ لَمْ يَكُنْ وَلِيَّاً؟ .

- لَا أَعْرِفُ . لَا أَعْرِفُ شَيْئاً .

تَهَيَّأَ الْقَرْصُ لِلَاخْتِجَابِ وَرَاءِ السَّحْبِ . تَسْتَرُ بِهَا لَهُ كَسَاهُورُ الْقَمَرِ وَا كَتَابُ وَرَاءِ الْغَلَّةِ .

تَكَلَّمَتْ :

- رَفَضْتَ عَرْضِي يَوْمَاً وَأَثَرْتَ الْأُمَّرِيَّةَ . وَلَكِنَ الْقَدْرُ الَّذِي خَطَفَ وَلِيَ لَمْ يَجْمِعُكَ بِهَا ، لَأَنَّهُ أَعْدَّ لَهَا مَصِيرًا آخَرَ . وَهَا هُوَ يَعْيِدُكَ إِلَيْهِ . فَأَيْنَ سَهْرُكَ؟ أَنْتَ فِي قَبْضِيِّ . سَنَدِّثُ الْقَبْيلَةَ إِذَا لَمْ نَتَزَوَّجْ . هَلْ يَرْضِيكَ أَنْ تَنْقِرُضَ الْقَبْيلَةَ؟ .

هَبْ وَاقْفَاً . أَحْسَنَ بِجَهْدِ الْحَيَّةِ يَلْتَفِحُ حَوْلَ رَبِّهِ . نُغْمَةُ الْغُنْجُ أَثَارَتْ فِيهِ الْفَزَعَ وَالْغُثْيَانَ . كَادَ يَبُوحُ بِالسَّرِّ . كَادَ يَصَارِحُهَا بِمَا أَخْفَاهَ حَتَّى وَهُوَ يَضْعُ رَبِّهِ تَحْتَ سِيفِ الْقَاضِيِّ الشَّنْقِيَّيِّ . نَزَلَ الْمَرْتَفَعُ بِخَطْوَاتٍ وَاسِعَةٍ . رَكَضَتْ فِي أَثْرِهِ . أَمْسَكَتْ بِطَرْفِ ثُوبِهِ . التَّقْتَ نَظَرَاهُمَا فِرَأَيْ فِي عَيْنِيهَا عَنَادَ الشَّيَاطِينِ . عَنَادَ الْأَنْثَى ، الْشَّكْلِيِّ ، عَنِّدَمَا تَقْرَرَ أَنْ تَكْسِبَ الْذَّرِيَّةَ وَتَخْلُقَ الْحَيَاةَ .

تَكَلَّمَتْ هَائِجَةً ، بِلْغَةٍ مَتَوْحِشَةً :

- هَلْ تَظَنُّنِي أَجْرِي وَرَاءِ الرِّجَالِ حَبَّاً فِي الرِّجَالِ؟ هَلْ تَظَنُّنِي أَنْ إِمْرَأَةً

واحدة يمكن أن تعشق رجلاً لولم يخف السر، الذرية، في صلبه؟ هل تظن أن في الرجل شيئاً آخر يستحق أن ينال عليه عشق المرأة؟ أنت مغرور كأي رجل آخر. كل الرجال مكابرون أوغاد. كلهم يتوهّمون أن المرأة دمية خلقت لتمتعهم وتسلّيهم. ها - ها... يالكم من قرّب متفوّحة بالهواء. أوغاد. كلّكم أوغاد. أنت أيضاً وغد! الدرويش وغد ومكابر! ها - ها - ها...

إنزع ثوبه من يدها. ركض نحو الخرائب. ركضت وراءه. أدركته. إعترضته. في عينيها الألق والغموض والجنون. توسلت بصوت مبحوح: - إرحمني إذا كنت لا تبالي بزوال القبيلة. أعطني الولد واذهب في حالي. سأعتقك إذا أعطيني الذرية. هذا وعد مني. أعطني الولد وخذِ الحرية. ليس أمامك سبيل آخر.

ثم ركعَت على الأرض وشرعت تشر التراب في الهواء:

- أنظر إلى التراب. أنظر إلى الهباء! كلنا سذهب كالهباء إذا لم نترك الأثر. أبداننا ستختفي في الذرّات. سنغيب أيضاً ولن نعود. هل يرضيك أن نغيب أيضاً في الظلمات؟

لاحظ اعوجاج الفم، وتتوتر الشفتين. في العينين تكلّم الشقاء بلغة أخرى.

(٣)

صعد السفح في الفجر وشرع يحفر القبر بالمعول. برزت الشمس وهو ما يزال يحفر. بهمهم بأغنيات كثيرة بلغة بامبارا. يستعين من حين لآخر بيديه المجدورتين لإزالة التراب. أخيراً بلغ الرميم. استخرج المعمص في البداية. ثم القفص. وأخيراً الجمجمة. كانت مصقوله. لمّاعة، بشعة. أجلّتها التربة ولحس التراب اللحم عن وجهها. قلبها بين يديه فتساقط منها الرمل. تفقد الفتقة التي تسرّب منها التراب. تفحّصها فانبثقت خنفسة كبيرة،

سوداء. رمى الخنفسة خارج القبر واستمر يتفحص الجمجمة. نَدَّتْ عنه شهقة شجَّنة طولية قبل أن يبدأ في المناجاة:

ـ هل هذه نهاية المطاف يا أميرة الصحراء الكبرى؟ هل هذا أنت يا ملكة تينبكتو و«واو»؟ هل هذه الجمجمة الصماء هي نفسها ذلك الرأس المكابر الذي حطم قلوب الشباب وحرق قلب الدرويش؟ هل هذه العظمة القبيحة هي نفسها معشقة «أمناي»؟.

أيُعقل أن يعيش الآلهة مخلوقاً زائلاً كهذا؟ أيُعقل أنها سلبت مني الفؤاد وأنا رسول الآلهة أمناي؟ فأين تختفي الشيطنة في هذا القح؟

توقف عن المناجاة. استمرَّ يقف داخل القبر ويتفحص كنزه. عاد إلى المناجاة:

ـ ولكن مَنْ قال أني عشقتها؟ مَنْ يجرؤ على الادعاء بأن العِرَافَ إيدكران يستطيع أن يعيش مخلوقة فانية اختارها آلهة القبلي «أمناي» عروساً له؟ كيف استطاع إيدكران أن يخون الآلهة ويقع في عشق طفلة؟

ارتجفت أصابعه. تهُّجَّ صوته:

ـ ولكن.. على العِرَافَ إيدكران أن يسلُّم بهزيمته. عليه أن يتخلى عن الكبرياء الكاذب ويعترف بالعشق. نعم. أنا عاشق العروس الحجرية. ليتها حجرية. إنها جمجمة كثيبة. عظم. تراب. إيدكران المكابر أذْلَه طفلة. جمجمة. عظمة!

ضمها إلى صدره بيدين راجفتين. لَثَّمَها بشفتيه. همس بنبرة محموم:

ـ لن أتخلى عنك. لن نفترق. لن أتنازل عنك للإله أمناي. حتى الإله لن يأخذك مني.

فوق رأسه وقف الزعيم. قال كأنه يواصل حديثاً لم ينقطع قط:

ـ إذا كان عاشق العروس الحجرية قد قفز وراء المعشقة في هاوية الوادي فإن عِرَافَ الأدغال قفز وراءها في القبر.

رفع إليه إيدكران نظرة غائبة. لم يخرج من الغيبوبة فواصل الزعيم آده:
- ولكنني أعترف أن العَرَافَ كان صريحاً معي. ولو لا اعترافه القديم
لظنت اليوم أن بعقله مَسَّاً.

همهم إيدكران هو يتَابِطُ الجمجمة ويحاول أن يخرج من فوهة القبر:
- نعم. نعم. الزعيم على حق. كنت أعرف منذ البداية أن الزعيم دائمًا
على حق. أهل الاعتدال هم الذين يكبسون الجولة الأخيرة.

عِبَثُ النَّسِيمِ بِثُوبِ الزَّعِيمِ فَاشْتَمَّ إِيدِكْرَانَ رائِحةَ الْعَرَقِ: عَرَفَ الْمَهَاجِرُ
الذِّي قَطَعَ شَوَطًا طَوِيلًا فِي رَحْلَتِهِ مَدَّ لَهِ يَدًا مَجْدُورَةً مَعْفَرَةً بِرَغَامِ الْقَبْرِ.
صَافِحَهُ الزَّعِيمُ. قَالَ مَعْقِبًا عَلَى تَعْلِيقِ الْعَرَافِ:

- يَكْبِسُونَ الْجُولَةَ الْأُخِيرَةَ. جُولَةُ الْأَنْقَاضِ وَالْخَرَابِ وَالْفَنَاءِ. أَهْلُ
الْاعْتَدَالِ يَكْبِسُونَ الْهَوَاءَ، يَقْبِضُونَ الرِّيحَ.

- لَا شَيْءٌ أَبْدَأْ بِلَا ثَمَنٍ.

- فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَعْجِزُ عَقْلِي عَنْ فَهْمِ رُمُوزِ الْعَرَافِينِ.

- لَمْ أَجِدْ فِي لُغَتِي إِلَى رِمْزٍ وَاحِدٍ مِنْ رُمُوزِهِمْ حَتَّى الْآنِ. أَرَدْتُ أَنْ
أَقُولَ: لَا بَدَّ أَنْ تَقْبِضَ الْرِّيحَ مَقَابِلَ أَنْ تَخْسِرَ أَعْدَاءَكَ هَلْ تَرِيدُ أَنْ تَكْسِبَ
الْعَرَاكَ دُونَ أَنْ تَخْسِرَ شَيْئًا؟

- خَسِرْتُ قَبْلِيَّيِّيِّ. خَسَارَةً لَا يَعَادِلُهَا سُقُوطُ الْعُدُوِّ الْمَزْعُومِ.

- هَلْ السُّلْطَانُ عَدُوُّ مَزْعُومٍ؟

- لَا أَنْفَيُ الْخَلَافَ وَلَكِنِي لَمْ أَتَخْذِهِ خَصْمًا.

- كُلُّ الصَّحْرَاءِ مَدِينَةٌ لِلْزَعِيمِ بِرُوحِ التَّسَامِحِ. التَّسَامِحُ سَلَاحُ الْأَخْبَارِ وَسَرُّ
الْمُعْتَدِلِينِ.

- أَنْتَ تَبَالَعُ كَثِيرًا.

مَرْقَ إِيدِكْرَانَ قَطْعَةً مِنْ كَمَّهُ الْفَضْفاضِ. لَفَّ الْجَمْجَمَةَ فِي خَرْقَةِ
الْقَمَاشِ بِعَنْيَةٍ. بَرَّ لَهْفَتَهُ أَمَامُ الزَّعِيمِ:

- هذا قربان «أمناي». جئت من أجله حياً وأعود به عظاماً رميمه.
ثم عَقَبَ في سرّه: «فلتغفر الآلهة جساري. ولكن الجمجمة لن تكون
من نصيب أمناي أبداً».

قال الزعيم كأنه قرأ نوایاه:
- هل تغَرَّتْ وتعَذَّبْتْ وحاربتْ كلَّ هذَا العَمَرِ كَيْ تَعُودَ إِلَى تَبَيْكَتْرُ
بِجَمْجَمَةِ؟

ابتسِمَ العَرَافَ:
- الْبَطْوَلَةُ فِي أَنْهَا جَمْجَمَةُ. الْبَطْوَلَةُ أَنْ تَدْفَعَ عَمْرَكَ مُقَابِلَ عَظَمَةِ فَانِيَةِ.
هِيَ - هِيَ - هِيَ . . .

قطع ضحكته المتوردة وأكمل فكرته عن البطولة:
- الْبَطَلُ هُوَ الْوَحِيدُ الَّذِي يَقْدُمُ عَمْرَهُ قَرْبَانًا لِيَتَقَاسِمَ الرَّمِيمَ مَعَ التَّرَابِ.
عاد يلثم الجمجمة الملقففة في الخرقة ويتصاحك بغموض العُرَافِينَ.

(٤)

تسلل موسى إلى القصر في عتمة الفجر. تخطى جثث الزنوج والتجار
وجنود السلطان. فاح العفن فسداً أنفه بلثامه. بلغ باب الدهليز فوجده
محطماً. نزل درجاً مظلماً. أفضى الدرج إلى دهليز مضاء يصيص يسقط
من كوة صغيرة من السقف. تحسس الجدران وسعى بحذر عبر الممر.
ارتطم بجسم فسقط على الأرض. اشتدَّ رائحة الرطوبة والغار الحبيس.
تفحص الجسم مستعيناً بيديه فوجده صندوقاً مغموراً بالأترية. تحسس
أطرافه حتى اهتدى إلى العروة. جرّه وعاد على عقبه. سقط مرتين قبل أن
يصعد وبلغ الباب المحطم. عبر الردهات والأقواس وهو يجرّ الصندوق.
أفضى الردهات إلى الممرات المعتمة. توقف ليلتقط نفساً. جلس على
الصندوق في قلب الممر. مسح العرق والتراب عن وجهه ويديه. تفحص
كدمه في المرفق الأيمن أصيّب بها في سقطه الأولى. انتظمت أنفاسه
فغزت أنفه موجة من العفونة. أحكم لف اللثام حول الأنف وأنصت لسكون

الخراب المسكونة بالأشباح والموتى. استعاد الماضي ورأى نفسه وهو في طريقه لزيارة الأميرة.

سمع في قلب السكون طرق الحدادة في الرواق السري وهم يسكنون معدن النحس. وها هو السكون يخاطبه، الآن، وحيداً بلغة الصحراء، بلغة العدم. عادت واو إلى المجهول ولم يبق منها سوى السكون المقدس. كأن الصحراء تسخر من البناء المكابر وتقول إن كل شيء سواها زائل وباطل. لا وجود إلا للصحراء، ولا خلود إلا للسكون.

وأصل مسيرته.

جر الصندوق واتجه إلى البوابة الغربية. توقف قبل أن يبلغ البئر وبدأ يزبح عنه التراب. صندوق خشبي كبير، مربع الأضلاع. تندلى من جانبيه عروتان من نحاس. أطرافه الأربع أيضاً موشأة بقطع أنيقة من النحاس. الصندوق محروس بقفل كبير مصنوع من النحاس أيضاً. عاين القفل المهيّب فتذكّر المفتاح السري: مفتاح السلطان الذهبي الذي حلم التجار بالاستيلاء عليه ونسج أهل السهل حوله الأساطير. بالأمس غافل «تافاوت» وذهب إلى الراية. تفحّص رفات السلطان فوجد الأحاجة والتعاويذ ولكن المفتاح اختفى.

اشتعل في صدره الفضول وقرر أن يقتتحم الدهليز.

تناول حجراً صلداً وشرع يدق القفل النحاسي الكثيف.

برز قرص الشمس.

فوق رأسه وقف الزعيم.

قفز الدرويش. تراجع خطوات. تخلّى عن الصندوق، ولكنه استمرّ يتمسّك بالحجر. تلوّنت وجنته بالشحوب. قال بخجل:

ـ أنت تعرف.. الفضول في صدر ابن آدم أفعى لا تموت. في قلب كل إنسان شيطان!

ابتسم الزعيم.

- وهل خامرك الشك! هل ظنتت أنني يمكن أن أسيء بك الظن؟.

نَكَسَ موسى رأسه فتكلم الزعيم بلهجة تشجيعية:

- أنت لست في حاجة لتقديم مبررات لأنني لا أنوي أن أتهكم بالطمع.
هل نسيت أنك أول من كشف سر المعدن وقدم سوار النحس قرباناً
للهِبِل؟

- لا أستطيع أن أغفر لنفسي الفضول.

ضحك الزعيم:

- أنت طفل كبير يا موسى. هل تعلم أن أكثر ما يثيرني فيك ويشدّني
إليك هو أنك طفل كبير؟
ابتسم الدرويش. تشجع آدة وتتكلّم بدعابة:
- الآن ستحلّ بأخلاق الشيطان معًا ونطلق سراح الفضول في النفوس.
هياً اكسر القفل بالحجر.

شجّعه الزعيم بالدعابات والسخرية وتتكلّم كأنه يوجّه خطابه للقدر:

- تنازلنا عنه للأحياء ونأخذه من الأموات. ولم لا؟ إنه كالمرأة متقلّب
الطابع. يعادي من يصادقه ويصادق من يعاديه. ولم لا؟ لو لم يفعل ذلك
لما قال عنه «أنهي» أنه معدن الجن. لو لم يكن لعواً لـما ملكه الشيطان!

انحنى فوق الدرويش. تابع جهوده في كسر القفل العيني. وعندما أفلح
موسى، وانكسر عسّاس النحاس، تبادلا نظرة غامضة. تراجع الدرويش
وأفسح المجال للشيخ كي يتولّ الأمر. كي يزبّح الغطاء عن الكنز. كأن
الصندوق يخفي شيئاً آخر غير الذهب. كأن الصندوق الخفي يؤوي
أفعواناً، كأن الصندوق فقمق يضم مارداً. والدرويش تهيب القمم. خاف
أن يكشف الغطاء فيتحرر المارد. حتى الدرويش يخاف المرأة.

مازحه الزعيم مُشجّعاً:

- هيا يا موسى. لماذا لا ترينا أن نجرب حظنا؟ أليس عن حق الزَّهاد

والدراوش أيضاً أن يجربوا يوماً حظهم في الكنوز والذهب؟ هيا.. دعنا نجرب حظنا أيضاً!

التقت نظراتهما مرة أخرى. رأى الزعيم شعاع الشمس البكر في عين الدرويش الحولاء. لاحظ الدرويش في عيني الزعيم قلقاً خفياً. انتقل إليه القلق. أصيب بالعدوى. خاف أن تفضحه يداه فتشكلهما وراء ظهره. أربكته الحركة فشهرهما أمام وجهه كأنه يكتشفهما لأول مرة. بدأ يفرركهما بعصبية. سمع الرعيم يصبح وقد فقد سكتته القديمة:

- أزح الغطاء. ماذا تنتظر؟

تقديم خطوتين. أغمض عينيه وأزاح الغطاء عن القمم. ظلّ مغمض العينين.

- هذا ما يحدث عادةً عندما ينوي الزهاد البلياء أن يخرجوا من الصراط ويفرروا أن يجربوا حظهم في إمتلاك الكنوز! .

ثم سمعه يضحك ضحكة صافية. طويلة. أريحية. ففتح عينيه. استنفر حدقتيه لمقاومة انعكاس الشعاع الذهبي في ذرات التّبر، ولكن الصندوق كان مُطفأً. ماذا؟

لم يكن مطفأً. في الصندوق ينام شبح ناصع. رفات مُدثر بالبياض؟ هل هو رفات؟ تساءل الدرويش بسذاجة درويش:

- ما هذ؟

سخر منه الزعيم:

- لا تعرف ما هذا؟ أنت حقاً درويش. ألم ترِد إرضاً شيطان الفضول؟ ألم نقر منذ قليل أن ننضم إلى طابور الأثرياء؟ خذ الآن. هذا كتزك. هذا كتزنا المشترك. لماذا لا تتفقد وتأخذ الكتز؟ ها - ها - ها..

لأول مرة يسمع الزعيم آدَه ينفجر في ضحك قبيح. ضحكة شيطانية. ماذا يريد الزعيم أن يقول بهذه القهقهة الكريهة؟ هل فقد الشيخ وقاره وصوابه؟ ما الذي يجعل الزعيم الجليل يفقد جلاله وقاره؟ هجم على القماش المُسَجَّن في الصندوق. تثبت به بكلتا يديه وأخرجه من القمقم. من التابتوت. ألقاه على الأرض وشرع يفتش في طياته ويبحث بين ثيابه. فاحت رائحة القماش الجديد. احتفظ برائحته البكر حتى بعد أن قضى في التابتوت سنوات مقبرة. ولكنه فقد بكارته وبهجهة الآن. تحول بين يدي موسى من قامة ناصعة، مستقيمة، بهيجة، إلى كوم بائس.

قطع الزعيم ضحكته وألقى بتعليقه الفظيع:

- هذا كفن يكفي لنا جميعاً! السلطان كان حكيناً!

سؤال موسى بدهشة طفولية:

- كفن؟

ازداد الفموض في عيني الشيخ:

- وهل هو ثوب عروس؟ وهل تظن أن الزُّهاد يمكن أن يعثروا على شيء آخر غير الكفن؟

ضحك مرة أخرى، ثم توقف وأضاف:

- هذه أقدم حيلة في يد إبليس. يظلُّ يوسموس ويراود أعداءه مائة عام. ليس ثمة مثابر في الصحراء يمكن أن يفوق إبليس صبراً. وعندما تنقضي المائة عام ويضعف الزاهد ينزل إلى الأرض ليجرب حظه. يفعل ذلك من باب التسلية عادة. أو فلنقل من باب الفضول إذا استعملنا تعبيرك الذكي. هنا يجد إبليس فرصة للغش، فيطلع له لسانه كما فعل معنا! ها - ها - ها ..

احتَجَ الدرويش:

- ولكنك قلت منذ قليل أنك لا تشكُّ في نوایا. هل ظنت أنني أبحث عن كثر حقاً؟

مسح الشيخ دموعاً بكم جلباه. رفع ثامنه إلى أربعة أئمه.

استعاد وقاره:

- وماذا يفعل الدرويش بالكنز؟ ولكن كيف نسيت أن الفضول أيضاً شهوة يمكن أن يستمرها الشيطان الرجيم لصالحه.

- هل يتصيد الرجيم حركاتنا وسكناتنا إلى هذا الحد؟

- وهل يملك عملاً آخر؟ تفرغ لهذه المهمة منذ كسب الجولة الأولى وطردنا من واو. **لَعْنَةُ اللهِ!**

تردد موسى لحظات، ثم ترجم شكوكه:

- الحق أني لم أظن أن السلطان حكيم.

- أعترف أيضاً أني كنت مخطئاً في تقدير حكمته. ربما أعماني خلافي معه عن رؤية حكمته.

- ماذا أراد أن يقول بالضبط؟

- أما زلت تجهل ما قال؟ هل يمكنه أن يقول أكثر مما قال؟

-

- الحق أنه لم يضف جديداً إلى ما قاله «أنهى» قبله. فلا كنز للإنسان غير ما يأخذ معه إلى قبره. وماذا يأخذ الإنسان من الحياة غير الكفن؟

- لقد أسانا به الظُّرُّ.

- كان صادقاً في بناء واو. كان صادقاً في إقامة فردوسه الأرضي، ولكنه أخطأ في تقدير كفاءة الذهب.

- ولكنه قدم لنا الآن برهاناً آخر.

- الحق أن هذا البرهان كان مفاجأة لي.
رَمَقَ القماش الْبُكْرَ وأضاف باكتئاب:

- هذا دليل آخر على أن الإنسان سرّ أبيدي. من يجروه ويأخذ على عاتقه

مسؤولية ويدعى أنه يعرف الإنسان بعد اليوم؟

في الطرف الشمالي، وراء الروابي، لاح شبح العراف.
جلس على ناقته العجفاء، بين قرَب الماء، وتعلق بالأفق البعيد. مرّ قرب
البئر ولكنه تزُّرَّ بزاده من الماء في الليل فمضى، مهاجراً، دون أن يتلفت.
المهاجر إذا انطلق لا يرى غير الأفق.

فوق رأسه حلق غراب.

اقترح الزعيم وهو يتناول الكفن:

- هذه وصيَّة. وعلى الأحياء أن ينفُذوا وصايا الأموات. الواجب يقضي أن
نَكُونَ الجسد ونعطيه للأرض التي أُعْطَتَه.

احتضن الكفن ومشى إلى الراية حيث يهجم السلطان.

(٥)

هَجَّعَ الزعيم ورَاقِبُ الدُّرُوِشِ مِيلَادُ الْبَدْرِ.
اتَّخَذَا مَوْقِعًا تَحْتَ الْجَبَلِ الْأَخْرَ، الْمَغْدُورُ، وَتَرَكَا السَّهْلَ لِلْجَنِّ وَالْأَشْبَاحِ.
عَلَى بَعْدِ خُطُوَاتٍ ارْفَعَتْ أَلْسَنَةُ النَّارِ وَطَافَتْ تَافَوْتٌ تُعْدُّ الْعَشَاءَ. كَانَ
الشَّيْخُ يَرَاقِبُ النَّجُومَ عَنْدَمَا قَالَ الدُّرُوشُ:

- تَرِيدُ أَنْ تَنَالَ الْوَلَدَ بِالْغَصْبِ. قَالَتْ إِنْ قَدْرَ الرَّجُلِ أَنْ يَعْطِيَ الْمَرْأَةَ
الْأَوْلَادَ، وَلَوْ لَمْ يَحْمِلْ الْذَّرِيَّةَ فِي صَلْبِهِ لَمَا التَّفَتَ إِلَيْهِ أَحَدٌ. فَهَلْ هَذَا
صَحِّحٌ؟

اسْتَمَرَّ الزَّعِيمُ يَهْجُّ عَلَى قَفَاهُ وَيَتَابِعُ النَّجُومَ السَّرِيَّةَ. إِنَّكَ مُوسَى عَلَى
حَجَرٍ وَعَثَ بِالْتَّرَابِ:

- أَنَا أَخَافُ. لَنْ يَسْتَطِعَ أَحَدٌ أَنْ يَحْمِنِي غَيْرِكَ.
لَمْ يَسْتَجِبْ أَدَهُ. تَوَسَّلَ الدُّرُوشُ:

- إِنَّهَا مُخِيفَةُ. أَنْتَ لَا تَعْرِفُ كَمْ هِي مُخِيفَةُ عَنْدَمَا تَشْتَاقُ لِلْوَلَدِ!

- أنت لن تتخلّى عنِي. هل ستخلّى عنِي؟

- أنت تعرف السرّ. أنت الوحيد الذي يعرف السرّ. فماذا أفعل معها؟ ماذا يفعل رجل يخفي سرّاً بإمرة تزيد طفلاً؟
لم يجب الزعيم. لم يتحرك. ولكن عينيه ظلّتا مفتوحتين، يقطّتين،
تتابع الإرشادات المجهولة.

زحف نحوه موسى. انحنى فوق رأسه. قال بصوت غريب:

- الحق أنّ الذي اقتراحاً.
تابع أنفاس الزعيم ثم أكمل:

- قالت إن الرجل يفقد الخيار عندما يتعلق الأمر بانفراض القبيلة. بإنقاذ
القبيلة من الزوال.

-

- هذا النداء موجّه لك وليس لي. الله هو الذي اختارك كي تتقذ الأصل من
الفناء. الله هو الذي أخفاها في الكهف وأنقذها من الغزو كي تدخل عليها.
رفع الشيخ رأسه. سقط طرف ثامه. رمن الدرويش باستنكار. تراجع
موسى إلى الحجر وَبَرَّ الجسارة بقصص القرآن:

- ولم لا؟ ألم ينجّب سيدنا إبراهيم إبنه إسحاق في آخر العمر؟ ألم يفرّجه
بذرية بعد أن بلغ المائة؟

تأمّله، تحت الضوء العُذري، لحظات. خيل لموسى أنه ابتسم قبل أن
يهجّع من جديد. ابتسم أيضاً وازداد يقيناً في فعالية الحصن القرآني.

(٦)

في قلب الليل استيقظ الشيخ على النداء: العواء الغامض، القديم،

الفاجع، الذي لا تتقنه في الصحراء سوى قبيلة واحدة: الذئاب.
أنعمت مغمض العينين. اقتربت العشيرة. ارتفع النداء فوق رأسه:
- عو- و- و- و- و- . . .

فتح عينيه وبحث عن رُسُل قبيلة «موخامد». كان القمر ينحني مائلاً للغرب، والأفق يَعُد بميلاد القَبَس، ولكن لا أثر للرُّسُل. عاد السكون المعظم يقبض على الصحراء. أدهشت السرعة التي اختفت بها الرُّسُل. ولو لم يكن يقظاً تماماً لكتُب نفسه وأيُّقُّن أنه سمعهم في الحلم. فهل جاؤوا وراء رائحة الجثث؟ إنَّكَ على مرافقه وتفقد الموقع. تفاوتت تكؤُم بجوار المهرى في الناحية الأخرى. ولكن.. مأوى الدرويش هو الشاغر. قال في نفسه أن إخوته الذئاب أيقظوه فذهب ليقضي حاجته. ظلَّ يفكُّر في صلة القرابة التي تربط الدرويش بعشائر الذئاب حتى غَلَبَ النوم.

(٧)

في الصباح اكتشف خواء مأوى الدرويش.

جَاءَتْه تفاوتت بكون الشاي. رَسَف بيطء. انتظر حتى أشَرَقَ الشَّمْس. نهض واقتفي الأثر. أَنْجَه إلى السفح الغربي في البداية، ثم مسَى نصف دائرة حتى عثر على الخطوات الأخيرة، الليلية. انحرف شرقاً، نزل شعباً مغمورة بالرمل. هناك التقى الأَثَرَ بآثار الرُّسُل. انضمَ الدرويش لعشيرة الأشقاء. انحدروا إلى الشرق. تابعهم حتى وصلوا وادي الطلع. هناك وجد موسى يحوم حول سِدْرَتَه الأثيرة. طاف حولها ثلث مرات. ثم عاد ليُنضم للعشيرة مرة أخرى. خرجموا من الوادي. اتجهوا جمِيعاً إلى الجبل. تتبع الأَثَرَ. بدأ سفح الجبل يفرش أمامهم صحراء سوداء من الحجارة والحزير. أَصَاعَ الأَثَرَ.

(٨)

عاد إلى الموقع.

أخبر تناووت أن تُعد الأمتعة. ثبَت السرج على المهرى. فَرَّشه بالأغطية وأعد للمرأة مكاناً وثيراً. ساعده في تثبيت قرب الماء حول السرج. داعب الجمل ومُسَد على رقبته بحب. التفت الحيوان الذكى ولشَّ يده مستجيناً للدعاية. ثم مَدَ رقبته وتعلَّق بالأفق وقد تهياً لقطع طريق طويل.

أشار لتناووت فاقتربت. ساعدها في الجلوس خلف السرج. أعطى الإشارة للمهرى فنهض برشاقة.

تحرَّك.

قاده عبر السهل، ثم انحرف يميناً متوجباً أن يمر على الأنفاس. إلى جواره شمَالاً وقف ايديان كانه يحييه مودعاً. توقف أيضاً وتأمله طويلاً.

وواصل المسير.
أمامه امتدَّ خلاء كالفناء.

«انتهت»

موسكو - جنيف - ليماسول - طرابلس - مصراتة
في الفترة الواقعة بين
٢٣/٧/١٩٩٠ و١٢/٢٨/١٩٩٠ م.

الفهرس

الإهداء

القسم الثالث

| | |
|-----|-------------------------------|
| ٩ | ١ - الزعيم |
| ٩١ | ٢ - الشكوة |
| ١٠٩ | ٣ - شرائع الأرض وشرائع السماء |
| ١٢٧ | ٤ - الحياة |
| ١٥٩ | ٥ - سرّ الظّمآن |
| ١٩٣ | ٦ - الرّهان |
| ٢٢٥ | ٧ - الوعاء |
| ٢٤٧ | ٨ - اللّثام |
| ٢٥٥ | ٩ - آمغار |
| ٢٧١ | ١٠ - المرثيات |
| ٢٨٣ | ١١ - القدر |

القسم الرابع

| | |
|-----|---------------|
| ٣٠٣ | ١ - المكيدة |
| ٣٢٩ | ٢ - ديماسبروا |
| ٣٣٧ | ٣ - الّكفن |